



الجمهورية العربية المتحدة  
الثقافة والإرشاد القومي

# نَهْجُ السَّيْلِ

في المكتبة العربية

تأليف  
مُحَمَّدُ جَمْدِيُّ المِثْنَاوِي

الناشر: دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م





نَهْجُ السَّيِّدِ  
فِي الْمَكْتَبَةِ الْعَرَبِيَّةِ

المكتبة العربية

تصدرها

الثقافة والإرشاد القومي

بمشرعيتها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة





الجمهورية العربية المتحدة  
الثقافة والإرشاد القومي

# نَهْجُ السَّيْلِ

في المكتبة العربية

تأليف  
محمد حمدي الميناوي

الناشر: دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م







## تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال

مصر هبة النيل ، حكمة خالدة قالها أبو المؤرخين هيرودوت فضمنها أشياء كثيرة يمكن أن يقال وأن تفصل ، فمصر بلا نيل كانت تكون جزءاً متمماً للصحراء الممتدة شرقى الوادى وغريه ، فوجود النيل خلق مصر القطر والموقع الجغرافى ، وجعل أفئدة من الناس تهوى إليه ، وأقام فى هذه البقعة شعباً .

وهذا الشعب تحكم بدوره فى هذا النهر المبارك الغدوات والروحان ، فنظم مياهه ، ونحفر فروعه وترعه وخلقجانه ، ووجهها الوجهه التى يرضاها لزراعة أكبر مساحة ممكنة من أراضى هذا الوادى ، وأقام الجسور والقناطر لتنظيم مواصلاته ونقل محاصيلاته .

ولاحظ المصرى بعد ذلك الصلة الوثيقة بين دورة فيضان النيل ودورة الشمس فنظم فصول زراعته واقتصادياته على أساس من هاتين الدورتين ، وكشف عن السنة الشمسية وفصولها وشهورها ، وأنشأ لحكومته دواوين منظمة تشرى على شئونها الإدارية والمالية ، والإدارة فى معظمها كانت تعمل على حفظ الأمن والمحافظة على منشآت الرى والزراعة لتتهتر الأرض وتربو وتخرج من كل زوج بهيج ، ومالية الدولة فى معظمها كانت تركز فى الضرائب التى تجمعها الحكومة على ما تخرجه الأرض من خير وثمار .

وانطلق الشعب المصرى بعد استقراره وتنظيم حكومته إلى ميدان البحث العلمى فعرف علوم الهندسة والمساحة والفلك والكيمياء والطب واستخدام هذه العلوم والمعارف فى استغلال خيرات النهر والأرض وإقامة حضارة مزدهرة هى أم الحضارات فى العالم .

وتتابعت على حكم هذا البلد الأمين دول ، ودول ، سارت كلها على نفس النهج واتبعت نفس التقاليد التى أوحى بها النيل ؛ فكانت كل دولة منها تضيف لبنة جديدة إلى بناء الحضارة المصرية ، وتحمل المشعل الذى كان يرسل إشعاعاته الحضارية إلى كل دول المنطقة المجاورة إلى أن كان الفتح العربى لمصر على يد عمرو بن العاص ، ولم يمض غير قليل حتى نسي المصريون لغتهم ودينهم واعتنقوا العربية لغة والإسلام ديناً ، وأصبحت مصر مركزاً وسطاً للحضارة العربية الإسلامية .



وأدرك المصريون في عصر عروبتهم أن النيل مصدر الخير والبركة والحياة لهم ولبلدهم الطيب فمنحوه كل اهتمامهم وعنوا عناية كبرى بدراسته ووصفه ، ورصد أوقات فيضانه ، وأقاموا المقاييس لتتبع مقادير زيادته ونقصانه ، واحتفلوا بالاحتفالات البهيجة الرائعة بمواسم وفائه ، وأقاموا النظم لربط سنتهم الهجرية بالسنة الشمسية التي تسير في سمت واحد مع مواعيد فيضان النيل وجمع أموال الخراج .

وألف العرب من مؤرخين وجغرافيين ورحالة الكتب والفصول للتأريخ لنهر النيل ، أو لوصف ودراسة فروعهِ وترعهِ وخلجانهِ وجسوره وقنواتهِ وقناطرهِ ومقاييسهِ . وكان للنيل أثر آخر رائع على أقلام الأدباء وخيال الشعراء فقالوا الكثير شعراً ونثراً في وصف جماله وسحرهِ وفضله مما يكوّن حصيلة غنية في ديوان الأدب العربي . هذا الإنتاج الضخم ما هو كماً ، وما هي قيمته كيفاً ، وما هي محتوياته ؟ وما قيمة هذه المحتويات من الناحيتين التاريخية والعلمية ؟

الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها كثير ، هي موضوع هذا البحث الذي أعده السيد محمد حمدي المناوي تحت إشرافي منذ سنوات للحصول على درجة الماجستير .

ومحمد حمدي المناوي أعرفه منذ كان طالباً بقسم اللسانس بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية فكان مثال الطالب الجاد المجتهد ، فقد كان موظفاً وطالباً في نفس الوقت ، ومع هذا حصل على درجة اللسانس في سنة ١٩٥٥ بدرجة جيد جداً مع مرتبة الشرف ، ثم حافظ على امتيازهِ فأجيز بحثهِ هذا لنيل درجة الماجستير في إبريل سنة ١٩٦١ بتقدير جيد جداً :

وموضوع البحث «نهر النيل في المكتبة العربية» ويضم مقدمة وأبواباً خمسة :  
في المقدمة تحدث المؤلف عن مكانة النيل عند المصريين والقدماء من اليونان والرومان والبيزنطيين حتى الفتح العربي .

أما الباب الأول فجعل المؤلف عنوانه : «النيل في الكتب العربية» وقسمه إلى فصول ثلاثة :

الفصل الأول وموضوعه «النيل في الكتب الدينية» وقدم فيه دراسة إحصائية تحليلية لكل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ورد فيها ذكر النيل .

والفصل الثاني وموضوعه «النيل في الكتب العلمية» ، وتناول فيه الباحث بالدراسة كل ما ورد عن النيل في أربع مجموعات من الكتب :

١- كتب الجغرافيين العرب ابتداء من الخوارزمي واليعقوبي إلى ابن فضل الله العمري ثم محمد عوض محمد .



– وكتب المؤرخين ابتداء من ابن عبد الحكم والمسعودى إلى ابن أبى السرور البكرى وعلى مبارك .

– وكتب الرحالة ابتداء من ابن سليم الأسوانى إلى ابن بطوطة .

– وكتب الخراج ونظم الحكم ابتداء من قدامة بن جعفر إلى القلقشندى .

والفصل الثالث وموضوعه « النيل فى كتب الأدب » وقد أورد فى هذا الفصل نماذج لما كتبه الشعراء والأدباء من وصف أو رسائل نثرية تتصل بالنيل وفيضائه ، واتبع هذا وذاك بدراسة تحليلية مقارنة أثبت فيها أهمية هذه المادة كلها لدراسة كثير من الموضوعات المتصلة بنهر النيل كالفيضان وأعياد الوفاء ومقاييس النيل ، وتحويل السنة الهلالية إلى خراجية ، وربط نظام الخراج بوفاء النيل ، وكل هذا واضح وضوحاً تاماً فى وصف أمية بن أبى الصامت لنهر النيل ، وفى رسائل البثرى بوفاء النيل بأقلام كتاب الإنشاء من أمثال ابن قادوس والقاضى الفاضل وابن الصيرفى وغيرهم ، وقد أثبت المؤلف فى هذا الفصل بالبراهين التاريخية أن الخطاب المنسوب إلى عمرو بن العاص فى وصف النيل لا يمكن أن يكون من إنشائه وأنه صنع فى عصر متأخر .

وخصص المؤلف الباب الثانى للكلام عن « جغرافية النيل فى المؤلفات العربية » ولتنظيم دراسته لهذا الموضوع قسم هذا الباب إلى فصول أربعة :

فتحدث فى الفصل الأول عن أنبع

وفى الثانى عن المجرى

وفى الثالث عن المصب وقمة الدلتا وفروع النيل

وفى الرابع عن الخلجان والترع والجسور .

وللباب الثالث فيما أرى ، أهمية خاصة ، فقد قدم فيه المؤلف دراسة مستفيضة لما جاء فى الكتب العربية عن « الفيضان والنظم الاقتصادية » وقسمه المؤلف إلى فصاين : قدم فى الأول منهما بحثاً طيباً عن الفيضان وأسبابه ، وعن أعياد النيل كمحفل عروس النيل وليلة الغطاس وعيد الشهيد وأعياد الوفاء .. الخ ، كما قدم فى الفصل الثانى دراسة جديدة ممتعة عن النظم الاقتصادية والزراعية وعن الضرائب والمجاعات والملاحق فى النيل ... الخ .

وفى الباب الرابع دراسة جديدة شاملة للخرائط التى رسمها المؤلفون العرب لنهر النيل ، وقد ألحق بهذا الكتاب صوراً لتسع من هذه الخرائط من رسم : ابن سراييون ، والشريف الإدريسي ، وابن حوقل ، والاصطخرى ، والمقدسى ، وابن جماعة ، والسيوطى .



أما الباب الخامس والأخير ففيه دراسة تحليلية مقارنة للمخطوطات العربية التي ألفت عن نهر النيل ولم تطبع بعد وعددها تسع مخطوطات لمؤلفين مختلفين مبعثرة في مختلف مكتبات العالم .

وقد بذل السيد محمد حمدي المناوي جهداً ضخماً في إعداد بحثه فرجع إلى المصادر الأصلية مخطوطة ومطبوعة ، عربية وأجنبية ، وأظهر مقدرة طيبة في جمع مادته والتوفيق بينها وعرض هذه المادة عرضاً شائقاً في أسلوب عربي سليم .

وقد تقدم سيادته ببحثه هذا إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية معلناً عن رغبته في أن ينشر ضمن كتب المكتبة العربية ، وأحيل الكتاب إلى لجنة التاريخ والآثار فوافقت على نشره وأقر المجلس هذه الموافقة وتفضل أن عهد إلى بكتابة مقدمة للكتاب ، فقبلت التكليف شاكرًا إذ يسعدني أن أقدم للقارئ الكريم شاباً مجداً مجتهداً وكتاباً قيماً كانت المكتبة العربية في حاجة ماسة إليه . أرجو للمؤلف مزيداً من التوفيق ، وأرجو للكتاب أن يكون ذا نفع للقارئ العربي ولكل المهتمين بالدراسات المتصلة بنهر النيل .

الإسكندرية في ١٥ ديسمبر سنة ١٩٦٥

جمال الدين الشيال

## تمهيد

### مكانة النيل عند المصريين والقدماء

#### حتى الفتح العربى

كانت الأقاليم الصحراوية الواقعة جنوب البحر الأبيض - فى العصر المطير أو كما يعرف أيضاً بالحجرى القديم - ملائمة لسكنى الإنسان ، بما كان ينبت فيها من حشائش وأعشاب وأشجار ، وما كان يعيش فيها من حيوان كالوعل والغزلان والأبقار والأغنام ، فاستطاع أن يحيا فيها حياته التى لم تكن تتعدى الالتقاط أو الجمع واقتناص الحيوان بوساطة آلاته الحجرية التى وجد الكثير منها فى الصحراء بين الغربية والشرقية .



وبانتقضاء العصر المطير تغيرت الأحوال فى الصحراء لحلول الجفاف لقلة المطر أو انعدامه ، ولم تعد صالحة للسكنى ، ومن ثم اتجه الإنسان والحيوان نحو مجارى المياه حيث تتوافر أسباب المعيشة .

وظهرت الحياة فى وادى النيل ، وتكونت على ضفافه مجتمعات تركزت جانباً حياة التجوال للحصول على الغذاء ، إلى حياة مستقرة تقوم على الزراعة واستغلال الأرض . وظهرت مع هذه الحياة الجديدة مشكلات ، وجد الإنسان أن التغلب عليها لا يتم إلا بالعمل الجماعى الذى يقوم على مجهود مشترك . وكانت أهم هذه المشكلات هى مواجهة فيضان النهر ورد غائلته ، بإقامة الجسور وإنشاء ربنى عالية لبناء القرى عليها حتى تكون بعيدة عن مياه الفيضان .

أما المشكلة الثانية فهى كيفية الانتفاع بهذا الفيضان . فكان لابد من حفر الترع وشق القنوات وإقامة الجسور والسدود وتقسيم الأرض إلى أحواض . من هنا وجد الإنسان نفسه مضطراً إلى العيش فى مجتمعات تقوم على النظام والطاعة .

ونهر النيل يفيض فى أنسب الأوقات ، وينحصر فى أنسب الأوقات أيضاً . فهو



يأتى فى الصيف والأرض خالية من الزرع محتاجة للماء فيغمرها بمائه المحمل بالطمي ليروى ظمأها ويحدد خصبها ، ثم يتراجع عنها فى أنسب الأوقات للزراعة فتبذر الحبوب وتنضج الأرض وينمو الزرع .

ولما كان للفيضان وقت معين ، وللزراعة مواسمها ومواعيدها وللرى طرقه ونظامه لذلك رتب المصريون حياتهم على هذا الأساس ، فقسموا الأرض وشقوا الترع ونظموا الرى وأنشأوا المقاييس وعملوا توقيتاً مناسباً لمواعيد الزراعة والحصاد واستدعى ذلك قيام فنون كثيرة من هندسة الرى وقياس الأرض ١ ٢ . وظهر التقويم الشمسى ٣ .

ولقد أعجب استرابون بنشاط المصريين وبراعتهم فى استغلال النهر فى الزراعة فيقول ٤ : « وإن انصرافهم إلى شئون النهر قد وصل إلى حد أنهم يقهرون الطبيعة بالجد ، وذلك أن الأرض عندهم تنتج بالطبيعة محصولاً أكبر مما تنتج سائر الأراضي ، وهى تنتج أكثر من ذلك إذا ما رويت ، والفيضان العالى للنهر يروى من الأرض مساحة أكبر . ولكن الجد كثيراً ما ينجح حيث تحقق الطبيعة حتى أنه ليروى الأرض فى الفيضان المنخفض مثل ما يروى منها فى الفيضان المرتفع بواسطة الترع والجسور . كما يروى أن مقياس النيل سجل مرة تسعة أذرع فقط ، ومع ذلك لم يشعر أحد بالقحط .

والمجتمعات التى ظهرت أول الأمر — على ضفاف النيل فى مصر — كانت صغيرة يحتل كل منها جزءاً معيناً من الأرض يتعاون أفرادها لزراعة هذا الجزء والحفاظة

---

(١) الدكتور سليمان حزين ، البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام ص ٦ مجلة الجمعية الجغرافية المصرية — المجلد العشرون سنة ١٩٤٢ .

(٢) يقول استرابون إن أصغر أقسام الأرض كان الفدان ، وإن اضطراب الحدود المستمر الذى يحدثه النيل أثناء فيضانه هو الذى دعا إلى هذا التقسيم المضبوط وإلى مسح الأرض مرة بعد مرة ، ومن هنا — كما يقول — نشأ علم المساحة ، انظر «استرابون فى مصر» ترجمة دكتور وهيب كامل ص ٤٦ .

(١٧ : ٣) .

(٣) يقول الدكتور نجيب ميخائيل ، «مصر» ص ٢٥ : كانت هناك مسألتان جعلتا المصريين يفكرون فى تأريخ الحوادث ، أولاهما الطبيعة المحيطة بهم وثانيتهما النيل . وقد أنشأوا التقويم الشمسى فى الحقبة الانبولىتية على الأرجح ، وكانت السنة المصرية تتكون من فصول ثلاثة هى الفيضان (أخت) والزرع (برت) والحصاد (شور) وكل فصل من هذه الفصول ينقسم إلى شهور أربعة أعطيت فى أول الأمر أرقاماً ثم أطلقت عليها منذ العصر الفارسى (حوالى القرن السادس) أسماء هى التى ما زالت باقية فى شهور السنة القبطية . وعدة أيام كل شهر ٣٠ يوماً وأضافوا خمسة أيام هى النعمى

(٤) استرابون فى مصر ص ٤٦-٤٧ .

عليه ، ويحاول في الوقت نفسه توسيع رقعة أرضه بالاستيلاء على أرض غيره من المجتمعات . وبتوالي الأيام اندمجت هذه المجتمعات مكونة مجتمعات أكبر ، ثم تكونت من هذه المجتمعات كلها دولة متحدة في عهد الملك مينا . وقد ساعد على قيام هذه الدولة ، أن النيل يربط بين أجزائها ، فكان من أهم العوامل لقيام الوحدة السياسية ، وبدأ العصر التاريخي ، وظهرت الحضارة المصرية التي بقيت عبر الأجيال والقرون ، وإن أصابها الوهن بعض الوقت إلا أنها سرعان ما واصلت سيرها بقوة متجددة ونشاط متوثب .

مما تقدم نرى أن نشأة المجتمع وتطوره وتاريخه في مصر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعوامل البيئة الجغرافية ١ ، التي ترتبط بدورها كل الارتباط بنهر النيل .

ولقد انقسم الذين اهتموا بجغرافية مصر وتاريخها السياسي والاجتماعي إلى فريقين ، فريق يرجع الفضل فيما وصل إليه المصريون إلى البيئة الجغرافية ، فمصر هبة النيل وحضارتها من ثمار البيئة الطبيعية ، ولولا هذا الوطن الصالح ما قامت لمصر حضارة ولا كان للمصريين ذكر في التاريخ . وفريق يرى أن البيئة لم تكن إلا مسرحاً استخدمه الإنسان واستغله ، والفضل للأشخاص الذين عرفوا كيف يستغلون هذه البيئة .

ويعتبر هيرودت بقوله المشهور « مصر هبة النيل » على رأس الفريق الأول ، أما الفريق الثاني ومعظمه من المؤرخين والاجتماعيين ٢ ، فقد عبر الأستاذ محمد شفيق غربال عن رأيهم بقوله ٣ : « إنه إذا قبلنا الرأي القائل « مصر هبة النيل » فإنه لاشك أن مصر هي من صنع المصريين ، فالنيل شأنه شأن قوى الطبيعة الأخرى يمكنه أن يخلق كما يمكنه أن يدمر ، والإنسان هو الذي يستطيع تحويل قوى التدمير هذه إلى شيء نافع ، وهذا ما فعله المصريون . وإن الرواد المصريين الأوائل الذين اندفعوا إلى وادي النهر المليء بالمستنقعات والأحراش استطاعوا أن يقهروا قوة الطبيعة وسطوتها ، وجعلوا من هذه الأحراش والمستنقعات حقولاً وجداولاً وسدوداً ، وبذلك أمكن للمجتمع أن يبدأ رحلته نحو الكمال » .

---

(١) الدكتور سليمان حزين ، البيئة والموقع الجغرافي وأثرهما في تاريخ مصر العام مجلة الجمعية الجغرافية المصرية - المجلد العشرون سنة ١٩٤٢ .

(٢) الدكتور سليمان حزين ؛ البيئة والموقع الجغرافي وأثرهما في تاريخ مصر العام مجلة الجمعية الجغرافية المصرية - المجلد العشرون لسنة ١٩٤٢ .

(٣) The Making of Egypt p. 5—6



ويؤكد استرابون هذا المعنى إذ يقول : « إنه بينما أكثر الأثيوبيين ١ يحبون حياة الرجل الحشنة ترى العكس عند المصريين الذين كانوا يحبون منذ البدء حياة مدنية ، وأنهم عرفوا كيف يحسنون استغلال حسن طالع بلادهم وقد أجادوا تقسيمها والعناية بها » .

ولكن هناك فريقاً ثالثاً يرى أننا « نستطيع أن نسلك طريقاً وسطاً ترسمه مبادئ الجغرافيا التاريخية ، تلك التي تمثل فرعاً من الجغرافيا يقع بينها وبين التاريخ ، والتي يدرس أصحابها العلاقة بين الإنسان وبيئته الجغرافية على أنها علاقة تأثير متبادل متطور المظاهر ٢ » . ورأى هذا الفريق يتلخص في أنه لكي تتم الرواية بنجاح لابد من مسرح مستعد وممثلين مهرة . وهذا ماحدث فعلاً في مصر ، فقد وجدت البيئة الصالحة كما وجد من استطاع استغلال هذه البيئة أحسن استغلال وتوجيهها الوجهة النافعة ، وبذلك نجح المصريون في وضع أسس حضارتهم ومدنيتهم المادية التي تلائمت والظروف الطبيعية التي أحاطت بها .

وبذلك يمكن أن نقبل القولين « مصر هبة النيل » و « مصر هبة المصريين أنفسهم » ، بدون تعارض بينهما . فالبيئة والإنسان قد استطاعا معاً في تعاون تام أن يخلقوا هذا الوطن الذي نعيش فيه .

ومنذ البدء ارتبطت حياة المصريين بالنيل ارتباطاً وثيقاً ، وبلغ من حبهم لمياه وإعزازهم له أن قدسوه وألهوه ، وقالوا إنه ينبع من النهر السماوى ٣ المحيط بالعالم عند انعطافه ناحية الجنوب ، حيث يتزل في مسقط مياه عظيم ٤ . وأطلقوا عليه اسم « حابى » ٥ .

---

(١) « استرابون في مصر » ص ٤٤ . أما أثيوبيا فهي تعنى عند اليونان الأقدمين كل ما إلى مصر جنوباً وتشمل النوبة والسودان وإريتريا . انظر الهامش ١ ص ٤١ .  
(٢) الدكتور سليمان حزين ، البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما في تاريخ مصر العام - مجلة الجمعية الجغرافية المصرية - المجلد العشرون ١٩٤٢ .  
(٣) ظهرت خرافة وجود نهر سماوى في المؤلفات العربية في عصور متأخرة ابتداء من القرن التاسع . فيذكرون وجود بحر بين السماء الرابعة والأرض لولاء لاحتقرت الأرض من حر الشمس .

انظر مخطوط أحمد بن المهاد « ذكر بحر النيل وما يتعلق به » ( ١٣ أ ) .

(٤) Dr. John Ball; Egypt in the Classical Geographers p. 2 Omar

Tousson; Memcire Sur l'Histoire du Nil p. 29

Johnston, Harry sir; The Nile Quest p. 7 Ball; Op. Cit p. 3 (٥)

= Tousson; Op. Cit p. 6.

أما لفظ « نيل » الذى عرف به النهر حتى اليوم ، فقد أطلقه عليه اليونانيون وهو مشتق من الكلمة اليونانية نيلوس ، وعندهم انتقل هذا الاسم إلى مختلف اللغات . ولكن ديودور الصقلى يرى خلاف ذلك حيث يقول ١ : « إن النهر كان يدعى من قبل أيجيبتوس Aegyptus ، ثم أطلق عليه اسم النيل تخليداً لذكرى ملك يدعى نيلوس Nileus اعتلى العرش بعد الملك ريمفيس ٢ بزمن قليل . وأن نيلوس هذا قام بحفر الترع والقنوات التى أفادت البلاد كثيراً فأطلقوا اسمه على النهر »

وعندما فتح العرب مصر ظلوا يستعملون لفظ النيل للدلالة على النهر ، ولم يتكروا أصله اليونانى ، ٣ وإن أطلقوا عليه أحياناً اسم البحر - كما فعل المصريون القدماء من قبل - كذلك سموه الفيض ٤ نسبة لفيضانه السنوى . ولقد ذكر فى القرآن الكريم باسم « اليم » ٥

وبالرغم من أن أول معلومات جغرافية صحيحة عن نهر النيل قد وصلتنا عن طريق الكتاب اليونان والرومان ، إلا أن الدلائل المنطقية تؤكد أن معرفة المصريين القدماء بنهر النيل لا تقل عن معرفة اليونان والرومان . فمعالم الحضارة المصرية القديمة قد وصلت فى تقدمها حتى الشلال الرابع ، ومن هذه المنطقة خرج حكام مصر فى عهد الأسرة الخامسة والعشرين النوبية ٦ .

= ويذكر بول وعمر طوسون أنهم كانوا أيضاً يطلقون على النهر اسم « البحر » و « النهر الكبير » كما يذكر جونستون أن المصريين كانوا يطلقون على النهر أحياناً اسم بي يوما Piyuma أى النهر ، وأن اليهود كانوا يطلقون عليه اسم شكهور Shikhor أى الأسود . كما يرى جونستون أن أصل الكلمة اليونانية نيلوس غير معروف وربما كانت مأخوذة من الكلمة الفارسية نيل nil بمعنى أزرق .

(١) ديودور الصقلى فى مصر ، ترجمة وهيب كامل ص ١١٤ .  
(٢) يرى الدكتور وهيب كامل أن ريمفيس هو رمسيس الثالث (١١٩٨-١١٦٦ ق.م).  
(٣) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ج ٤ ص ٨٦٢ يقول : « وأما نيل مصر فقال حمزة هو تعريب نيلوس من الرومية . » ولكن عبد اللطيف البغدادى : « الإفادة والاعتبار » ص ٤٥ يرى أنه مشتق من فعل نال . كما جاء فى تاج العروس واللسان للنيل معان كثيرة منها : النيل والنائل ما نلته أى أصبته ، والنيل بالكسر نهر مصر وكذلك يعنى السحاب . والنيل قرية بالكوفة ، وقرية أخرى على مرحلتين من يزد - والنيل نبات العظم ( النيلة ) .

(٤) الزنجشرى ، الجبال والأمكنة والمياه ص ٨٤ .

(٥) سورة طه آية ٣٩ - سورة القصص آية ٧

(٦) الدكتور سليمان حزين ، البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام

مجلة الجمعية الجغرافية المصرية - المجلد العشرون ١٩٤٢ .

نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ، ص ٢٨٩ وما بعدها .



كما أن هيرودت عند ما زار مصر فيما بين سنتي ٤٤٨-٤٤٥ ق.م ، لم يتعد في رحلته الفنتين ، ولكنه وصف مجرى النيل جنوب الفنتين إلى منطقة التقائه بالنيل الأزرق معتمداً في ذلك على المصريين وخاصة كهنة منف ١ .

بل إن البعض ٢ يرى أن المصريين منذ العصر التاريخي الأول - وصلوا إلى منطقة بحر الغزال ، كما يحتمل أنهم توغلوا غرباً إلى بحيرة تشاد وحتى إلى نهر النيجر . وأن منطقة السدود قد منعهم من الوصول إلى البحيرات الاستوائية . وأنهم كانوا على علم تام بمجرى النيل حتى الخرطوم ، وبمجرى النيل الأزرق حتى منابعه من بحيرة تانا .

ومن الكتاب اليونان والرومان الذين وصلتنا معلوماتهم عن النيل ، الجغرافيان اليونانيان تاليس Thales of Miletus وهيكاتيوس ٣ Hecataeus وقد عاشا في القرن السادس قبل الميلاد ، ومنهم أيضاً هيرودوت الملقب بأبي التاريخ وهو من القرن الخامس قبل الميلاد ، وأرسطو Aristotle من رجال القرن الرابع قبل الميلاد ، وإيراتوستين Eratosthenes من كتاب القرن الثالث ٢٧٥-١٩٤ ق.م ، وديودور الصقلي (٩٥-٣٥) ق.م تقريباً ، واسترابون من (٦٤ ق.م إلى ١٩ ميلادية) ، والجغرافي الروماني بومبونيوس ميلا Pomponius Mela من القرن الأول الميلادي ، والجغرافي الروماني بلينيوس الكبير Piliny ٢٣-٧٩ ق.م ، وأخيراً الجغرافي والفلكي السكندري الشهير كلوديوس بطليموس Claudius Ptolemaeus (٩٠-١٦٨م) - والذي يعرف بين الكتاب العرب باسم القلوذي وبصاحب المجسطى .

ومعلومات هؤلاء الكتاب - فيما عدا بطليموس - عن منبع النيل ضئيلة ، فهيكاتيوس كان يعتقد أن النيل متصل في الجنوب بالاقيانوس المحيط بالعالم ، وهو في ذلك متأثر بآراء الكهنة المصريين الذين قابلهم ٤ .

ويذكر هيرودوت قصة أو أسطورة ينسبها إلى كاتب بمدينة سايس ( صا الحجر ) ملخصها أنه يوجد بين أسوان والفتين تلان يسميان كروفي وموفي ، وبينهما بحيرة عميقة

---

(١) «هيرودوت في مصر» - وهيب كامل ص ١٥ .

(٢) Johnston ; o.p. cit. p. 4-6

(٣) ولد هيكاتيوس عام ٥٤٩ ق.م. انظر : دكتور نجيب ميخائيل «مصر» ص ٢٤ .

(٤) Ball ; op. cit p. 9

يخرج منها النيل متجهاً إلى الشمال ، كما ينحدر منها نهر آخر يتجه إلى الحبشة جنوباً ١ .

وبعد هيرودوت بمائة عام أعلن أرسطو حوالي سنة ٣٥٠ ق . م ، أن النيل ينبع من جبل الفضة ٢ .

وأشار أبراتوستين إشارة عابرة إلى أن النيل ينبع من بحيرات في الجنوب ٣ .  
أما ديودور الصقلي فيذكر أن منابع النيل تقع في أقاصى الحبشة ، في منطقة شديدة الحرارة لا يمكن أن تطأها قدمان ٤ . وهو قول رده بعض الكتاب العرب فيما بعد وستفصله في حينه .

وروى بليينوس الكبير ٥ قصة أخرى عن منابع النيل سيكون لها أثرها عند بعض الكتاب العرب ، وتنسب هذه القصة إلى الملك جوبا الثانى King Juba II ( توفى سنة ٢٣ ق . م ) ملك نوميديا وموريتانيا في زمن الإمبراطور أغسطس . وتقول القصة : إن النيل يخرج من جبل في غرب موريتانيا قرب المحيط ، حيث توجد بحيرة تعرف باسم نيليدس Nilides بها تماسيح وأسماك تشبه ما يوجد منها بمصر ١٠٥٠١ .

ولكن المعلومات التي يمكن اعتبارها قريبة إلى الصحة بوجه عام ، هي التي ذكرها بطليموس ، فيروى أن النيل يتكون نتيجة ذوبان الثلوج على قمم جبال عالية تعرف باسم جبال القمر تقع على بعد ٣٠ - ١٢° جنوب خط الاستواء وتنحدر منها الأنهار

---

(١) يعتقد الدكتور نوبل همفريس ، أن لهذه الأسطورة ظلاً من الحقيقة ، وأنه اكتشف في جبال روينزورى بين قمتي جيس وأمين بحيرة تطابق الوصف الذي ذكره هيرودوت ، كما يعتقد أن العرب السبئيين الذين جابوا إفريقيا حتى منطقة البحيرات هم الذين جابوا بهذه المعلومات .

انظر : Humphreys N.; Ruwenzori Flights and Further Explorations. p. 511

(٢) Humphreys No.; op. cit p. 511

كما يذكر همفريس أن دوق أبروزى Duke of the Abruzzi يعتبر أن هذه أول معلومات تشير إلى جبال روينزورى ، وأن أرسطو وبطليموس - الذي يذكر جبال القمر - يعنيان في الحقيقة نفس الجبال ، وأن العرب يجعلون علاقة لغوية بين بريق الفضة والقمر .

(٣) Ball ; op. cit. p. 43.

(٤) ديودور الصقلي في مصر ص ٦٤ .

(٥) Ball ; Op Cit p. 72



إلى بحيرتين ناحية الشمال ، كما يذكر منابع النيل الأزرق من بحيرة تسمى كولى Coele تقع إلى جنوب شرق خط الاستواء ١ .

وكان هؤلاء الكتاب على علم بمجرى النيل حتى منطقة التقائه بنهر العطبرة الذى كانوا يطلقون عليه اسم Astaboras ، والنيل الأزرق ويعرفونه باسم Astapus ٢ ، كما كانوا يطلقون على المنطقة الواقعة بين هذين النهرين اسم جزيرة مروى Meroé كما أطلقوه على مدينة هناك ٣ . ويقول ديودور الصقلى ٤ واسترابون ٥ إن قمبيز هو الذى أنشأ هذه المدينة وأطلق عليها وعلى الجزيرة اسم مروى تخليداً للذكرى أمه أو زوجته .

كما كانوا يعرفون تماماً انحناءة النيل الكبرى ، ويصفها ايراتوستين بأنها على شكل حرف N مقلوباً ٦ .

ويذكر هيرودوت ٧ أن الجزء الواقع شمال منف كان فيما مضى خليجاً من البحر ، كما يذكر سبعة فروع للنهر تصب في البحر ، وشاركه في ذكرها أغلب الكتاب وإن اختلفوا في أسمائها وفي من هو الأهم منها .

أما عن الفيضان وسببه ، فالكتاب اليونان والرومان — منذ القرن الثالث قبل الميلاد — قد عرفوا أن النيل يفيض نتيجة الأمطار التى تسقط صيفاً على جبال الحبشة . وإن كان علينا أن نشير إلى رأى ذكره تاليس ، سيكون له صدهاء عند بعض الكتاب العرب ، [ ويتلخص هذا الرأى فى أن فيضان النيل سببه هبوب رياح شمالية فى فصل الصيف تقف أمام ماء النهر كحاجز يمنعها من الانصباب فى البحر ، فيزيد ماؤه ٨ .

---

(١) Ball ; Op. cit 100

ويقول الدكتور جونستون إن هذه المعلومات التى نقلها بطليموس عن مارينوس الصورى جاء بها الأخير عن تاجر يونانى يدعى ديوجين Diogenes نزل بساحل إفريقيا سنة ٥٠ م ، وأنه من المحتمل أن هذه المعلومات استقاها من العرب المقيمين هناك .

انظر : Johnston ; Op. Cit 22

(٢) Ball ; op. cit p. 43 — 71 — 100

(٣) هى أرض الجزيرة بين النيل والعطبرة — كما أن مدينة مروى مكانها كان بالقرب من شدى الحالية .

ديودور الصقلى فى مصر حاشية صفحتى ٤٢ — ٤٣ .

(٤) ، (٥) ديودور الصقلى فى مصر ص ٦٥ — استرابون فى مصر ص ٥١ : ٥

(٦) «استرابون فى مصر» ص ٤٢ ١٧ : ٢

(٧) «هيرودوت فى مصر» ص ٢٩ .

(٨) Ball ; Op, Cit, p. 8

ولقد قامت محاولات كثيرة في أوقات مختلفة لتتبع مجرى النيل والكشف عن منابعه ١ ولكن عندما ضعفت الإمبراطورية الرومانية قلت العناية بالكشف الجغرافي خصوصاً بعد ما صارت مصر جزءاً من الامبراطورية البيزنطية ، إذ أن الخلافات الدينية شغلت الناس عن الاهتمام بأى أمر آخر . ٢ .

ولكن في ذلك الوقت ، ظهرت فكرة عن منبع النيل ، ترتبط بمعتقدات يهودية ومسيحية ، تقول بأن النيل ينبع من الجنة ، التي كانت حسب معتقدات العصور الوسطى تقع في أقصى الشرق على الجانب الآخر للبحر ، وأنه بعد ذلك يعبر البحر ويأتى إلى مصر ، ٣ .

ولقد ظلت هذه الفكرة مسيطرة على الأذهان حتى أن خرائط الجغرافيين الأوروبيين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى كانت ترسم عليها جنة أرضية The Earthly Paradise يخرج منها رافد للنيل يسمى جيون Gion ٤ .

وفتح العرب مصر ، وصار النيل أكبر نهر في أخصب أرض في الدولة الإسلامية ، وبدأت أهمية النيل لهم منذ البدء ، فأعيد حفر القناة التي تربط النيل بالبحر الأحمر ، حيث ساعدت على نقل المؤن للحجاز .

ولقد أثر النيل في مجرى الحياة الثقافية والسياسية في العالم الإسلامى ، وساهمت وديانه ودلتاه إلى حد كبير في تقدم الحضارة الإسلامية ، بكونها مراكز ثقافية . وعلى ذلك يمكن القول بأن النيل في العهد الإسلامى ظل يلعب نفس الدور الذى قام به خلال القرون السابقة على ظهور الإسلام ٥ .

وكما شغل النيل أذهان الأمم السابقة ، فإنه شغل أذهان العرب بنفس القوة ، بطوله العظيم وفيضانه الرتيب وخيره العميم ، ومنبعه المجهول ، ومجيئه من الجنوب إلى الشمال مخالفاً في ذلك - في رأيهم - لجميع الأودية التى عليها طبع العالم .

وكما عبد المصريون القدماء النيل وألهوه ، فإن العرب احترمته وأشادت بفضله ولقبته بسيد الأنهار ، وأن الله سخر له كل نهر بين المشرق والمغرب .

---

(١) سنذكر بالتفصيل هذه المحاولات في الفصل الخاص بالمنبع .

(٢) Johnston ; op. cit p. 37

(٣) E.I. art al Nil

Tousson ; op. cit. T.I p. 29

(٤) Crawford, o.G. ; Some Medieval Theories about the Nile p. 27

(٥) E.I. op. cit



أما المعلومات الجغرافية التي ذكرها الكتاب العرب عن النيل ، فقد استقوها من مصادر ثلاثة :

المصدر الأول : المعلومات الجغرافية التي وصلتهم عن الجغرافيين السابقين على الإسلام وخصوصاً بطليموس .

المصدر الثاني : المعتقدات والأساطير المحلية التي ترتبط بمعتقدات مصرية قديمة ويهودية ومسيحية .

المصدر الثالث : الملاحظة والمشاهدة ، نتيجة لرحلات قام بها العرب أنفسهم .

وسنرى أثر هذه المصادر الثلاثة في تطور الفكر الجغرافي العربي بالنسبة لنهر النيل ، وذلك في الفصول التالية .

## الباب الأول

# النيل في المكتبة العربية

– النيل في الكتب الدينية

– النيل في الكتب العلمية

– النيل في كتب الأدب





## الفصل الأول

### النيل في الكتب الدينية

قبل أن نعرض للذكر الكتاب العرب الذين اهتموا بدراسة نهر النيل ، نرى إتماماً للفائدة واستيفاء للبحث أن نبين المواضع التي ذكر فيها النيل في القرآن وفي كتب السنة . كما نوضح علاقة النيل بالمعتقدات الدينية قبل الإسلام .

اعتبر كثير من الأنهار عند أصحاب الديانات القديمة أماكن مقدسة كما اعتبر الحج إليها شعيرة من شعائر هذه الأديان ، ولا زال نهر الجانج من الأماكن التي يحج إليها الهندوس حتى الآن .

ونهر النيل هو أول نهر نال هذه القداسة ، فقد ألوه المصريون القدماء ومجدوه في أكثر من نشيد . بل إن اليونانيين أنفسهم أولوه الاحترام العظيم وأطلق عليه الشاعر اليوناني الشهير هوميروس « النهر الصادر عن الله » ١ .

ولعل العاطفة القوية التي كان المصريون يحسونها نحو النيل ، هي التي جعلت كثيراً من الكتاب العرب وفي مقدمتهم ابن عبد الحكم يذكرون أن المصريين كانوا يلقون في النيل كل عام فتاة جميلة في أتم زينة وأحسن لباس جلباً لرضاه ، وأن عمرو بن العاص منع هذه العادة المرزولة ٢ .

وظل القبط بعد الفتح العربي يحتفلون في عيد الشهيد في الثامن من بشنس بإلقاء تابوت من خشب فيه إصبع أحد أسلافهم من القديسين في النيل جلباً لزيادته وفيضانه . وظل هذا العيد يحتفل به إلى أن أبطل ( عام ٧٥٥ هـ - ١٣٥٤ م ) ٣ .

وهناك فكرة عن منبع النيل ترتبط بمعتقدات أخرى يهودية ومسيحية ٤ تقول : إن النيل ينبع من الجنة ، وحسب معتقدات العصور الوسطى كانت هناك جنة أرضية

---

(١) استرابون في مصر ص ٥٣ .

(٢) سنعرض لهذه القصة بالتفصيل في الفصل الأول من الباب الثالث .

(٣) المقریزی : الخطط ج ١ ص ٦٨ .

(٤) E. I. art. « al Nil »



The Earthy paradise تقع في أقصى الشرق من آسيا ، وإن كان البعض يرى أنها كانت توجد في مكان ما بإفريقيا وعلى التحديد في الحبشة ، وخرائط القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت تظهر هذه الجنة في الحبشة ويخرج منها أحد روافد النيل ويسمى جيون Gion ١ .

وأورد بعض الكتاب العرب ٢ ما يفيد بأن النيل قد ذكر في التوراة فقد رووا أن معاوية بن أبي سفيان سأل كعب الأحبار : « هل تجد لنيل مصر ذكراً في كتاب الله عز وجل - يعني التوراة - . قال : « أي والذي فلق البحر لموسى إني لأجده في كتاب الله ، إن الله يوحى إليه عند ابتدائه : أن الله يأمرك أن تجرى على كذا ، فاجر على اسم الله . ثم يوحى إليه عند انتهائه أن الله يأمرك أن ترجع فارجع راشداً . »

وبالرجوع إلى الكتاب المقدس ، وجدت أن النيل قد ذكر في العهد القديم ، ولكن كان يرمز إليه « بالنهر » وحسب ٣ .

أما في القرآن الكريم فقد ذكر النيل أكثر من مرة ، أحياناً نصريحاً وأخرى تلميحاً ، كما أن هناك آيات يرى المفسرون أنها تشير إلى النيل . ففي أكثر من آية ذكر النيل باسم « اليم » ، كما جاء في قوله تعالى : « أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدولي وعدوله » ٤ .

وقوله جل شأنه : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني » ٥ .

ولكن إلى جانب هذه الآيات التي ذكر فيها النيل باسم اليم ، جاء في آيات أخرى كلمة « اليم » ترمز إلى البحر الملح ، كقوله تعالى : « فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » ٦ .

(١) Crawford ; op. cit p.p. 26—27

(٢) المقرئى ١ ج ١ ص ٥٠ وغيره . ويذكر المقرئى أيضاً ( وفي التوراة « وخلق فردوساً في عدن وجعل الإنسان فيه وأخرج منه نهران فتقسمهما أربعة أجزاء جيحون المحيط بأرض حويلا ( كذا ) وسيحون المحيط بأرض كوش وهو نيل مصر ودجلة الآخذ إلى العراق والفرات » ) .

(٣) سفر التكوين اصحاح ٤١ . وسفر الخروج الإصحاحات الثاني والرابع والسادس والثامن .

(٤) طه ٣٩

(٥) القصص ٧ .

(٦) الأعراف ١٣٦ .

وفي آية أخرى : « فأتبعهم فرعون يجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم » ١ :  
 وقوله تعالى على لسان موسى للسامري : « لنحرقنه ثم لننسفته في اليم نسفاً » ٢ .  
 وفي سورة الذاريات عن فرعون : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم » ٣  
 وقوله جل شأنه : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة  
 الظالمين » ٤ .

ولكلمة اليم معان كثيرة ٥ ومن الممكن إطلاقها على أى نهر آخر ، ولكنها  
 أصبحت وقفاً على النيل لأن القرآن الكريم . أطلقها عليه .  
 وفي آية أخرى لم يذكر النيل صراحة ، ولكن من الواضح أنها تعنى النيل ، وذلك  
 في قوله تعالى حكاية عن فرعون : « يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من  
 تحتي » ٦ . فالمراد بالأنهار هنا النيل وفروعه .

وذكر بعض المفسرين أن يوم وفاء النيل هو اليوم الذى وعد فيه فرعون موسى  
 بالاجتماع ٧ ، إذ يقول تعالى إخباراً عن فرعون : « قال موعدكم يوم الزينة وأن  
 يحشر الناس ضبحى » ٨ .

كما أن هناك بعض الآيات ، يرى المفسرون والكتاب العرب أن المقصود بها النيل .  
 فيقول ابن عباس في قوله تعالى : « وأسقيناكم ماء فراتا » هي أربعة أنهار سيحان  
 وجيحان والفرات والنيل الذى يمتصر ٩ .

وفي قوله تعالى : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها  
 التى باركنا فيها » ١٠ . قال الليث بن سعد هي مصر بارك فيها بالنيل ١١ .

(١) طه ٧٨ .

(٢) طه ٩٧ .

(٣) الذاريات ٤٠ .

(٤) القصص ٤٠ .

(٥) انظر لسان العرب وقاج العروس . ويرى السيوطي في مخطوطه كوكب الروضة  
 دار الكتب ص ٤٨ أن اليم لغة سريانية .

(٦) الزخرف ٥١ .

(٧) النويري ، نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٤ - المقرئ في الخط ج ١ ص ٦١ .

(٨) طه ٥٩ .

(٩) ابن الفقيه ، مختصر البلدان ص ٩٥ .

(١٠) الأعراف ١٣٧ .

(١١) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٣ .



ويقول السيوطي ١ : إن المقصود بقوله تعالى : « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز » هي مصر ، ويكون المقصود بالماء النيل .

ويقول السيوطي أيضاً ٢ : « أخرج الخطيب في تاريخه وابن مردويه في تفسيره ، والضياء المقدس في صفة الجنة عن ابن عباس مرفوعاً : أنزل الله تعالى من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل . أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل واستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس ، فذلك قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض ولنا على ذهاب به لقادرون ٣ » .

أما الأحاديث النبوية فنلاحظ أن هناك حشداً كبيراً من هذه الأحاديث المنسوبة للرسول خاصة بنهر النيل .

فقد أورد البخاري في صحيحه حديثين متشابهين ، أحدهما ٤ ضمن حديث النبي عن الإسراء والمعراج قال : « ورفعت إلى سكرة المنتهى ( أى كشف لي عنها ) فإذا نبقتها كأنه فلال هجر وورقها كأنه آذان الفيل . في أصلها أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران ، فسألت جبريل فقال أما الباطنان : ففي الجنة ، وأما الظاهران النيل والفرات » .

والحديث الآخر عن أنس بن مالك ٥ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رفعت إلى السكرة فإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان فأما الظاهران فهما النيل والفرات ، وأما الباطنان فنهران في الجنة » .

وفي صحيح مسلم ٦ حديث ينتهي بسنده إلى أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي لم ترد في كتب الحديث المعتمدة فيروى ابن الفقيه ٧ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « تغور المياه كلها وترجع إلى أمائها إلا نهر الأردن ونيل مصر والحجرات وعرفات » .

---

(١) المرجع السابق ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٠ .

(٣) المؤمنون ١٨ .

(٤) الكتاب ٥٩ في «بدء الخلق» باب ٦ .

(٥) الكتاب ٥٧ في «الأشربة» باب ١٢ .

(٦) كتاب ٥١ حديث ٢٦ .

(٧) مختصر البلدان ص ٦٤ .

وعن ابن الفقيه أيضاً ١ : وفي الخبر « الفرات والنيل مؤمنان ودجلة وبرهوت ٢ كافرين » .

وأورد المقرئ ٣ : « وقال ابن قتيبة في كتاب غريب الحديث : « وفي حديثه عليه السلام « نهران مؤمنان ونهران كافرين . فأما المؤمنان فالنيل والفرات ، وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ » . وإنما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الأرض ويسقيان الحرث والشجر بلا تعب في ذلك ولا مؤنة . وجعل دجلة ونهر بلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ولا يسقيان إلا شيئاً قليلاً ، وذلك القليل بتعب ومؤنة ، فهذان في الخير والنفع كالؤمنين ، وهذان في قلة الخير والنفع كالكافرين .

وأورد ابن ممتا في قوانين الدواوين ٤ والأقفهسي ٥ في مخطوطه عن النيل ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى نيل مصر خير أنهارى أسكن عليه خيرتى من عبادى فمن أرادهم بسوء كنت لهم من ورائهم » .

وجاء في بعض المؤلفات العربية ٦ : قال صلى الله عليه وسلم : « إن النيل يخرج من الجنة ولو التمس فيه حين يخرج لوجدتم من ورقها » .

وقيل ٧ ، وعنه عليه السلام في خبر طويل في فتح مصر والحض على انتجاعها : قال الله عز وجل : « خصصت خزائى بسيد الأنهار : النيل « وهو عسل » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « نيل مصر سيد الأنهار » .

ويقول السيوطى ٨ : وأخرج الديلمى في سند الفردوس وأورده القرطبى في التذكرة من حديث حذيفة مرفوعاً : « يبدو الخراب في أطراف البلاد حتى تخرب مصر ،

---

(١) مختصر البلدان ص ١٧٤ .

(٢) جاء في معجم البلدان لياقوت عن برهوت : قيل واد باليمن وقيل بئر بحضر موت تلقى فيه أرواح الكفرة .

(٣) المخطط ج ١ ص ٥٠ .

(٤) ص ٧٥ .

(٥) «نيل مصر وأهرامها» ص ٣٥ .

(٦) ابن الوردى ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ١٤٢ - القرمانى الدمشقى ،

أخبار الدول وآثار الأول ص ٤١٥ .

(٧) ابن ممتا ص ٧٥ - الأقفهسى ص ٣٥ .

(قوانين الدواوين) ( نيل مصر وأهرامها )

(٨) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦ .

ومصر آمنة من الحراب حتى تخرب البصرة وخراب البصرة من العراق وخراب مصر من جفاف النيل .

فإذا نظرنا إلى هذه الكثرة من الأحاديث المنسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم ، نشعر لأول وهلة بالتردد في قبولها ونسبتها إليه صلوات الله عليه . ونرى أنه إن كان الكتاب العرب قد قبلوها على علائها إلا أن بعضهم لم يقبلها بسهولة ، فالأقفهسي ١ عند ذكره الحديث القائل بخروج النيل من سدرة المنتهى يقول : « قال القاضي عياض ، هذا الحديث يدل على أن أصل سدرة المنتهى في الأرض لخروج النيل والفرات من أصلها » . فهو وإن لم يكذب الحديث إلا أنه حاول أن يجعله متمشياً مع العقل .

كما أن الدمشقي ٢ شيخ الربوة يقول : « بخصوص الأنهار الأربعة الشاهدة لها الآثار أنها من أنهار الجنة ، إذ الجنة البستان السائر أهله وساكنيه بالتفاف شجره وحجبهم في ظلها الظليل ، لا يمتنع أن يكون في الأرض لله تعالى جنات كما الجنة العاليات في السموات ينعم الله تعالى فيهن من يشاء من عباده ، وهذه الأنهار الأربعة تجري من جهنم أو فيهن » . فهو بذلك يرى أنه إذا كانت هذه الأحاديث صحيحة يكون خروج الأنهار الأربعة وهي سيجان وجيحان والفرات والنيل من جنة أرضية لاسماوية . وكأنه بذلك يرى ما كان يراه الآخرون بوجود جنة أرضية .

وأنه يمكننا القول - دون أن نخشى الزلل - أن هذه الأحاديث موضوعة خصوصاً وأن كثيراً من الأحاديث المنسوبة للرسول قد زيفت لسبب أو لآخر . فبعض طلاب المنافع وأصحاب الميول السياسية قد استغلوا الأحاديث النبوية لتأييد وجهة نظرهم فاصطنعوا بعض الأحاديث التي تحقق أغراضهم . كذلك الإسرائيليات التي دخلت في الحديث نتيجة تظاهر بعض اليهود بالإسلام .

وبالإضافة إلى هذا فإن تدوين الحديث لم يقع إلا في القرن الثاني الهجري بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بأكثر من مائة عام ، ولم يأخذ صورته النهائية إلا في أوائل القرن الرابع . ولا شك أن انقضاء هذا الوقت الطويل بين وفاة الرسول وبداية جمع الحديث له أثر كبير في ظهور كثير من الأحاديث المزيفة . خاصة وأن هذه الفترة بالذات هي الفترة التي تعرضت فيها الدولة الإسلامية لأعنف الهزات السياسية والمذهبية وكثرة الفتن والاضطرابات .

(١) نيل مصر وأهرامها - ص ٣٠ .

(٢) نخبة الدرر ص ٨٨ .



ويمكننا أن نضيف سبباً آخر قد يكون أقرب هذه الأسباب إلى الحقيقة ألا وهو النعرة القومية التي دفعت كثيراً من الأقطار المفتوحة والتي صارت جزءاً من العالم الإسلامي أن تنسب لنفسها مجداً تبرز به غيرها من البلدان ، وتحاول ذلك داخل الإطار الإسلامي ، لأن الإسلام قضى على كل نعرة جاهلية . وهذا يفسر كثرة الأحاديث التي وضعت للافتخار بالأقاليم والمدن والأنهار الخ .

ولذلك نجد أنه إلى جانب هذه الأحاديث المنسوبة للرسول ظهرت بعض الروايات التي أخذ بها الكتاب العرب على أنها حقيقة مسلم بها والتي تدل على ما للنيل من مكانة سامية في نفوسهم . فيذكر ابن عبد الحكم وغيره ممن نقلوا عنه عن عبد الله بن عمرو ابن العاص « نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمدّه فأمدته الأنهار بمائها وفجر الله له الأرض عيوناً ، فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره » (١) . وعن كعب الأحبار أنه كان يقول « أربعة أنهار من الجنة وصفها الله في الدنيا ، فالنيل نهر العسل في الجنة والفرات نهر الخمر في الجنة وسبعان نهر الماء في الجنة وجيحان نهر اللبن في الجنة » ١ .

كما ذكر البعض أن هذه الأنهار الأربعة منبعها « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فنهر الماء يجرى من « ميم » بسم ، ونهر اللبن يجرى من « هاء » الجلالة ونهر الخمر يجرى من « م » الرحمن ، ونهر العسل يجرى من « م » الرحيم . ٢

---

(١) ابن عبد الحكم « فتوح مصر وأخبارها » ص ١٤٩ .

(٢) مخطوط « القول المفيد في النيل السعيد » للأقفهسي - مكتبة بلدية الإسكندرية

- هامش ص ١١ .

## الفصل الثانى

### النيل فى الكتب العلمية

عملت الظروف التى أحاطت بالعرب قبل وبعد الإسلام على دفعهم إلى الاهتمام — بالجغرافيا كعلم له أثره فى حياتهم . فالجزيرة العربية المترامية الأطراف بطبيعتها الصحراوية أشبه ببحر خضم تناثرت فيه المدن والمراكز العمرانية كالموانى التى كان لابد لاتصال بعضها ببعض الآخر من دراية تامة بأقرب المسالك التى تربطها ومعرفة للجهات الأصلية .

والعرب فى معظمهم كانوا يشتغلون بالتجارة وتجارهم تقوم على التبادل مع البلدان الأخرى ، فرحلتا الشتاء والصيف إلى الجنوب والشمال كانتا محتاجان إلى عناية وخبرة فى معرفة طرق سير القوافل وطبيعة الأرض التى تجتازها .

وكانت هذه المعرفة وتلك الخبرة من أكبر العوامل التى ساعدت الجيوش الإسلامية فى فتوحاتها فيما بعد ، إذ وجد المسلمون طريق الفتح ممهداً بفضل معرفتهم بالبلاد التى فتحوها نتيجة للرحلات التى كانوا يقومون بها قبل الإسلام .

ولما اتسعت الدولة الإسلامية وامتدت أطرافها من الهند إلى بحر الظلمات ، ومن بحر قزوين شمالاً حتى آخر المناطق المأنوسة جنوباً ، اقتضى ذلك تنظيم المسالك والبرد وتعرف طرق الملاحة .

وإذا كانت الرحلات قد ساعدت على التوسع الإسلامى ، فإن الفتوحات الإسلامية بدورها شجعت المسلمين على القيام بالرحلات فى أرجاء إمبراطوريتهم الواسعة للتعرف على بلادهم الجديدة مما ساعد على توسيع المعارف الجغرافية ، وكان للحج كذلك أثر كبير فى تشجيع هذه الرحلات وتحمل مشاق السفر من أطراف الدولة المترامية إلى بيت الله ١ .

ولم يكتف المسلمون بالتعرف على بلادهم ، بل قاموا برحلات أخرى بعيدة إلى بلاد غير إسلامية إما بقصد التعرف عليها كما فعل المسعودى وابن بطوطة وغيرهما أو للتجارة

---

(١) انظر: الدكتور حسين فوزى « حديث السندباد القديم » ص ٢٠-٢١ .

ولعل قصة أسفار سليمان التاجر السيرا في ١ التي كتبت عام ٢٣٧ هـ ( ٨٥١ م ) تعتبر أول ما كتب في العربية في وصف الصين وشواطئ الهند . ثم اقتضت الظروف المحيطة بالدولة الخلفاء إلى إرسال سفارات إلى جيرانهم ، ولعل سفارة أحمد بن فضلان بن حماد الذي أرسله المقتدر بالله العباسي عام ٣٠٨ هـ ( ٩٢١ م ) إلى ملك البلغار على نهر الفولجا ، قد أعطتنا أول معلومات موثوق بها عن الأجزاء الجنوبية من روسيا .

إلى جانب هذه الجغرافيا الوصفية العملية التي قامت على الدراسة المباشرة ، كانت هناك معلومات جغرافية أخرى أخذها العرب عن الأمم السابقة ، فقد وقع في أيدي العرب كنوز من المعرفة الهائلة التي كانت تحفل بها خزائن البلاد المفتوحة والتي ضمت أشتاتاً من مختلف الثقافات الفارسية واليونانية والهندية . فلما استتب الأمر للدولة العباسية بدأ العرب في توجيه عنايتهم إلى تلك الكنوز العقلية يغترفون منها ويشجعون على نقلها للعربية .

وكانت الجغرافيا أحد فروع هذه الثقافة التي عربت ، وكان من أهم مظاهرها التي أخذوا عنها المؤلفات اليونانية ، وخاصة جغرافية بطليموس التي نقلت إما عن اليونانية مباشرة أو عن الترجمات السريانية . وأصبح بطليموس من الأسماء اللامعة التي أذاعها العرب ، وظلت نظرياته سائدة بفضلهم قرابة أربعة عشر قرناً بل وانتقلت إلى أوربة عن طريقهم .

وبفضل المعلومات التي عرفوها بالمشاهدة والمعلومات التي استقوها من المؤلفات السابقة ، برع العرب في علم الجغرافيا وازدهرت المدرسة الجغرافية عندهم ، واشتهر جغرافيون مسلمون أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات ، ونشطوا في التأليف الجغرافي سواء في المسالك والممالك أو الجغرافيا الوصفية والطبيعية والاقتصادية وغيرها .

ولما كان نهر النيل من أهم المعالم والظواهر الجغرافية ، لا في العالم الإسلامي وحده بل في العالم كله ، لذلك نجده وقد احتل مكان الصدارة في كثير من المؤلفات العربية سواء منها الجغرافية أو التاريخية أو كتب الرحلات أو الكتب التي أرخت لنظم الحكم والحراج .

وقد عنت هذه المؤلفات بجغرافية النيل من جميع النواحي ، فوصفت حوضه من منبعه إلى مصبه وما يسكن على طول مجراه من شعوب مختلفة وعلاقة هذه الشعوب بمصر كما عنت بالحديث عن الفيضان ووقته وأسبابه . ثم تناولت بإسهاب مجرى النيل في مصر وفروعه وأثره في اقتصاديات مصر ونظمها الزراعية وخراجها والمقاييس التي

---

(١) فيليب حتى وآخرون « تاريخ العرب » ج ٢ ص ٤٦٧ .



أنشئت لمراقبة زيادته وتقصانه ، وما عمل من خلجان وترع وجسور لضمان الاستفادة من مائه والاحتفالات التي كانت تقام له ، بل وإنهم لم يغفلوا الناحية الأدبية والدينية التي لها علاقة بالنيل .

وقد استمد العرب كثيراً من معلوماتهم عن منبع النيل ومجراه الأعلى من المؤلفات اليونانية وخاصة جغرافية بطليموس . وليس في ذلك ما يقلل من شأن الكتاب العرب فالمعروف أن رواية بطليموس عن خروج النيل من جبل القمر ظلت هي السائدة حتى النصف الثاني للقرن التاسع عشر واكتشاف المنابع الحقيقية للنيل .

أما عن المجرى فإنهم وإن استفادوا من المعلومات السابقة إلا أنهم قد نادوا بنظريات جديدة مثل ربط النيل بأنهار أخرى هي نيل السودان – النيجر – ونيل مقدشو ونهر السند ، وهذه النظريات وإن تكن خاطئة إلا أنها انتقلت عنهم إلى المؤلفات الأوربية ، فقد ظل الأوربيون حتى القرن التاسع عشر يظنون أن النيجر هو النيل .

إلى جانب ذلك قام العرب بدراسة عملية لمجرى النيل جنوب مصر ، فعبد الله ابن أحمد بن سليم الأسواني يصف لنا هذا الجزء من المجرى حتى التقائه برافديه العظيمين العظيرة والنيل الأزرق كما أعطانا صورة للحياة السياسية والاجتماعية لشعوب هذه المنطقة .

وأضاف الكتاب العرب إلى معلوماتهم المستقاه عن الفيضان ، معلومات جديدة لها صفة دينية ١ .

فإذا ما استعرضنا وصفهم للنيل في مصر نجد أن معلوماتهم تأخذ طابعاً جديداً إذ إنها تعتمد على المشاهدة والدراسة عن قرب ، وتعطينا صورة صادقة وحية عن ارتباط حياة المصريين بالنيل وأثره في كل ناحية من نواحي حياتهم ، وسنلمس ذلك فيما يلي من أبواب .

والكتاب العرب الذين كتبوا عن نهر النيل كثيرون غير أننا نلاحظ أن أغلبهم اكتفى بالنقل ممن تقدم مع تفاوت في الإطالة أو الاختصار ، حتى الذين ألفوا عن النيل خاصة كالأقفهسي والمنوفي والمحلي وغيرهم لم يأتوا بجديد نضيفه إلى ما جاء به السابقون . لذلك سنغفل كثيراً من هؤلاء الكتاب مكتفين بذكرهم في قائمة المراجع .

وسنحاول فيما يلي أن نعرف بالكتاب العرب الذين ذكروا معلومات جديدة مهما كانت ضآلتها أو كان نصيبها من الصحة ، مع تحليل للمادة التي قدموها وتقدير لقيمتها .

---

(١) أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق كما ستعرض لها في الفصل الأول من الباب الثالث عند ذكر الفيضان .

## أولاً - الجغرافيون :

١ - الخوارزمي : يعتبر محمد بن موسى الخوارزمي ( المتوفى بين عامي ٢٢٠/٢٣٠ هـ - ٨٣٥-٨٤٤ م ) من أبرز الشخصيات العلمية في العالم العربي الذين برعوا في أكثر من فرع من فروع العلم . وهو أول عربي نشر آراء بطليموس الجغرافية وأحيائها وجدها ١ . وأصبح كتابه « صورة الأرض » - الذي اعتمد فيه على جغرافية بطليموس - نموذجاً وأساساً لكثير من كتب الجغرافيا التي وضعت من بعد .

ولا نعلم يقيناً هل نقل الخوارزمي جغرافية بطليموس عن اليونانية أو عن ترجمتها السريانية أم كانت قد عربت قبل أن يبدأ دراستها ٢ ، وعلى كل يكفى أنه أول من نشرها ونبه الأذهان إليها .

وكتاب « صورة الأرض » هذا يشرح جغرافية العالم ببحاره وجباله وعيونه وأنهاره . وقد وصف فيه النيل معتمداً على ما ذكره بطليموس من أن منابعه من جبال القمر ، إلا أنه ذكر ثلاث بحيرات في حين أن بطليموس ذكر اثنتين فقط . والخريطة التي رسمها الخوارزمي للنيل تطابق كثيراً خريطة بطليموس إلا أن الخوارزمي جعل مصب النيل الأزرق إلى الشمال كثيراً من مكان التقائه الحقيقي بالنيل . ولكن الذي لاشك فيه أن خريطة الخوارزمي هذه أدق من أي خريطة عربية أخرى للنيل .

وقد اقتصر الخوارزمي على وصف مجرى النيل فقط من منبعه إلى مصبه ولم يتعرض لذكر الفيضان أو أثر النيل الاقتصادي في مصر وترعه وخليجانه ، ولكن وجه الأهمية فيها ذكره - على اختصاره - كونه أول وصف عربي لنهر النيل معتمد على آراء سابقة وأنه صار أساساً بني عليه من جاء بعده من الكتاب .

٢ - اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي جغرافي ومؤرخ من القرن الثالث الهجري . كان رحالة يحب الأسفار ساح في

---

(١) يرى الأستاذ نلينو أن تجديد الخوارزمي لجغرافية بطليموس لا يعتبر مجرد تقليد للآراء الإغريقية « بل هو بحث جديد مستقل في علم الجغرافيا » - « انظر كتاب » الجبر والمقابلة للخوارزمي نشر الدكتور مشرقة ودكتور محمد مرسى ص ١٢ .

(٢) يرجح أن الخوارزمي نقل عن بطليموس بعد أن عربت كتبه من اليونانية . ولعل حنين بن إسحق ( ولد سنة ١٩٤ ) هو الذي ترجمها حيث أنه عين في بيت الحكمة في عهد المأمون وهو الذي ترجم الكتب اليونانية إلى السريانية أولاً ثم إلى العربية ( انظر أحمد أمين ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٨٣ وما بعدها .

بلاد الإسلام شرقاً وغرباً ، وألف في سياحته هذه كتاب البلدان كما ألف تاريخه المعروف باسمه . وتوفي بمصر سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) .

وقد جمع اليعقوبي مادة كتابه البلدان — الذي ألفه بمصر سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) — بالبحث في أعمال من تقدموه ومن الرحالة والمسافرين ، وقد ذكر فيه الخراج وطرق السفر وبدأه بوصف بغداد وسمراء ثم عرج على إيران وأفغانستان والكوفة ، ثم وصف سوريا ومصر والنوبة والمغرب وختمه بفصل عن حكام سجستان . ويظهر من ثنايا الكتاب أن اليعقوبي رأى بنفسه معظم البلاد التي وصفها ١ .

والجزء الذي كتبه اليعقوبي عن النيل ضئيل بالنسبة لمؤلفه . ولم يذكر فيه من أين ينبع النيل بل اكتفى بأن قال : « إنه يأتي من وراء علوة » ، إلا أن له أهمية خاصة ترجع إلى قوله : « إن النيل والسند نهر واحد » . أما عن خراج مصر فقد ذكر مقداره منذ الفتح حتى أيام هارون الرشيد .

٣ — ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه ، جغرافي عربي توفي في أواخر القرن الثالث (أوائل العاشر الميلادي) . وقد ألف حوالى عام ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) ٢ « كتاب البلدان » الذي كان مرجعاً من مراجع المقدسي وياقوت ، وإن كان هو نفسه قد استعان في تأليفه بكتب من تقدموه . والذي وصل إلينا من هذا المؤلف مختصر له .

ويشارك ابن الفقيه زميله اليعقوبي والملاحظ في قولهما إن النيل متصل بنهر السند . كما أنه يذكر رأياً جديداً عن منبع النيل هو خروجه من قرب المحيط الأطلسي . وهذا الرأي على ما يبدو تأثر بقصة أوردها بلنبوس عن الملك جوبا الثاني .

ونلاحظ أن ابن الفقيه هو أول جغرافي يروى الأحاديث المنسوبة للنبي عن خروج النيل من الجنة . إلا أنه يذكر حقيقة جغرافية هامة — لا شك أنه أول من ذكرها من المؤلفين العرب — هي أن مصر كانت خليجاً من البحر . وهو أيضاً أول جغرافي ينقل أشعاراً ذكر فيها النيل .

٤ — ابن رسته : أبو علي أحمد بن عمر من أصل فارسي . صنف كتابه « الأعلاق النفسية » حوالى سنة ٢٩٠ هـ مستمداً معظم مواده من مؤلفات المعاصرين والمتقدمين ولم

---

(١) زكى محمد حسن : «الرحالة المسلمون» ص ٣٥ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٢٥٦ . وقد جاء في معجم المطبوعات العربية

ج ٢ ص ٢٠٦ أنه ألف كتابه هذا سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) بعد موت المعتضد .



يصل لنا من هذا المؤلف إلا الجزء الذى نشره دى خوى وهو الجزء السابع من المكتبة الجغرافية .

وما ذكره ابن رسته عن النيل لا قيمة علمية له فهو يذكر ما سبق أن رددته الآخرون إلا أنه سعى الجبال التى يخرج منها النيل يجبال « الين » ١ على أن الحديد فيه ذكره صورة لاحتفال المصريين بالوفاء فى عصره . ولذلك قيمته التاريخية ، إذ أن الكتاب العرب الذين تحدثوا عن احتفالات الوفاء اكتفوا بذكر ما كان يقام منها فى عهد الفاطميين وما بعدهم مهملين ما قبل ذلك .

والصورة التى صورها لنا ابن رسته تظهر الفرق الكبير بين بساطة هذا الاحتفال فى عهده والبذخ والفخامة الذى امتاز بها منذ عهد الفاطميين .

٥ - ابن سيرايبون : يحيى بن سيرايبون وقيل يوحنا بن سيرايفون كان طبيباً وجغرافياً توفى بين عامى ٢٨٩ ، ٣٣٤ هـ . ٢

وكتابه « عجائب الأقاليم السبعة » جمع مادته كما يقول من الكتب السابقة وفيه يصف أقاليم العالم المختلفة ويذكر ضمناً نهر النيل .

ووصف ابن سيرايبون للنيل لا يخرج عن وصف الخوارزمى بل هو منقول عنه . إلا أن الحديد فيه وصفه لمجرى الفروع السبعة فى الدلتا التى ذكرها الخوارزمى من قبل بدون أن يحدد مجراها . وقد حدد الخوارزمى مصبات هذه الفروع بين الإسكندرية ودمياط أما ابن سيرايبون فقد ذكر أن الفرع الشرقى وهو السابع يصب عند القرما وهو الأصح .

٦ - ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن حوقل رحالة عربى وجغرافى مشهور لا نعرف عن حياته إلا القليل . ويقول عن نفسه إنه ترك بغداد فى رمضان سنة ٣٣١ هـ (مايو ٩٤٣ م) بقصد التجارة والدراسة ، وظل يتجول فى العالم الإسلامى ثلاثين سنة دارساً فى الوقت نفسه مؤلفات المتقدمين كالجيهانى وابن خرداذبة وقدامة ، كما قابل الأصطفرى فى رحلته .

وفى هذه الفترة ألف كتابه « صورة الأرض » والذى يذكر أنه وقفه على دراسة العالم الإسلامى فقط مع توضيح كل ذلك بالخرائط .

والكتاب الذى بين أيدينا مطبوع عن نسخة تاريخها ( ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م ) ويرى

---

(١) الأعلام النسخية ص ٩٠ .

(٢) رزقانه - نهر النيل مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ج ١ مايو سنة ١٩٥٠ .

ابن حوقل أن منبع النيل مجهول ، ولكن ناسخ الكتاب عارضه في ذلك وأورد وصفاً للنيل ورسماً لمجراه لا يخرج عما ذكره الخوارزمي من قبل .

وقد اهتم ابن حوقل بالنظام الاقتصادي في مصر ، وسبق ابن مماتي والقلقشندي والمقريزي وغيرهم في الاهتمام بذكر مواعيد المحاصيل المختلفة وكيفية تحصيل الحراج على مدار السنة .

أما عن مجرى النيل فهو يذكر الجندلين اللذين عند أسوان ودقطة في حين أن كثيراً من كبار الجغرافيين كالمسعودي والإدريس لم يذكرهما إلا الجندل الذي يقع جنوب أسوان .

كما أن ابن حوقل يصف فرعي رشيد ودمياط وما يتفرع منهما من أفرع ثانوية أخرى لم يسبق أن ذكرها كاتب آخر .

٧ - البكري : أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري ، أول الجغرافيين المسلمين في المغرب ممن حفظت كتبهم ، وقد اشتهر في قرطبة وفيها توفي سنة ( ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م ) بعد أن عمر طويلاً .

ومن أشهر مؤلفات البكري التي خلدت اسمه « كتابه المسالك والممالك » وهو مثل معظم كتب الجغرافيين في العصور الوسطى يعتمد على الرحلات كما يعتمد على المراجع السابقة ١ وقد اعتمد على هذا الكتاب كثير من المؤلفين الذين جاءوا بعد ذلك . ولم يصلنا من هذا الكتاب إلا جزء يختص بشمال إفريقيا ومصر وبعض الصفحات عن إسبانيا وقد نشر هذا الجزء وحققه دي سلان De Slane ومباه « المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب » .

ولهذا الكتاب أهمية كبيرة بالنسبة لموضوع النيل بالرغم من قلة معلوماته التي أوردها عنه إذ إنه أول مؤلف عربي ربط بين النيل والنيجر ٢ وانتقل هذا الرأي من المؤلفات العربية إلى المؤلفات الأوربية كحقيقة مسلم بها .

٨ - الإدريسي : كان أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي من أعظم علماء الجغرافية ورأسى الخرائط في العصور الوسطى الذين كان للرحلات شأن عظيم في

---

(١) اعتمد البكري كثيراً على كتاب في وصف إفريقيا والمغرب ألفه محمد التارنجي المتوفى عام ٣٦٣ هـ ( ٩٧٣ م ) ( انظر المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ص ١٦ - وانظر آدم متر الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٨ .

(٢) هذا وإن كنت أرجح أن ابن سليم الأسواني هو أول من ذكر ذلك وسنبين ذلك في الفصول التالية .

آثارهم العلمية . ولد بسبته عام (٤٩٣ هـ - ١١٠٠ م) وتوفي عام (٥٦٠ هـ - ١١٦٦ م)، وتلقى العلم بقرطبة ثم طاف في الأندلس وفي شمال افريقية وآسيا الصغرى ويقال أيضا إنه زار فرنسا وإنجلترا . ثم لبى دعوة الملك روجر الثاني ملك صقلية النورماندى حيث صار ألمع شخصية ازدان بها بلاط هذا الملك . وقد أتم في بالرموقيل وفاة هذا الملك عام (٥٤٨ هـ - ١١٥٤ م) وصفه للكرة الأرضية المصنوعة من الفضة والتي رسم عليها أقاليم العالم المعروفة ثم دون ذلك في كتابه المشهور باسم الكتاب الرجارى أو «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وقد طبع مختصر هذا الكتاب في روما حوالى ١٩٥٢ م بعنوان «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والبحر والمدائن والآفاق» .

ويعتد مؤلف الإدريسى هذا أعظم المصنفات الجغرافية في العصور الوسطى ، ولا تقتصر أهميتها على تلخيص الموضوعات الرئيسية في الكتب السابقة كجغرافية بطليموس وابن خردادبة وابن حوقل والمسعودى - فحسب بل تعود أهميتها أيضاً إلى أنها اعتمدت على مشاهداته الخاصة في رحلاته السابقة وعلى بيانات كثير من الرواة الذين أرسلهم الملك إلى الأقاليم المختلفة لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضعها وغيرهم من الرحالة والتجار الذين كانوا يمرون بموانئ صقلية .

وقد استفاد كثير ممن جاء بعد الإدريسى من مؤلفه هذا كما اعتمد عليه الغربيون في تقويم البلدان لا سيما بلاد الشرق ، إلى أن تقدم علم الجغرافيا في القرنين ١٨ ، ١٩ . وقد أشار إلى ذلك البارون دى سلان سنة ١٨٤١ بقوله : «إن كتاب الإدريسى لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له ، وإن ثمت بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافى في الأمور المتصلة بها .

كما يذكر الأستاذ بيزلى (٢) Beasley عن أثر الإدريسى في أعمال الجغرافيين الغربيين إذ يقول : «إننا نجد تأثير الإدريسى ظاهراً وواضحاً في خرائط مارينو سانوتو Marino Sanuto وبترو فيسكوند Pietro Vesconde» وهذا يوضح قيمة الحقائق الجغرافية والتاريخية التي وردت في المراجع العربية في العصور الوسطى .

وقد شارك الإدريسى البكرى في الربط بين النيل والنيجر ، إذ جعل مخرجيهما من بحيرة واحدة . وقد ذاع هذا الخلط بعد ذلك في المؤلفات العربية التي نقلت عن الإدريسى كما توسع الإدريسى عن سبقه من الجغرافيين في وصف النيل وما يقع عليه من أمم

(١) الدكتور زكى محمد حسن «الرحالة المسلمون في العصور الوسطى» ص ٦٤ .

(٢) Beasley; The Dawn of Modern Geography vol. III p. 531



كما عني بصفة خاصة بمصر وأفرع النيل وخليجانه بها . وقد ظلت معلوماته عن فروع النيل في الدلتا إلى جانب معلومات ابن حوقل المصدر الهام الذي تعتمد عليه في ذلك .

وقد ذكر الإدريسي الرافد الشرق للنيل والذي سبق أن ذكره الخوارزمي ولكنه جعل مصب هذا الرافد جنوب أسوان إلى الشمال كثيراً من مكان اتصاله الأصلي بالنيل .

٩ - الدمشقي : (٦٥٤-٧٢٧ هـ - ١٢٥٦ - ١٣٢٥ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي الصوفي المعروف بشيخ الربوة ، كان ذكياً كثير التأليف حسن المحاضرة .

وكتابه « نخبه الدهر في عجائب البر والبحر » وهو على سبعة أبواب خليط من الجغرافيا والتاريخ الطبيعي ، ويعتبر في أسلوبه وترتيبه من أحسن مؤلفات الجغرافيا الإنسانية والتاريخ الطبيعي في المكتبة العربية .

وقد ذكر نهر النيل في الباب الثالث من مؤلفه هذا ، وأول ما نلاحظه أفقه الواسع ومنطقه العلمي ، فبينما يذكر كثير ممن سبقوه أو جاءوا بعده أحاديث عن خروج النيل من الجنة يرى هو أن هذه الجنة لا بد وأن تكون أرضية ، ولعله سمع عن الفكرة القديمة التي كانت تقول بوجود جنة أرضية .

كما أنه يذكر أن سبب نقص الحراج هو إهمال ولاية الأمور - بسبب التفريط - في العناية بالخلجان والجسور .

ويعتبر ما ذكره عن أثر النيل في مصر له أهمية من الناحية الاقتصادية وكيفية الاستفادة به وعن الحراج .

كما أنه أول كاتب يجمع مع النيل الشرقى الذي ذكره المسعودي والنهر الغربى الذي ذكره البكرى والإدريسي .

١٠ - ابن فضل الله العمرى : (٧٠٠ - ٨٧٤٩ هـ) شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن يحيى بن محمد الكرمانى العمرى الشافعى المعروف بابن فضل الله الكاتب الدمشقى ، ويرجع ابن شاعر الكتبتى ١ نسبة إلى عمر بن الخطاب . ولد بدمشق ، وقد خدم الملك الناصر محمد بن قلاوون ككاتب سر الديار المصرية ، ثم عمل كاتباً للسر في دمشق ، وتفرغ بعد ذلك للتأليف .

ومن أهم مؤلفاته كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمطار» كتبه في الغالب سنة ٧٤٣ هـ أو بعدها ويقول إنه شرع في تأليفه أيام الناصر محمد بن قلاوون .

والفصل الخاص الذى أفردته فى كتابه للنيل ، وإن لم يأت فيه بجديد ، إلا أنه يدل على سعة اطلاع المؤلف وتسفيهه للخرافات ، فهو يذكر ما قيل عن المحاولات التى بذلت للوصول إلى منابع النيل ويعقب عليها بأنها أقوال لا قيمة لها جعلت أسباباً لعدم الوقوف على حقيقة أوله .

إلا أنه يذكر أول رواية عن وصول بعض العرب إلى قرب منابع النيل ورويتهم لجبال التى بها منابعه ، بل ويذكر أن بعضهم وصل إلى بحيرة النيل الثالثة ١ .

ثانياً - المؤرخون :

١ - ابن عبد الحكم : ( ١٨٧ - ٢٥٧ هـ ) يعتبر عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحكم أقدم مؤرخى مصر الإسلامية ، وأول مؤرخ وصلت إلينا مؤلفاته ويتعرض فيها لذكر النيل ، وذلك فى كتابه « فتوح مصر وأخبارها » الذى يعد أقدم وثيقة محفوظة فى فتوح مصر وإفريقية الشمالية والأندلس .

والمعلومات التى ذكرها ابن عبد الحكم عن النيل ولو أنها قليلة فى مادتها ، إلا أن لها أهمية خاصة حيث إنه أول من ذكر ما قيل عن خروج النيل من الجنة مؤيداً ذلك بأحاديث منسوبة للنبي وروايات عن كعب الأخبار وغيره . وهو أيضاً أول من ذكر قصة عروس النيل ومنع عمرو بن العاص لهذه العادة ، وأصبح ابن عبد الحكم المرجع الأساسى لهذه القصة التى أصبح لها مؤيدون ومعارضون .

كما عنى بذكر مقاييس النيل التى أنشئت قبل وبعد الإسلام ، وتعرض كذلك لذكر الخلجان فى مصر وإن لم يعتن بوصف مجراها وعنه أخذ غيره من المؤلفين . كما أنه أول من تعرض لذكر خراج مصر وعلى أى أساس قدر هذا الخراج .

٢ - المسعودى : أبو الحسن على بن الحسن بن على المسعودى الشافعى من ولد عبد الله بن مسعود الصبحانى .

ويلقب المسعودى بـ « هيرودوت العرب » كما وصفه ابن خلكان بإمام المؤرخين . وقد ابتدع طريقة تدوين التاريخ حسب الموضوعات ، فلم ينظم الحوادث حول السنين بل حول الدول والملوك والشعوب ، وهى طريقة جرى على متوالها ابن خلدون وغيره . وكان من أقدم المؤرخين الذين أحسنوا الامتعاة بالقصة أو النكتة التاريخية فى سياق البحث ٢ .

(١) « مسالك الأبصار » ص ٦٨ ، ٧٠ .

(٢) فيليب حقي وآخرون « تاريخ العرب » ص ٤٧١ - ٢٠٠ .

نشأ في بغداد ثم أقبل على السياحة لطلب العلم وجمع الحقائق الجغرافية والتاريخية ، فرحل شرقاً إلى الهند ووصل إلى بحر الصين ، ثم جال بعد ذلك في المحيط الهندي وزار زنبار وسواحل إفريقيا الشرقية ، وقام برحلات في إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى والشام والعراق وجنوب بلاد العرب ومصر التي وصلها في زمن الإخشيد محمد بن طفج وأقام بها من سنة ( ٣٣٦ هـ - ٩٤٧ م ) إلى أن توفي سنة ( ٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م ) .

وذكر ياقوت ١ من مؤلفات المسعودي : « ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور » - « كتاب الرسائل » - « كتاب الاستدكار لما مر في سالف الأعصار » - « كتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم » - « كتاب التنبيه والإشراف » - « مروج الذهب » .

ومعظم مؤلفات المسعودي قد ضاع ، وأعظم ما وصل إلينا منها كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الذي اختصر فيه كتابين كبيرين له . وقد فرغ من تصنيفه سنة ( ٣٣٦ هـ - ٩٤٧ م ) ويمتاز هذا الكتاب على غيره من الكتب العربية بكثرة ما فيه من أخبار الأمم التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي في عصره . وقد نقل كثيرون من الكتاب عن المسعودي خصوصاً فيما كتبه عن النيل .

والمسعودي أول من ربط بين النيل ونهر آخر شرقي يخرج منه إلى بحر الزنج كما يعتبر كتابه مصدراً هاماً للشعوب التي سكنت على طول مجرى النيل . وتوسع المسعودي في الكلام عن الفيضان وأقوال الأمم المختلفة عن أسبابه ، كما تحدث عن أثر الفيضان على مصر ومدى انتفاعها به في الفيضان المرتفع والمنخفض .

وقد استعان كثيرون من الكتاب العرب - فيما بعد - بأقوال المسعودي عن الفيضان والمقاييس ونقلوها في كتبهم . إلا أن المسعودي لم يعن بوصف خلجان مصر المشهورة ولم يذكرها إلا عرضاً .

٣- ابن زولاق : أبو محمد الحسن بن زولاق ، ولد بالفسطاط سنة ( ٣٠٦ هـ - ٩١٨ م ) وتوفي سنة ( ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م ) بعد أن أدرك قيام الدولة الفاطمية بمصر .

ولابن زولاق من المؤلفات « فضائل مصر » ، ويقال إن ياقوت الحموي نقل منه في معجم البلدان عند كلامه عن المدن المصرية دون إشارة إليه . كما أن له مؤلفات أخرى مثل « سيرة المعز لدين الله » و « سيرة الإخشيد » و « تنمة أمراء مصر » وهو ذيل لكتاب



الكندى عن ولاية مصر . ولم تصلنا من هذه الكتب إلا بعض شذرات في مؤلفات المتأخرين . ١

ويوجد بمكتبة الأزهر ضمن مجموعة تحت رقم ٦٦٩٣ تاريخ وقف أباطة باشا ، نسخة خطية باسم « فضائل مصر وأخبارها وخواصها » للشيخ الإمام الأوحى الحسن بن إبراهيم بن زولاق . ونسخة أخرى منقولة عن هذه بمكتبة جامعة الإسكندرية تحت رقم ٣١ . ولكن يظهر أن هذه الوريقات منقولة عن مؤلف أكبر . وتتناول ذكر فتح مصر وهل كان عنوة أم صلحاً ووصف عمرو بن العاص وغيره لمصر . وفصل عن خراج مصر في عهد الفراعنة والعرب من أيام عمرو حتى زمن أحمد بن طولون . ثم ذكر كيفية التنبؤ بما سيكون عليه الفيضان .

وابن زولاق أول من أشار إلى احتفال الفاطميين بقطع الخليج فذكر قيام المعز لدين الله بذلك ، وهو كذلك أول إشارة عن قيام ولاية الأمور بمصر بذلك الاحتفال .

٤ - القضاعى : هو القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى الفقيه الشافعى . ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجرى وتوفى بها سنة ( ٤٥٤ هـ - ١٠٦٢ م ) . وإن كان المقرئ يذكر أن وفاته كانت سنة ٤٥٧ هـ . ٢

وتولى القضاعى القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد المستنصر بالله الفاطمى ، واشتغل بالتاريخ أيضاً فألف كتابه في الخطط أسماء كما يقول المقرئ المختار في ذكر الخطط والآثار ، ولم يصلنا من هذا الكتاب إلا شذرات متفرقة في كتب من خلفه خصوصاً القلقشندى والمقرئ والسيوطى وغيرهم ممن كان القضاعى مصدرأ من مصادر معلوماتهم خصوصاً فيما يتعلق بالنيل وفيضانه ومقاييسه ، وخراج مصر .

٥ - القزوينى : ( ٦٠٠ - ٦٨٢ هـ - ١١٠٣ - ١٢٨٣ م ) زكريا بن محمد القزوينى ولد في مدينة قزوين بالعراق العجمى وطاف في إيران والعراق والشام وتولى قضاء مدينتى واسط والحلة .

وللقزوينى مؤلف في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب يسمى « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » يعتبر موسوعة عربية هامة في التاريخ الطبيعى . وهو وإن لم يأت بجديد فيما يختص بالنيل إلا أنه ذكر سبباً غريباً لفيضان النيل هو هبوب ربح الشمال ووقوفها كالسد أمام ماء النيل فيزيد ويعم البلاد .

---

(١) محمد عبد الله عنان - مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٣٤ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٤ .

٦ - ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد المصرى ولد بالقاهرة سنة ٧٥٠ هـ وتوفى بها عام ٨٠٩ هـ (١٣٤٩ - ١٤٠٦ م) . وكان من المؤلفين فى الخطط وخصبها بأعظم قسط من مجهوده التاريخى إذ كتب عنها مؤلفه الكبير « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » يعتمد فى مادته على من سبقه من كتاب الخطط كابن عبد الحكم والكندى والقضاعى وابن المتوج . ولم يصلنا من هذا المؤلف إلا الجزء الرابع والخامس .

وقد ذكر فىهما كور مصر وبلاد كل كورة وعبرتها فأعطانا بذلك صورة دقيقة للحالة الاقتصادية فى مصر فى عهده . فضلاً عن أنه ذكر بعض الخلجان الهامة ، كما وصف المقياس وصفاً دقيقاً وذكر نظام الاحتفال بوفاء النيل وكسر السد فى أيامه .

٧ - المقرئى : تقي الدين المقرئى أشهر مؤرخ مصرى على الإطلاق ، وزعيم المدرسة التاريخية التى ازدهرت بمصر خلال القرن التاسع الهجرى وجذب اهتمامها تاريخ مصر بوجه خاص ، وكان من أساطينها العيني وابن تغرى بردى والسخاوى وابن لياس ، الذين تركوا لنا ذخيرة وافرة عن تاريخ مصر . والذين ظلت مؤلفاتهم « المصدر الأول » لما نحتاج من معرفة لأحوال ذلك العصر من تاريخ وثقافة وأدب واقتصاد وسياسة واجتماع . ١

ولد المقرئى بالقاهرة سنة ٧٦٦ هـ وتوفى بها سنة ٨٤٥ هـ (١٣٦٤ - ١٤٤٢ م) ، وقد تولى بعض الوظائف الهامة فى الدولة مثل الحسبة بالقاهرة والخطابة بجامع عمرو ومدرسة السلطان حسن والإمامة بجامع الحاكم ، كما اتصل بالظاهر برقوق وولده الناصر . ثم اعتكف بعد ذلك وأقام بالقاهرة حيث تفرغ للتأليف وخاصة فى التاريخ . ولعل أعظم وأجل كتبه - التى ربت على المائتين ٢ - كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ٣ الذى رتبته على سبعة أجزاء .

وقد اهتم المقرئى فى خططه هذه بجغرافية مصر والنيل وأعطانا صورة دقيقة وصادقة عن الحياة فى مصر وأثر نهر النيل فى النظم الاجتماعية والاقتصادية ونظام الزراعة فى العصور المختلفة ، وخراج مصر وإقطاعاتها وترعها وخلقجانها ومزروعاتها وأنواع أراضيها ونظام روك الأرض واهتم بصفة خاصة بالروك الناصرى ومنه تبين توزيع الأرض فى العهد المملوكى .

---

(١) محمد مصطفى زيادة : « المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر » ص و

(٢) السخاوى ، « التبر المسبوك فى ذيل الملوك » فى تاريخه المقرئى عند ذكر من مات

سنة ٨٤٥ هـ .

(٣) ألف المقرئى خططه فيما بين عامى ١٤١٧ - ١٤٣٦ م (٨٢٠-٨٤١ هـ) انظر

زيادة المرجع السابق ص ١٠ .

كما اهتم بالملاحة والسفن ودور الصناعة التي أنشئت . وتعرض لفيضان النيل والأقوال المختلفة التي قيلت عن أسبابه وكيفية التنبؤ بمقداره كما توسع في ذكر المقاييس التي عملت في العصور المختلفة وكيفية الاحتفال بوفاء النيل خاصة عند الفاطميين .

إلى جانب ذلك فالمقرئ يذكر لنا كتاب عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني<sup>١</sup> ووصفه لمجرى النيل جنوب مصر حتى مدينة الخرطوم الحالية والشعوب القاطنة على جانبي هذا الجزء من المجرى .

وبالجملة يعتبر ما ذكره المقرئ عن النيل أو في وصف وأهمه بين كتاب العرب جميعاً . فهو قد عرض لجميع الأقوال السابقة التي ذكرها العرب وغيرهم ولكنه لم يكن مجرد ناقل فحسب بل وقف من هذه الآراء موقف الناقد المتمكن . نلمس ذلك عند ذكره الفيضان مثلاً حيث يستعرض الآراء ، المختلفة وينقدها نقداً علمياً منطقياً ويسوق الأدلة والبراهين على صحة رأيه . ولا شك أن مادة المقرئ عن النيل من حيث الكم والكيف تفوق كل ما ذكره غيره .

وللمقرئ مؤلف آخر له علاقة وثيقة بالنيل هو كتاب «إغاثة الأمة» يتناول فيه المجاعات التي حلت بمصر حتى سنة ٨٠٨ هـ وهي السنة التي ألف فيها الكتاب ، ذاكرة أثر هذه المجاعات في حياة البلاد الاجتماعية والسياسية . وكان من أهم الأسباب لهذه المجاعات انخفاض الفيضانات فلا يتمكن الناس من الزرع خصوصاً بعد أن أهملت الجسور والترع .

٨- ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، ولد بالقاهرة حوالي سنة ٨١٢ هـ وتوفي سنة ٨٧٤ هـ . وقد اهتم ابن تغرى بردى بدراسة التاريخ ولزم مؤرخي عصره مثل العيني والمقرئ وصار من أساطين تلك المدرسة المصرية التاريخية التي ازدهرت في ذلك العصر .

وألّف أبو المحاسن كتابه العظيم «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» في تاريخ مصر مرتب على السنين ابتداءه بفتح مصر سنة (٢٠ هـ - ٦٤٠ م) إلى سنة (٨٧٢ هـ - ١٤٦٧ م) ذاكرة فيه من ولى مصر من الملوك والسلاطين والنواب ، آتياً في كل سنة على ما وقع من الحوادث المهمة مع إشارة إلى مقدار الزيادة في النيل .

٩- السخاوى : شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، ولد عام (٨٣١ هـ - ١٤٢٧ م) وتوفي بالمدينة سنة (٩٠٢ هـ - ١٤٩٧ م) . زار أغلب مدن الشام ثم

---

(١) ارجع إلى ما ذكرته عن «مخطوط الفيض الجديد للمنفى» في الفصل الخاص بالمخطوطات - خاصاً بابن سليم الأسواني .



جاور بالمدينة إلى أن توفي . وقد اهتم بعلم التاريخ ووقع بينه وبين السيوطي خلاف ومساجلات واتهامات .

وصلنا من مؤلفاته «الضوء اللامع لأبناء القرن التاسع» . و «التبر المسبوك في ذيل الملوك» جعله ذيلاً لكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي» ، ورتبه على السنين . ويتبدى من سنة ٨٤٥ هـ ويتهى في سنة ٨٥٧ هـ ١ .

والسخاوي يعتنى عناية خاصة في كتابة التبر المسبوك بذكر كيفية الاحتفال بالوفاء في كل سنة واسم من رأس الاحتفال ومنه يتبين أن السلطان في القرن التاسع بوجه خاص لم يكن يحضر الاحتفال بنفسه بل كان ينوب عنه غيره كما إنه يذكر مقدار الماء القديم ومقدار الزيادة في كل سنة . كما يذكر المجاعات التي حدثت خلال بعض هذه السنين .

١٠ - السيوطي : عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد السيوطي ، ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩ هـ وتوفي بها سنة ٩١١ هـ (١٤٤٥ - ١٥٠٥ م) ، برع في علوم الدين والأدب ، والتاريخ وألف فيها جميعاً عشرات الكتب .

وأشهر مؤلفاته التاريخية كتاب «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» كتبه في عصر السلطان قايتباي ٢ ، وهو مجموعة لنواح عدة من تاريخ مصر السياسي والاجتماعي والأدبي وبعض خواصها وعجائبها وآثارها ملخصاً من كتب المتقدمين كما ذكر من دخلها من الصحابة والتابعين وذكر أمراءها وحفاظها وفقهاءها وعلماءها وأدباءها كما ذكر نبيلها وبعض مدتها . والسيوطي لم يأت يجديد بل هو يلخص آراء المتقدمين ، ومن مراجعه ابن عبد الحكم والكندي وابن زولاق والقضاعي وابن يونس وابن المتوج ٣ وابن فضل الله العمري والمقريزي وغيرهم .

(١) يذكر الدكتور محمد مصطفى زيادة أن السخاوي ألف كتابه إجابة لرغبة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار في عهد السلطان قايتباي . وأن الكتاب في أربعة أجزاء وأنه طبع في القاهرة من نسخة فريدة ناقصة تبتدى من سنة ٨٤٥ هـ وتنتهى سنة ٨٥٧ هـ مع أنه كان يشمل حتى أواخر القرن التاسع الهجري على قول السخاوي نفسه فضلاً عن إشارات المعاصرين بصدده هـ انظر المؤرخين في مصر القرن في ١٥ م ص ٤٣ وهامش ٣ بنفس الصفحة .

(٢) زيادة ، المرجع السابق ص ٦٤ .

(٣) ابن يونس : هو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد مؤلف تاريخ مصر توفي سنة ٣٤٧ هـ ابن المتوج : تاج الدين بن محمد بن عبد الوهاب (٦٣٩-٧٣٠ هـ) ألف تاريخ مصر المسمى «اتعاظ المتغفل وأيقاظ المتأمل» .

وقد ألف السيوطى عام ( ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م ) ١ كتابه « كوكب الروضة » وهو لازال مخطوطاً ، نقل فيه كثيراً مما كتب المقرئى .

وقد عني السيوطى فى مؤلفيه هذين برواية كثير من الأشعار التى قيلت فى النيل فضلاً عن بعض كتب البشارات التى كتبها كتاب الإنشاء عند وفاء النيل . وفيما عدا ذلك لم يأت بجديد .

١١ - القاضى معروف قاضى المترلة : من القرن العاشر الهجرى ، إلا أننا لا نعرف عنه شيئاً ٢ .

وقد ألف كتاباً باسمه « كتاب عجائب الأخبار عن مصر الأمصار » لازال مخطوطاً ، توجد نسخة منه بمكتبة الجامع الأزهر تحت رقم ٣٢٠ - ٦٦٢٠ تاريخ .

ويذكر المؤلف أنه لخص كتابه هذا من مؤلف آخر له يقع فى نحو من ثلاثين كراس . وقد حرره على ما يظهر للسلطان العثمانى إذ يقول « وقد حررته خدمة لخزانة ملك الإسلام سيد الملوك العظام المالك الملك الهمام ..... الخ » وهو لم يذكر اسم هذا السلطان ، ولكن لما كنا نرجح تأليف هذا الكتاب فيما بين سنتى ٩٦٢ هـ و ٩٦٨ هـ ٣ يكون السلطان العثمانى فى ذلك الوقت هو سليمان بن السلطان سليم .

والكتاب مقسم إلى عشرة أبواب ٤ ذكر فيها تاريخ مصر وأول من سكنها وحدودها ومساحتها وأموالها قبل الفتح وبعده وعظماء ملوكها ومن دخلها من الأنبياء . ثم ذكر فتحها على يد عمرو أول مدينة إسلامية خطت ، وفضائلها وخواصها وطلسماتها وبرايها وما يمتاز به أهلها من طباع . ثم خصص الباب الثامن فى ذكر النيل وقسمه بدوره إلى ثمانية فصول ذاكرة ما ورد فيه من الآثار وذكر منابعه ومزايه وطبائعه وأوقات صفائه وكدورته ووفائه وسبب زيادته ونقصه ومسافة جريته ووقوع الغلاء المفرط فى أيام حبسه عنها ، وفى المقياس وفى حيوانات النيل العجيبة وخلجانها وقناطره وغير ذلك . وقد ذكر المؤلف أن أكثر ما ذكره منقول من الخطط للمقرئى وأخبار الزمان

---

(١) زيادة ، المرجع السابق ص ٦٤ - وكما ذكره السيوطى بنفسه فى آخر الكتاب انظر مخطوط كوكب الروضة دار الكتب ٢٦٣ تاريخ .

(٢) ذكره بروكلمان ضمن المؤلفين غير المعروفين أين ومتى عاشوا وعرفه باسم « معروف ابن أحمد » .

٣ - انظر صفحتى ٦٤ ، ٧٩ أ .

٤ - يغلب أن المؤلف أضاف الباب العاشر فيما بعد حيث إنه لم يذكر فى المقدمة إلا تسعة أبواب فقط .

للمسعودى وعجائب البر والبحر لشيخ الربوة وابن عبد الحكم وابن وصيف شاه  
والتيفاشى ، كما أنه فيما يختص بالنيل قد نقل عن قدامة والإدريسى وأبو الفدا وابن  
وحشية ١ وابن رضوان وابن الوردى .

وعلى ذلك فهو لم يأت يجديد إلا فى نقطتين ، فهو قد ذكر ما يدل على أن البلاد قد  
زيكت فى عهد الأشرف برسباى ٢ . كما ذكر أن قانون الرى فى عصره (سنة ٩٦٧ ،  
سنة ٩٦٨) ما بين ٢٢ ذراعاً ، ٢٣ ذراعاً ٣ .

١٢ - ابن أبى السرور البكرى الصديق : ولد شمس الدين محمد بن أبى السرور  
سنة ١٠٠٥ هـ وتوفى سنة ١٠٦٠ هـ ٤ (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) وقد تكلم عن النيل فى  
كتابه «الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة» و «قطف الأزهار من الخطط  
والآثار» ٥ وهو يردد فيها أقوال المؤلفين السابقين إلا أنه ذكر فى كتابه الأول مقدار  
خراج مصر فى العهد العثمانى كما وصف فى كتابه الثانى كيف كان الولاة العثمانيون  
يحتفلون بوقاء النيل .

#### (١) الكواكب السائرة ٦ :

قد جعله فى عشرين باباً فى ذكر مصر وسبب تسميتها وحدودها وقضايلها ومن  
نزلها من الصحابة وولد فيها من الأنبياء والحكماء ومن ملكها من الملوك من قبل الطوفان  
وبعده ثم خلفاء المسلمين وملوكهم ونوابهم حتى سنة ١٠٦٠ هـ . كما ذكر كور مصر  
وخراجها ومعالمها وما كان يعمل بها من الترع والجسور ونيلها وأهرامها ومقاييسها ثم  
عنى بذكر القاهرة وإنشائها ثم ختمه بذكر الإسكندرية ومنارتها وما فيها من عجائب .

(١) أبو بكر أحمد (أو محمد) بن على الكلدانى أو النبطى من النصف الثانى للقرن  
البابى الهجرى .

(٢) ص ٧ أ ٧ ب .

(٣) ص ٧٩ أ .

(٤) دائرة المعارف وكتاب «مصر الإسلامية» ص ٦٢ وإن ذكر فى مخطوطة «قطف  
الأزهار» نسخة دار الكتب أنه توفى سنة ١٠٨٧ هـ وعلى كل فقد ألف كتابه «الكواكب السائرة»  
حتى سنة ١٠٦٠ هـ كما يذكر فى مقلته .

(٥) يذكر على باشا مبارك فى خطه ج ١٨ ص ٢٣ أن أبا السرور ألف كتابه هذا  
سنة ١٠٣٤ هـ ويظهر أنه أخذ فى الإضافة إليه حيث إنه ذكر قصة مصر سنة ١٠٥٦ هـ .

(٦) يوجد منه نسخة مصورة بمكتبة البلدية بالإسكندرية .



## (ب) قطف الأزهار ١ :

فقد اقتطفه من كتاب المواعظ والاعتبار للمقرئى ورتبه على ٣٤ باباً فى أصل تسمية مصر بمصر ، وفى ذكر نيلها وفيما يعمل فى أراضيها من حفر الترع والجسور وعمارتهما لأجل ضبط ماء النيل وتصريفه فى أوقاته ، وذكر الأهرامات والجبال والمدائن وذكر ملوكها قبل الإسلام وشهور القبط وأعيادهم وذكر مدينة القسطنطين وفتح مصر واختطاطها وولاتها وخلقاتها وفتحها فى زمن السلطان سليم ، ثم أتى على ذكر نواب الدولة العثمانية وأتبع ذلك بجماعة تشتمل على قضاة مصر من حين فتحها إلى زمن المرحوم زين العابدين أفندى المتوفى فى شهر شوال سنة ١٠٥٦ هـ وفى ذكر ما كانت عليه القاهرة قبل وضعها وفتحها وعلى ذكر أبواب القصرين الكبير والصغير والمشهد الحسينى وما كانت تفعله الخلفاء الفاطميون فى أيام عاشوراء وذكر الحارات والدروب والأزقة والخوخ والرحاب والدور والحمامات والحانات والقنادق والأسواق والسويقات والأحكار والخلجان التى بظواهرها والقناطر والجزائر والجسور والزوايا والمساجد الجامعة والمدارس والمؤسسات ٥٠١ .

## ثالثاً - الرحالة :

كان أغلب الجغرافيين والمؤرخين العرب رحالة ، وكانت الرحلة لازمة لجمع المعلومات التى يضمنونها مؤلفاتهم . أما ما نقصده هنا بالرحالة فهم أولئك الذين قاموا برحلاتهم لأسباب غير جمع المعلومات ، مثل الحج أو السياحة وحب الأسفار والمغامرة ، ثم يدونون ما يشهدون وما ارتسم فى أذهانهم وانطبع فى نفوسهم عن الأشخاص والأماكن التى مروا بها ، فمؤلفاتهم صور لانطباعاتهم أكثر منها كتب فى تقويم البلدان والجغرافيا .

ومعظم الرحالة العرب كانوا من المغاربة ، إذ كان كثير من الحجاج القادمين من الأندلس والمغرب يزورون مصر والشام فى طريقهم إلى الحجاز ثم يتجهزون هذه الفرصة للطواف فى بعض الأقاليم الإسلامية الأخرى ، بل قد يدفعهم حب المغامرة إلى تجاوز حدود الدولة الإسلامية نفسها إلى غيرها من الدول . ومن أشهر الرحالة على الإطلاق ابن جبير وابن بطوطة .

١ - عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى : مؤلف كتاب « أخبار النوبة والمقرة

---

(١) يوجد نسخة مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة رقم ٤٥٧ جغرافيا من وقف على مبارك .

وعلوة والبجة والنيل ١ « وهو كتاب لو وصلنا لكان من الممكن أن يكون وصف شاهد عيان له أهمية عن النيل والشعوب المقيمة على ضفتيه . وكل ما وصلنا من هذا المؤلف مقتطفات أوردها المقریزی فی كتابه الخطط كما أوردها ابن عبد السلام المنوفی فی مخطوطه . ومما أورده المقریزی يتضح أن ابن سليم وصل حتى موقع الخرطوم الحالية ، ووصف هذه المنطقة وصفاً دقيقاً .

ووصف ابن سليم على قلة ما وصلنا منه يعطينا صورة حية للمنطقة التي تقع جنوب أسوان وتمتد حتى النيل الأزرق ، من حيث جغرافيتها وحالتها الاجتماعية والعمرائية والسياسية وعلاقة هذه البلاد بمصر .

فهو يصف مجرى النيل وما يتعرض له من جنادل أشار هو إلى ثلاثة منها وذكر أنه من العسير اجتيازها إلا بصحبة دليل من أهل البلاد . كما يذكر تفاوت عرض المجرى من جهة لأخرى فعند مدينة تقوى مثلاً يضيق مجرى النيل حتى لا يزيد اتساعه عن خمسين ذراعاً ، وفي موضع آخر عند بقون يتسع حتى يصبح مسيرة خمس مراحل .

ويصف انحناء النيل الكبرى فيقول ٢ : « والنيل ينعطف من هذه النواحي — أي المنطقة بين دنقلة وأول علوة — إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر » .

ويذكر روافد النيل وأنها سبعة تأتي ستة منها من الشرق والسابع من الغرب . ويستطيع أن ننسب إلى ابن سليم أنه أول من ربط بين النيل والنيجر .

واهتم ابن سليم بذكر محاصيل هذه البلاد وطيورها وحيوانها ، وحياة أهلها وطرق معيشتهم . والطرق الموصلة من هذه البلاد إلى سواكن وسواحل البحر الأحمر . ويذكر أن المنطقة التي تقع بين أسوان وشمال دنقلة ويسكنها المريس ، يغلب على أهلها شظف العيش ومشقة الحياة فيها لصعوبة زراعة أرضها ، وأن أغلب طعامهم السمك . أما أرض المقررة — التي تمتد حتى أول علوة — فأكثر خصباً وثراء وأحسن عمارة وإن كانت علوة تفوقها في ثرائها وخصبها وإن كان أهلها أقل تحضراً .

كذلك اهتم بذكر الأجناس المختلفة التي تسكن أهل هذه البلاد وعلاقتها بهم ، فذكر قوماً من البجة يعرفون بالرنائج ، والديجيون والبازة .

(١) المقریزی : الخطط ج ١ ص ١٩٠ .

ويقال إن ابن سليم كتب مؤلفه هذا فيما بين سنتي ٩٧٥-٩٩٦ م — انظر :

Macmichael; A History of the Arabs in The Sudan p. 169

(٢) انظر المقریزی الخطط ج ١ ص ١٩١ .

ويتضح مما ذكره ابن سليم ، أنه كان للمصريين امتيازات في الجزء الذي يقع بين أسوان ووادي حلفا ، إذ كان لهم الحق في تملك الأراضي في النصف الشمالي والاتجار حتى آخر هذه المنطقة . وإن كان دخول المناطق الواقعة إلى الجنوب من ذلك محرماً على أى إنسان إلا بإذن والى المنطقة الذي كان — كما يقول ابن سليم — من أجل ولائهم لقربه من أرض الإسلام .

ومعلوماتنا عن تاريخ حياة ابن سليم قليلة ، ويقال ١ إن جوهر الصقلي

E.T. ; art Al Nil (١)

Trimingham ; Islam in the Sudan. p. 60.

وذكر المقرئ في المقي ٢٢٧ نسخة مصورة بدار الكتب برقم تاريخ ٥٢٧٢ ص ٢٢٧ من ابن عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني بعثه القائد جوهر بكتابه إلى قيرقي مملك النوبة يعرض فيه عليه الإسلام ويستأدى منه ما عليه من البقط فدعاه إلى الإسلام بحضرة شاهدين أخرجا معه فكبر ذلك عليه وجمع علماء وأساقفته وأحضر ابن سليم للمناظرة وقرأ عليه كتاباً جواباً عن الكتاب الوارد معه يدعو جوهر إلى النصرانية ويحتج فيه كما احتج عليه بنسخ الشرائع فطالت بينهما المناظرة ثم عاد إلى ذكر طاعته ومولاة أبيه وأخيه من قبل فأعلمه ابن سليم أن هذا الذي دعى إليه يوجب الشكر عليه لأنه اختار له ما اختار لنفسه ويجب أن يحمد الله على ما أولاه من إبقائه على ملكه لأن الإسلام لما ظهر أزال ملوكاً كباراً من الأكاسرة وغيرهم وأقر بها إليه أرض مصر فأيهما أكبر ؟ ملك مصر أم ملكه ؟ — فقال له : أما في الحال والمال فمصر وأما الرجال فنحن أكثر عدداً ومدداً ، فقال إن احتججت عليك بأن رجال مصر أكثر من رجالك ظلمتك في الاحتجاج لأنك تقول لي ؛ قد رأيت مصر ، وأما رجال في عامتهم وما ورأى من البلد الفلاني والفلاني فلم ترمهم ، غير أني احتج عليك بما لا يمكنك دفعه ، تعلم أن في الدنيا درجة فوق الملك ؟ قال : لا . قال : فإن ملك مصر بعث الله إليه موسى وهو من أجل الرسل يقول لفرعون : أنت ملك فيأبى عليه ويقول : بل أنا إله فما ظنك بملك يبلغ طغيانه إلى الخروج إلى هذا وقد أزاله المسلمون وملكوا أكثر كرامى النصرانية : مثل الإسكندرية وبيت المقدس وأنطاكية وغير ذلك من البلدان والأمصار ، فيجب أن تحمد الله على ما أعطاك وتشكره على ما حولك وبقائه عليك من نعمة عنك وورثك من تيجان أسلافك ففعل ذلك وأكثر للتذلل لله عز وجل والثناء عليه .

وصنف كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوه والبجة والنيل ومن عليه وقرب منه من غيرهم للعزير بالله أبي منصور تزار بن المعز لدين الله وقدمه إليه وفيه فوائد كثيرة وذكر فيه أنه حصل عيد الأضحى وهو عند مملك النوبة فخرج إلى ظاهر المدينة في نحو ستين من المسلمين ونشر بئدين عليهما : اسم المعز لدين الله ، وضرب الطبل والبوق وصلى بالجماعة صلاة العيد ، فأحب أولياء المملك من أصحابهم الإنكار عليه فأبى عليهم وقال : هذا رجل فارق أهله ووطنه في صلاح وهو يوم سرور يريد أن يتجمل ففعله هذا فلا أبخل عليه .



أرسله عام ( ٣٥٨ - ٣٥٩ هـ ٩٦٠ م ) إلى الملك جورج ملك النوبة يدعو فيه إلى دفع البقط له - أي جوهر - باعتباره حاكم مصر ، كما يدعو إلى اعتناق الإسلام .

٢ - ابن جبير - محمد ابن أحمد بن جبير ولد بمدينة بلنسية عام ( ٥٤٠ هـ - ١١٤٥ م ) ودرس الفقه والحديث ، ثم قام بثلاث رحلات إلى الشرق ، دون أخبار الرحلة الأولى منها في شبه مذكرات يومية . وفي رحلته الثالثة أقام في الإسكندرية وتوفي بها سنة ( ٦١٤ هـ - ١٢١٧ م ) وقد وصف في رحلته مشاهداته ودون آراءه وملاحظاته . وقد وصف مقياس النيل بالروضة كما رآه وذكر مقدار الزيادة التي تفي بحاجة البلاد .

٣ - عبد اللطيف البغدادي : موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي ، مفكر من أعلام عصره ، ولد ببغداد سنة ( ٨٥٥ هـ - ١١٦٢ م ) وبرز في أكثر من علم . وتنقل بين مصر والشام والعراق واتصل بصلاح الدين وغيره من الأمراء الأيوبيين ، وحضر إلى مصر بتوصية من القاضي الفاضل واشتغل بالتدريس بالأزهر وشاهد الغلاء الفاحش والقحط والوباء والشدة العظمى التي آلت بمصر على عهد الملك العادل الأيوبي فيما بين سنتي ٥٩٥ ، ٥٩٨ هـ ( ١١٩٨ - ١٢٠١ م ) والتي أشاعت فيها الدمار والرغبة .

وثنى البغدادي بمصر حتى سنة ( ٦٠٢ هـ - ١٢٠٥ م ) ثم قفل عائداً إلى بغداد ماراً ببيت المقدس والشام وبلاد الروم وتوفي ببغداد سنة ( ٦٢٩ هـ - ١٢٣٢ م ) .

[ ولم يصلنا من مؤلفات البغدادي في فروع العلم المختلفة إلا القليل . أما مؤلفه عن مصر « الإفادة والاعتبار » فهو ملخص لمؤلف آخر وضعه البغدادي عن مصر ولم يصلنا ، حيث يشير إلى ذلك في مقدمة هذا المختصر .

وكتاب الإفادة هذا على إيجازه يعتبر سفرأ كبير الأهمية إذ يقدم فيه بعض مشاهداته وتحقيقاته لخواص مصر وظواهرها ، فجاء مؤلفه نوعاً من الدراسة العلمية التي تمتاز بدقة الوصف وذكر مختلف الشئون العمرانية والاجتماعية فضلاً عن الاتجاه العلمي المنتظر من طبيب مثل البغدادي والذي يتجلى في كلامه على خواص مصر العامة ، وعلى ما تختص به من النبات والحيوان . ودقة ( البغدادي ) في الملاحظة تظهر في قوله عن أرض مصر إنها « رملية لا تصلح للزراعة ، لكنه يأتيها طين أسود علك فيه دسومة كثيرة يسمى الإبلينز يأتيها من بلاد السودان مختلطاً بماء النيل عند مدة فيستقر الطين وينضب الماء

فبحرث ويزرع ، وكل سنة يأتي طين جديد ، ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شيء منها ، كما يفعل في العراق والشام .

والكتاب عبارة عن مقالتين تتناول الأولى خواص مصر العامة ، وما تختص به من نبات وحيوان وآثار ومنشآت وأطعمة . أما المقالة الثانية فهي عن النيل والوباء الذي اجتاح مصر ، ونجده في هذه المقالة يتفوق على غيره بدقة البحث والوصف والتعليل الصادق ، وأنه عندما يتكلم عن النيل وزيادته يتناول هذا الموضوع بأسلوب الجغرافي العالم الذي يحاول أن يرجع الأسباب إلى مسبباتها . ووصفه للمجاعات التي شهدتها بنفسه - وإن كان يعطينا صورة رهيبة - يوضح مدى أثر النيل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد .

٤ - ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ، أشهر رحالة عربي على الإطلاق ، وأكثرهم طوافاً في الآفاق وأوفرهم نشاطاً واستيعاباً للأخبار ، وأشدّهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجول فيها .

ولد في طنجة في ١٤ من رجب سنة ٧٠٣ هـ ( ٢٤ من فبراير سنة ١٣٠٤ م ) وبدأ رحلاته بالحج عام ( ٧٢٥ هـ - ١٣٢٥ م ) حيث زار البلاد الإسلامية التي في طريقه إلى الحجاز ، ثم قام برحلات أخرى زار فيها بلاد العالم المعروفة . وكانت آخر رحلة له عام ٧٥٣ - ٧٥٤ هـ إلى بلاد الزنج ومنطقة نهر النيجر ثم رجع إلى مراکش حيث أتمى أخبار الرحلة التي البثت تسعاً وعشرين سنة على العالم محمد بن جزي الذي كتبها في أسلوب أدبي بعد تلخيص وترتيب وإضافة أشعار وتحقيق لبعض أجزاءها مستعيناً برحلة ابن جبير خاصة .

وكتاب ابن بطوطة « تحفة النظار » يمتاز على غيره من كتب الرحلات ، بأنه ليس كتاباً وصفيّاً للبلاد والجبال والأنهار التي رآها فحسب ، بل هو عبارة عن صفحة من التاريخ الاجتماعي الإسلامي ، كما كان ابن بطوطة يعنى بالنواحي الاقتصادية في مشاهداته فيذكر أهم ما يمتاز به المدن التي يزورها من منتجات زراعية وصناعية ، وقد وصف ابن بطوطة القاهرة والفسطاط والنيل وقال : « إن بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسكان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق . ١ »

وقد شارك ابن بطوطة الإدريس في الاعتقاد الخاطئ القائل بأن نهر النيجر فرع

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية - كذلك زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ١٢٦ انظر أيضاً رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٩

من النيل وقد رأى ابن بطوطة هذا النهر في رحلته الثالثة وظنه النيل وأنه ينحدر من هناك إلى بلاد النوبة .

#### رابعاً - كتاب الخراج ونظم الحكم :

وهم قوم كان لهم من مراكرهم في الدولة ما مكنهم من جميع معلوماتهم من التقارير والمكاتبات التي تحت أيديهم ، أو الأحداث التي شاركوا فيها أو شاهدوها وكانوا على علم بها ، أو استدعى عملهم أن يضعوا الشروط اللازم توفرها فيمن يقومون بهذا العمل ككتاب الإنشاء مثلاً .

ومعظم هذه الكتب يتناول مصر بوجه خاص ، كتنظيمها وإدارتها واقتصادياتها ونيلها ، وما إلى ذلك ، أو يتناول ناحية خاصة من الدولة الإسلامية كلها كالخراج .

#### ومن هؤلاء الكتاب :

١ - قدامة بن جعفر : أبو الفرج الكاتب البغدادي ، ولد نصرانياً وأسلم على يد الخليفة المكتفي (٢٨٩-٢٩٥ هـ - ٩٠٢-٩٠٦ م) ، وخدم في ديوان بغداد حيث كان قائماً بأمر حسابات الدخل سنة ٢٩٧ هـ تحت إمرة الوزير أبو الحسن بن الفرات . ويقال إن وفاته كانت سنة (٣٢٧ هـ - ٩٥٨ م) وإن كان ياقوت الحموي يأخذ هذا بحذر لأن هذا التاريخ مأخوذ عن ابن الجوزي الذي يتهمة بكثرة التخليط .

وبرع قدامة في صناعتي البلاغة والحساب ، وألف بعض الكتب أشهرها كتاب « الخراج وصناعة الكتابة » ، الذي بدأه بذكر أقسام الإمبراطورية وتنظيم البريد ، كما يذكر خراج كل إقليم ، وتناول في أثناء كلامه عن مصر نهر النيل وإن لم يخرج عما قاله الخوارزمي . ولكن قدامة هو أول من حدد مخرج خليج الإسكندرية من فرع رشيد ولذلك أهميته الكبرى إذ إن مكان خروج هذا الخليج قد تغير أكثر من مرة في أوقات مختلفة وهو بذلك يحدد لنا أول نقطة بدأ منها هذا الخليج في العصر العربي .

٢ - القاضي الفاضل : أبو علي عبد الرحيم بن الحسن اللخمي البيسانى العسقلاني ، وزير صلاح الدين . ولد عام (٥٢٩ هـ - ١١٣٥ م) في عسقلان ، وقد تولى كثيراً من الوظائف ، حتى إذا ماتولى صلاح الدين مقاليد الأمور بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة (٥٦٧ هـ - ١١٧٢ م) صار القاضي الفاضل يده اليمنى في شئون الجيش والضرائب والإدارة بوجه عام ، وقد لازم السلطان إلى أن توفي فالتحق بخدمة ابنه العزيز ثم اعتزل العمل ومات سنة (٥٩٦ هـ - ١٢٠٠ م) .

---

(١) فيليب حتى وآخرون تاريخ العرب ج٢ ص ٤٧٠ .



ومن مؤلفاته كتاب « المياومات » أو « المتجددات » وهو أشبه ما يكون بالنشرات الرسمية أو المذكرات الشخصية ، وقد نقل المقریزی فقرات كثيرة منها في كتابه الخطط . وفي هذه المتجددات يورد معلومات هامة ودقيقة عن نظم الحكم والإدارة والمالية والجيش في مصر تحت حكم صلاح الدين .

٣ - ابن مماتي : أبو المكارم اسعد بن مهذب بن أبي مليح مماتي ، أصله من نصارى أسيوط ، أسلم أبوه على يد شيركوه . وقد تولى أبو المكارم ديوان الجيش في عهد صلاح الدين وابنه العزيز كما ولي نظر الدواوين أيضاً ونال حظوة لدى القاضي الفاضل . ثم هرب إلى حلب في عهد الملك العادل وظل بها حتى مات سنة (٦٠٦ هـ - ١٢٠٩ م) .

وأعظم مؤلفات ابن مماتي « قوانين الدولة » يقول المقریزی إنه ألفه للملك العزيز وكان في أربعة أجزاء ضخمة ، وأن الذي يقع في أيدي الناس جزء واحد اختصر منه .

وهذا الكتاب يصف لنا حالة مصر في القرن السادس الهجري ، ويعتبر وثيقة من أهم الوثائق عن حال الزراعة ونظم الدواوين المصرية في عهد الدولة الأيوبية . وتتناول موضوعات الكتاب جغرافية مصر ونهر النيل والخلجان والترع وشئون الزراعة في البلاد وأنواع الأراضي ونظام الري بتوسع وإفاضة ، كما تعرض بالتفصيل لذكر الخراج ومقداره والقائمين بأمره .

وقد رتب ابن مماتي كتابه على خمسة عشر باباً ١ ، في فضل الكتابة والكتاب وذكر مصر ونيلها وجملتها أعمالها وتفاصيل نواحيها ، وأحكام أرضها وتفاوت قيمتها ، وذكر خلجانها وترعها وجسورها ، وأصناف مزارعها وأحكام مستغلاتها ، وفي المساحة وأحكامها ورسومها ، وفي أسماء المستخلمين حملة الأقاليم وما يلزم كلا منهم ، وفي ذكر ما استقر من المعاملات السلطانية والجهات الديوانية ، وفي ذكر السنة الشمسية والسنة القمرية ، وفي أنواع الحسابات وكيفية نظمها والطريق إلى استيفائها ، وفي ذكر ما استقر في الدولة الأيوبية من الدواوين وما يتعلق بها وفي أقسام الكلام المشور ، وفي إشارة إلى أنواع من الوراقة المضطر إليها الكتاب ، ثم الباب الأخير في مختصر أصول الحساب ولكن الأبواب الخمسة الأخيرة ساقطة من الكتاب أما الأبواب التي تتعلق بموضوعنا فهي الباب الثاني والباب الرابع والباب الخامس والباب السادس والباب السابع .

٤ - أبو عثمان النابلسي الصفدي الشافعي : عاش في أواسط القرن السابع

(١) انظر مقدمة المؤلف .

للهجرة ، استكتبه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ثم أمره بالنظر في بلاد الفيوم وأعمالها سنة ٦٤١ هـ فصنف كتابه « تاريخ الفيوم وبلاده » في هذه السنة وراجعه سنة ٦٤٢ هـ وجعله برسم خزانة الصالح نجم الدين . ويعتقد الدكتور مورتس الذي كتب مقدمة هذا الكتاب بالفرنسية أنه على ما يظهر تقرير وضعه المؤلف وقدمه إلى الملك الصالح بعد سياحته معه وتسلمه إدارة الإقليم منه . والكتاب مقسم إلى عشرة أبواب وصف فيها الإقليم وأهله وبلاده وأرضه . وخلصاته وترعه . وقد وصف خليج المنهى وسفه الرأى القائل بأن يوسف الصديق قد حفره بالوحى . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه رجل مسئول يكتب عن دراية وخبرة .

٥ - ابن الجيعان : الشيخ شرف الدين يحيى بن المقر بن الجيعان مستوفى ديوان الجيش والمتوفى سنة ٨٨٥ هـ ١ . ألف كتابه (التحفة السنية) ذاكرًا فيه ما بإقليم مصر من البلدان ومساحتها بالأفدنة وعبرة كل بلد وخراجها مبتدئًا بالوجه البحرى على ما استقرت عليه الحال في سنة ٧٧٧ هـ في عهد الملك الأشرف شعبان . ويعتقد كثيرون وعلى رأسهم ناشر الكتاب دكتور مورتس أن ما أورده ابن الجيعان هو بيان تفصيلي للروك الناصرى وليس روكًا آخر عمل في عهد الأشرف شعبان . ومهما يكن فهو وثيقة تبين حالة البلد المالية في ذلك العهد .

٦ - الغزولى : علاء الدين على بن عبد الله البهائى الغزولى الدمشقى المتوفى سنة ٨١٥ هـ . وقد ألف الغزولى كتاب « مطالع البدور فى منازل السرور » واصفًا فيه دار الملك ونظامها . وقد تعرض فيه لوصف النيل وصفًا مختصرًا إلا أنه ذكر محاولة للملك الصالح نجم الدين أيوب لكشف منابع النيل وهى أول محاولة عربية تذكرها المراجع العربية وقد يكون لها نصيب من الصحة .

٧ - القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله ولد سنة ٧٥٦ هـ واشتغل بالفقه والأدب ثم التحق بديوان الإنشاء سنة ٧٩١ هـ حيث بدأ فى تأليف كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » وفرغ من تأليفه فى ٢٨ من شوال سنة ٨١٤ هـ . وتوفى سنة ( ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م ) .

وقد ألف القلقشندى كتابه هذا ليكون دليلًا لكتاب الإنشاء ، وليبين الشروط الواجب توفرها فيمن يلى عملاً من أعمال هذا الديوان ومن أهمها أن يكون أديباً حسن الخط عالماً بالأحوال السياسية ملماً بالتاريخ والجغرافيا عارفاً بالزراعة والتجارة. الخ

### الفصل الثالث

## النيل في كتب الأدب

احتل النيل من الأدب العالمي مكانة ممتازة منذ أقدم العصور ، بل منذ بدأ الإنسان يعبر عن إنفعالاته وأحاسيسه في صور شعرية أو نثرية . فكان النيل — وما زال — مصدر إلهام لكثير من رواد الأدب كأهم مظهر من مظاهر الطبيعة يتمثل أمام ناظرهم .

ولا تقف شهرة النيل على كونه أطول الأنهار وأكبرها فقط ، بل لأنه النهر الذي أحيا بلداً وأوجد لها من العدم ، خصها بنفحة وعمها بنخيره . على ضفافه نشأت أولى الحضارات ومن واديه انبثق النور الذي أثار للبشرية الطريق في سيرها إلى الأمام .

فلا عجب أن عبده المصريون وأهلوه ومجدوه في أناشيدهم ، وكما شغل أذهان المصريين فقد شغل كذلك غيرهم من الأمم كاليونان والرومان والعرب ، بل إنه احتل مكانة ممتازة في كثير من الآداب الأوربية في العصر الحديث .

وإذا تناولنا علاقة الأدب العربي بالنيل نجد أنفسنا مضطرين إلى تقسيمه تقسيماً يغير ما جرى عليه عرف المؤرخين للأدب ، إذ إن تقسيمنا سينبني على مدى اهتمام الأدب بالنيل والأغراض التي استعمل فيها .

وعلى ذلك سنقسم الأدب العربي إلى فترات ثلاث ، الفترة الأولى وتمتد من قبيل الفتح العربي حتى الفتح الفاطمي ، والثانية تشمل عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين والفترة الثالثة هي الفترة التي نعيش فيها الآن أي العصر الحاضر .

والفترة الأولى هي بلا شك العصر الذهبي للأدب العربي وخاصة الشعر : امتاز بفحول الشعراء والكتاب . ولكننا مع ذلك نجد الأدب العربي في هذه الفترة يتجاهل النيل إلا فيما ندر ، وحتى في هذا القليل النادر لم يأت ذكر النيل إلا عرضاً . ولعل السبب راجع إلى أن أغلب هؤلاء الشعراء جاءوا إلى مصر لغرض هو المدح وانتظار العطاء فلم يشغلهم النيل كثيراً قدر ما شغلهم بريق الذهب المنتظر . فلم تعد القصائد التي ورد فيها اسم النيل أصابع اليدين .



وأقدم ما ورد في النيل من أشعار ما ذكره الأعشى في مدح قيس بن معد يكرب  
قائلاً إن الممدوح أجود من النيل الزاخر بالخير ١ .

ما النيل أصبح زاخراً من مده جادت له ريح الصبا فجرى لها  
زبداء ببابل فهو يسقى أهلها رغدا تفجره النيط خلاها  
يوماً بأجود نائلاً منه إذا نفس البخيل تجهمت لسؤالها  
وللأعشى أيضاً في مدح إياس بن قبيصة الطائي :

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه ولا بحر بأنقيا إذا راح مفعما  
بأجود منه نائلاً أن بعضهم إذا مثل المعروف صد وجمجما ٢  
ولما ولي عبد العزيز بن مروان مصر ، ملحه نصيب بن رباح ٣ مبشراً أهل  
مصر بقدم نيل آخر عليهم فيقول :

فبشر أهل مصر فقد أتاهم مع النيل الذي في مصر نيل ٤  
ويصف الأحوص ٥ اتساع الدولة وامتدادها في عهد الأمويين فيقول عن  
الخليفة :-

(١) انظر ديوان الأعشى الكبير تحقيق دكتور محمد حسين قصيدة ٢٢-٢٤ .  
بالرغم من أنه ليس هناك علاقة بين نيل مصر وبابل إلا أن الشاعر يقصد بلا شك نيل مصر . حقيقة  
هناك نيلان آخران أحدهما حفرة الحجاج بالكوفة والآخر حفرة الرشيد بالرقعة . وواضح أنهما  
حقرا بعد زمن الشاعر ( ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٨٦١-٨٦٢ ) . وقد نسبت بعض الكتاب  
العرب البيت الأول لعمر بن معد يكرب - انظر المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦١ .  
والأعشى هو ميمون بن قيس شاعر جاهلي أدرك الإسلام في آخر عمره ويعرف بصناعة العرب  
( ابن قتيبة - الشعر والشعراء تحقيق أحمد محمد شاكر . ج ١ ص ٢١٢ ) .  
(٢) ديوان الأعشى قصيدة ٥٥ ويذكر الناشر أيضاً « وقيل في مدح قيس بن معد يكرب »  
وذكر ياقوت في معجم البلدان طبعة ليبزج ج ١ ص ٨٣ أنها قيلت في قصة إبراهيم الخليل مع  
أهل بأنقيا بالكوفة .  
(٣) نصيب بن رباح ( توفي سنة ١٨٠ هـ ) كان عبداً أسود لرجل من أهل وادي القرى  
فكاتب على نفسه ثم أتى عبد العزيز بن مروان فقال فيه مدحة فوصله واشترى ولده . وقال آخرون :  
كان من بل من قضاة وكانت أمه أمة سوداء فوقع بها سيدها فأولدها نصيباً ، فوثب عليه عمه بعد  
موت أبيه فاستعبده ثم باعه بن عبد العزيز بن مروان وكان يكنى أبا الحجناء . ( ابن قتيبة ، الشعر  
والشعراء ج ١ ص ٢٧١ ) .

(٤) أبو الفرج الأصبهاني « الأغاني » ج ١ ص ٣٥٢ .  
(٥) الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح شاعر أموي مدح الوليد  
ويزيد وعمر بن عبد العزيز كما مدح عبد العزيز بن مروان .

يجي له بلخ ودجلة كلها وله الفرات وما سقى والنيل ١  
وأبو نواس ذلك الشاعر الذي دان له الشعر ، زار مصر ومكث بها مدة إلا أن  
لم يذكر النيل إلا في مناسبتين : الأولى في إحدى مدائحه للخصيب يشبهه فيها بالنيل  
وأنهما يغمران مصر بالخير والنعمة فيخاطبه .

أنت الخصيب وهذه مصر فتدققا فكلكما بحر  
النيل ينعش ماؤه مصرا ونذاك ينعش أهله الغمر ٢  
ولكنه في مناسبة أخرى يظهر بغضه للنيل حين حذر من تماسيحه .  
اضمرت للنيل هجراناً ومقلية مذل قبل لي إنما التمساح في النيل  
فمن رأى النيل رأى العين من كتب فما أرى النيل إلا في البواقيل ٣  
وأورد ابن الفقيه ٤ شعراً قيل في المفاضلة بين عيون جبل أروند والنيل ومنه :  
قالوا ترى النيل في مصر فتألفه إذا ترامى على آذيه الزبد  
فقلت أحسن من نيل بمصر كم ماء العيون على الرخراض يطرد  
في جانبه رياض الزهر زينها نسيم نوارها والطائر الفرد  
وذكر المسعودي ٥ بيتاً قاله أحد الشعراء يصف جريان النيل من الجنوب للشمال :  
مصر ومصر شأنها عجيب ونيلها تجري به الجنوب  
ومما ذكرنا نرى أن الأشعار التي ذكر فيها النيل في الفترة السابقة للفاطميين قليلة  
كما أنه لم يكن غرضها الأسامي . وإذا كان هذا حظه من الشعر فحظه من النثر أقل .  
على أنه قبل أن نترك هذه الفترة لا يفوتنا أن نورد الخطاب - الذي قيل إن عمرو بن  
العاص أرسله إلى الخليفة عمر يصف فيه مصر وإنه « ينحط وسطها نيل مبارك الغدوات  
ميمون الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان ، يدر  
حلابه ويكثر فيه ذبابه ، تمدد عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما أصلحتم عجابه  
وتعظمت أمواجه فاض على جانبه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض  
إلا في صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كآهن في الخايل ورق الأصائل ،

(١) ابن خرداذبة « مسالك الممالك » ص ٣٣

(٢) ديوان أبو نواس - قصيده مجلس السرور ص ٤٧٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٦١ والبواقيل : جمع بوقال وهو كوز بلا عروة .

(٤) مختصر كتاب البلدان ص ٢٢٥

(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦١ . ولم يذكر اسم الشاعر الذي قال هذا البيت .

فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كأول مابدأ في جريته ، وطما في درته ، فعند ذلك يخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة يحرقون بطون الأرض ويبدرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ..... فإذا أحرق الزرع ، وأشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحت الأرض ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة يبضاء إذا هي عنبرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء فإذا هي دياجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء . ١٥٠ هـ ١

وكاتب هذا الخطاب استطاع في وصفه هذا أن يظهر الأثر الكبير الذي للنيل في مصر فهو حياتها وجالب خصبها . كما أبدع في وصف الفيضان الذي يغمر البلاد فلا سبيل للوصول من مكان لآخر إلا في القوارب ، حتى إذا تكاملت زيادته وتم وفاؤه عاد إلى النقصان مرة أخرى فهو في ذلك كالقمر يتلرج من محاق إلى بدر ليعود كما بدأ ، ولكل منهما في زيادته ونقصانه أوان لا يجيد عنه . ثم يبين نشاط فلاحي مصر في زراعة الأرض ويصف اختلاف منظر الأرض باختلاف الفصول ... الخ .

والشك يحيط بصحة نسبة هذا الخطاب إلى عمرو ، هذا وإن كان الدكتور بتلر يعتقد في صحة هذا الخطاب ويرى أن « هذا الوصف آية دالة على عمرو يبدو فيها شاعراً معسول القول وحاكماً عظيم الكياسة » ٢

إلا أن الدكتور محمد كامل حسين يقول ٣ « ولكنا نشك في نسبة هذا الخطاب إلى عمرو بن العاص لأننا إذا قارنا بين هذه الرسالة وبين ما رواه الأدباء والمؤرخون من أحاديث عمرو يتبين لنا أنها لم تصدر عنه ، ثم هناك ناحية فنية خالصة ذلك أن كتاب هذا العصر اعتادوا أن يبدأوا رسائلهم بحمد الله ، أما في هذه الرسالة فشذ الكتاب عن هذه القاعدة ولم يحمد الله . ثم نرى كاتب الرسالة يبدوها بالدعاء لأمير المؤمنين وهذا لم نره في رسائل هذا العصر أيضاً ، بل جاء الدعاء للخليفة في الرسائل متأخراً جداً . وقد رأينا هذه الرسالة تشتمل على فقرات قصيرة مسجوعة ، يظهر فيها أثر الصنعة الفنية التي لم يعرفها العرب في صدر الإسلام أو أيام الأمويين ، بل جاءت نتيجة لتطور الحياة الفكرية عند العرب وامتزاجهم بغيرهم من الشعوب الأخرى فاختلقت الكتابة العربية بدخول الثقافة الأجنبية في العربية » ٤ .

ويمكننا أن نضيف قرينة أخرى هي أن هذا الخطاب لم يرد في المراجع القرينة

---

(١) ابن تقي بردي « النجوم الزاهرة » ج ١ ص ٢٢ .

(٢) فتح العرب لمصر ص ٣٧٦ .

(٣) « أدب مصر الإسلامية عصر الولاة » ص ٩٨ - ٩٩ .

من عهد عمرو مثل الطبرى وابن عبد الحكم وابن الأثير وغيرهم ، بل ورد في مراجع متأخرة مثل مؤلف الدمشقي شيخ الربوة في القرن الثامن الهجرى ١ .

وفي العصر الفاطمي صارت مصر كرمى خلافة تنافس الخلافة العباسية ببغداد في كل شيء . وجعل الخلفاء الجدد من القاهرة كعبة للعلوم والآداب ، ومركزاً من مراكز الحضارة ورأوا في الشعر خير داعية لهم ووسيلة لنشر مذهبهم وتأيد سلطانهم ، علاوة على أنهم أنفسهم كانوا يحبون الشعر ويتلقون به بل إن منهم شعراء مجيدين كتميم ابن المعز . لذلك اهتموا بالشعراء وأغدقوا عليهم وأجزلوا لهم العطاء وكثرت في أيامهم المواسم والأعياد التي كانت مجالاً فسيحاً للشعر ، فالتف حولهم الشعراء وقصدهم في مختلف بلاد العالم الإسلامي لاسيما من المغرب .

وكان لذلك أثره في ظهور فئة كبيرة من الشعراء المصريين الذين حفلت بهم مصر حتى نهاية عصر المماليك . وأحس هؤلاء بالنيل فنظموا فيه الكثير من الأشعار في مختلف الأغراض كالشوق والمدح والوصف إلى آخره .

والمجال هنا لا يتسع إلا لإيراد بعض الأمثلة التي تظهر مدى إحساس هؤلاء الشعراء بالنيل في مختلف النواحي والأغراض التي عالجوها في شعرهم . *وإذا جئت من النيل فليكن مني* . وأول ما نحسه اعتزاز المصريين بنهرهم وتفضيله على غيره من الأنهار وأنه يخرج من الجنة . فيقول الشاعر : ٢

ونيل مصر من الجنان وماؤه عجي العُـضـون  
فبالعيون إن قايسوه قل ما ترى مثله العيون  
ويفخر ابن فضل الله العمري بمصر ونيلها قائلاً :

يحق لمصر أن تتيه إذا جرى بها النيل وامتدت إليه عيون  
فما مثله من زائر لقدمه تفر عيون إذ تفر عيون  
ويقول ثالث ٣ مفاخرأ بمصر لأن بها السلطان والنيل :

إذا البلاد افتخرت لم تزل مصر لها عز وتفضيل  
وكيف لا تفخر مصر وفي أرجائها السلطان والنيل

---

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ١٠٩ .

(٢) نقلاً عن ابن إياس ، بدائع الزهور المطبعة الأميرية ص ٢٠ . وهو لم يعين اسم الشاعر .

(٣) نقلاً عن ابن إياس ، بدائع الزهور طبع بولاق ص ٨ - ولم يعين كذلك اسم الشاعر .



كما تمثل الحنين والشوق في كثير من الأشعار ، فالشريف العقيلي ١ ، يحن إلى  
لفسقاط في قوله :

أحن إلى الفسقاط شوقاً وإنني      لأدعوها ألا يحل بها القطر  
وهل في الحيا من حاجة لحنائها      وفي كل قطر من جوانبها نهر  
تبدت عروساً والمقطم تاجها      ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

ويستحضر البهاء زهير (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ) صور الأيام الجميلة التي قضاها  
على شاطئ النيل ، ويجدها خير زاد لحنينه وشوقه وهو بعيد عن مصر ، فيقول ٢ :

فرعى الله عهد مصر وحيا      ماضى لي بمصر من أوقات  
حبذا النيل والمراكب فيه      مصعدات بنا ومنحدرات  
هات زدني من الحديث على النيل      ودعني من دجلة والفرات  
وليلي بالجزيرة والجيب      زة فيما اشتيت من لذات  
بين روض حكى ظهور الطواوي      من وجو حكى بطون البزاة  
حيث يجري النيل كالحبة الرق      طاء بين الرياض والحنات  
ويقول أيضاً ٣ :

حبذا دور على النيل وكاسات تـ      دور  
ومسرات تموج الـ      أرض فيها وتمور  
وجمال الدين بن نباته المصري (المتوفى سنة ٧٦٨ هـ) يقول متشوقاً إلى مصر ٤ :  
قسماً ما حلت عن عهد الوفاء      بعد مصر لا ولا نيل مصر بكائي  
حبها تحتي وفوق ويميني      وشمالى وأمامي وورائى  
ويقول في قصيدة أخرى :

يا سارى البرق في آفاق مصر لقد      أذكرتني من زمان النيل ما عذبا

---

(١) أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدرة بن محمد بن عبد الله بن محمد العقيلي . عاش في  
النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس وقد شهد عهد الخليفة  
الحاكم ويعرف بشاعر الطبيعة والخمر .

(٢) ديوان البهاء زهير ص ٣٠-٣١

(٣) » » » ص ٨٧

(٤) ديوان ابن نباته ص ١٦

حدث عن البحر أو دمعي ولا حرج وانتقل عن النار أو قلبي ولا كذبا ١  
أما في العصر العثماني فنجد أحمد بن محمد بن شهاب الدين الخفاجي (متوفى  
سنة ١٠٦٩ هـ - سنة ١٦٥٩ م) يحن إلى مصر قائلا :

إن وجدى بمصر وجد مقيم وحنينى كما ترون حنينى  
لم يزل فى خيالى النيل حتى زاد عن فكرتى قفاضت عيونى ٢  
فإذا انتقلنا للمدح نجد الكثير من القصائد التى شبه فيها الشعراء ومدوحهم بالنيل فى  
العطاء والكرم ، أو أن المدوح أكثر من النيل عطاء وبدلاً إلى غير ذلك من أغراض المدح :  
فعندما سار جواهر الصقلي لفتح مصر سنة (٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م) مدحه ابن هانى  
الأندلسي ٣ مشبهاً له بالنيل ولكنه نيل لا يمن بنعمة فيسلبها منهم كما يفعل النيل فى  
بعض السنين بل نعمه فى ازدياد . فيقول فى قصيدته التى مطلعها :  
رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع وقد راعنى يوم من الحشر أروع  
ومنها :

رحلت إلى القسطنطينية بأمن رحلة بأمن قال فى الذى أنت مجمع  
فإن يك فى مصر رجال حلومها ٤ فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع  
ويعمهم من لا يغار بنعمة فيسلبهم لكن يزيد فيوسع ٥  
ومدح أبو الحسن على بن إبراهيم ٦ ، الأفضل ابن أمير الجيوش مشبهاً مصر  
بمكة والنيل بزمرم والوافدين إلى رحاب الأفضل بالحجيج .

(١) ديوان ابن نباته ص ٣١

(٢) تاريخ الأدب العربى - على الجارم وآخرون ص ١١٢

(٣) أبو القاسم محمد بن هانى الأزدى الأندلسي ، اتصل بالمعز ومدحه قتل سنة ٣٦٢ هـ  
سنة ٩٧٣ م .

(٤) وردت هذه الشطرة فى الديوان بهذا الشكل ولكنها وردت فى بعض المؤلفات العربية  
كالآتى : - فإن يك فى مصر ظماء لمورد فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع  
انظر المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٥) ديوان ابن هانى ص ٩ .

(٦) أبو الحسن على بن إبراهيم الملقب بابن العلاء من أهل معرة النعمان وقد اجتذبه إلى  
مصر جود الأفضل - ( الفاطميون فى مصر ص ١٦٤ ) ويقول أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت  
« الرسالة المصرية ص ٤٤ » ولم يقبل الأفضل على أحد من الشعراء كإقباله على رجل من أهل  
معرة النعمان يدعى أبا الحسن على بن جعفر بن التون فإنه أقاض عليه سحائب إحسانه وأدر  
له حلوبة أنعامه ولقبه بأمين الملك وأدناه واستخصه .

قمكة مصر والحجيج وفوده ويمناه ركن البيت والنيل زمزم ١  
ومن أجود قصائد المدح ما قاله كافي الدولة أبو العباس أحمد بن مفرج بين يدي  
الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٥-٥٤٤ هـ) في الاحتفال بكسر السد ٢

لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد للنيل أم لك يا ابن بنت محمد  
أم لاجتماعكما معاً في مـوطن وافيتما فيه لا صدق موعـد  
ليس اجتماع الخلق إلا للـدى حاز الفضيلة منكما في المـولد  
شكروا لكل منكما لوفائـه بالسعى لكن ميلهم للأجـود  
ويمدح ابن قلاقس ٣ (٥٣٢-٥٦٧ هـ - ١١٣٨-١١٧١ م) القاسم بن خليج  
قائلاً إن يديه أجود من النيل والفرات .

ويداه في العرب أغرب شيء ما ترى النيل منهما والفرات ٤  
ويمدح ابن الساعاتي ٥ الرسول صلوات الله عليه في قصيدته التي يعارض بها  
قصيدة : بانت سعاد

لولاه لم تك شمس ولا قمـر ولا الفرات وجاراها ولا النيل ٦  
وله في المدح أيضاً :

جرى نيله ردفاً لنيل بنانـه وسال إلى أن ليس يوجد سائله  
أي أن جرى نهر النيل مرادفاً لنيل كرمه وسال حتى لم يبق سائل محتاج ٧ .  
ويقول في رثائه الظهير الحبشي إن وجه مصر صار عابساً ونيلها أصبح آجناً أسناً .  
فوجهه الطلق عندي عابس ترب ونيله العذب مثل الآجن الأسن ٨

---

(١) حسن إبراهيم حسن « الفاطميون في مصر » ص ١٦٤ .

(٢) المقرئزي الخطط ج ١ ص ٤٧٨ وانظر أيضاً محمد كامل حسين « في أدب مصر  
الفاطمية » ص ١٦٧-١٦٨ .

(٣) هو أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس اللخمي  
الإسكندري ولقب بالقاضي الأعز .

(٤) ديوان ابن قلاقس نشر خليل مطران سنة ١٩٠٥ ص ١٩

(٥) بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم بن هرذوز الحراساني ٥٥٣-٦٠٤ هـ - ١١٥٩-١٢٠٩ م

(٦) ديوان ابن الساعاتي - تحقيق أنيس المقلسي بيروت سنة ١٩٣٨ ج ١ ص ٤٨

(٧) ديوان ابن الساعاتي - تحقيق أنيس المقلسي بيروت سنة ١٩٣٨ ج ٢ ص ٤٠٠

(٨) ديوان ابن الساعاتي ج ١ ص ٢٨٩

ويعمدح أيدمر المحيوى ١ الملك الصالح نجم الدين أيوب عند تخليق المقياس فى قصيدة منها .

والنيل مضطرب القوارب مزيد صب إليك قواده متشوق  
لو يستطيع سعى ققيل راحة هو فى السماح بخلقها يتخلق  
فرأيت منك ومنه مجرى رحمة يتباريان كلاهما يتدفق  
فمنحتهم نظراً وفضت عليهم نعماً فأنت بهذا وذا تتصدق  
أطعمتهم لما سنى فعليكمــــا رزق العباد كلاهما يسترزق  
لكن بينكما على ما فيكما من نسبة فى الجود فرقاً يفرق  
تحصى الأصابع جوده لحسابها لكن حساب نذاك ليس يحقق  
ويفيض ذا فى كل عام مرة وبجار جودك كل حين تفهق  
وينخص ذا قوماً وجودك يستوى فيه لديك مغرب ومشرق  
ونذاك لا من يكبدره وذا بمن فهو لأجل ذاك مرنق ٢

وفى المدح أيضاً ما قاله الجمال أبى الحسين الجزار ٣ من قصيدة يمدح بها صدر الدين عبد الرحمن بن القرمسنى وهو يومئذ ناظر ثغر الإسكندرية فى سنة ٦٢٨ هـ .

لك نيل\* قد أنجل النيل جودا وغدا دونه الفرات ودجله ٤

ويقول مهتاً ابن الفقيه نصر ٥ عند قدومه من بلاد الصعيد واتفق تخليق النيل (أى وقاؤه) عند وصوله إلى مصر ، ويقول إن زيادة النيل فى مصر ما هى إلا دموع أهل قوص لغراقه :

بكت قوص لما رمت عنها قرحلا فمن دمعها قد غلق النيل فى مصر ٦

---

(١) أيدمر المحيوى فخر الترك عتيق محى الدين محمد بن سعيد بن ثدى عاش فى منتصف القرن السابع .

(٢) مختار ديوان علم الدين أيدمر المحيوى - نشر دار الكتب سنة ١٩٣١ ص ٥-٦

(٣) جمال الدين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد المصرى توفى سنة ٦٧٩ هـ سنة ١٢٨٠ م أنظر خير الدين الزركلى ، الأعلام طبع سنة ١٩٢٨ ج ٣ ص ١١٥٠ السيوطى حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٤ .

(٤) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب السفر الرابع

(٥) هو البرهان ابن الفقيه نصر بن شعراء نصر ولى النظر على ديوان الخراج بالصعيد

(السيوطى حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٤) .

(٦) المرجع السابق ص ١٥٣ .





للأدباء ولع شديد بضروب البديع المعنوى واللفظى من تشبيه واستعارة وجناس وطباق ١ . وبالرغم من الأشعار الكثيرة التى قيلت فى النيل . عجز الشعراء عن إظهار صورة معبرة عن أثر النيل فى مصر وارتباط حياتها به .

وليس النثر بأحسن حالا من الشعر ولا أعمق فى إبراز الصورة التى يمكن أن تعطينا الشعور بقوة الإحساس وعمق الفكرة ، إنما هو كلف بالسجع وإظهار لموهبة الكتابة ليس إلا ، خصوصاً وأن أكثر ما لدينا من النثر كتب البشارة بوفاء النيل التى كان كتاب الإنشاء يجهدون أنفسهم فى حشوها بالزخرفة اللفظية والسجع المتكلف .

ويصف أبو الصلت ٢ أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت مصر وقد غمر أرضها ماء الفيضان وأعياد الوفاء ثم حالها بعد نضوب الماء وجمال مناظرها « ولكسرة يوم محدود ومقام مشهود ومجتمع غاص يحضره العام والخاص . وإذا كسر فتحت الترع - وهى فوهات الخلجان - ففاض الماء وساح وعم الغيطان والبطاح ، وانضم الناس إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل وهى على أكام وربى لا يتهى إليها الماء ، ولا يتسلط السيل عليها ، فتعود عند ذلك أرض مصر بأمرها بحراً غامراً لما بين جيلها المكتنفين لها . وثبتت على هذه الحال ريثما يبلغ الحد المحدود فى مشيئة الرب المعبود . وأكثر ذلك يحوم حول ثمانية عشر ذراعاً ثم يأخذ عائداً فى منصبه إلى مجرى النيل ومسربه ، فينضب أولاً عما كان من الأرض مشرفاً عالياً ، ويصير فيما كان منها متطامناً ، فيترك فى كل قرارة كالدرهم ، ويغادر كل تلة كالبرد المسهم . وفى هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شيء منظرأً ، ولا سيما مترياتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة كالجزيرة وبركة الحبش ، وما جرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة ، ويتأهبها ذوو الأدب والطرب .

واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافترشنا من زهرها أحسن بساط واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شمس فى خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على بلبن الماء ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء .. الخ ١

ومن الأوصاف التى قيلت فى النيل قول القاضى الفاضل :  
« النيل المصرى الذى يكسو الفضاء ثوباً فضياً ، ويدكى ماؤه فى الأرض سراجاً من النور مضياً ، ويتدافع تياره دافعاً فى صدر الجذب بيد من الحضب ، وترضع أمهات خلجانه المزارع فتأتى أبناؤها بالعصف والآب ٢ » .

(١) انظر ديوان ابن الساعاتى ص ٢٩ ، ٣٣ :

(٢) الرسالة المصرية ص ١٩ - ٢٠ :

(٣) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبيصار ج ١ ص ٦٧

ويصف الفيضان بقوله :

« وأما النيل المبارك فقد ملأ البقاع من الإصبع إلى الذراع فكانت غار على الأرض فغطاها وأغار عليها فاستقعدا وما تخطاها ، فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ولا مرغوب مرهوب إلا إياه ١ » .

ومن رسالة إلى زكي الدين الحسين أرسلها له أخوه من دمشق سنة ( ٧٦٢ هـ - ١٣٦١ م ) يصف فيضان النيل وأثره في مصر ٢ .

« وهلا ذكرتها وقد باكرها نيل النعيم بمغيثه ، بليل النسيم بكأس من تسنيمه وطما البحر عليها زائحاً فأغناها عن بكاء السحاب وتجهيمه ، وعم معظم أرضها وعب عيابه في طولها وعرضها حتى كاد يعلو رفيع قصورها ويتسور بسورته شامخ سورها ، ومع ذا لا تراه جسوراً على ضعف جسورها قد طبق التهاشم والأنجاد وغرق الآكام والوهاد وعلا أعلى الصعيد والصعاد وأعاد البر سلطانه بجرأ بالازدياد ، فإذا روى السهل والوعر والمضاب والوهاد ، وانجاب عنها فاهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج ، بدت روضة نضرة بإملاق مقطعة كزمردة خضراء بتلال مرصعة . فكم من غدير مستدير كبدر منير ودقيق مستطيل كسيف صقيل ، وكم من قليب قلاب بماء كجلاب وكم من عظيم بركة حركها النسيم بلطفه وطيبها عير عنبرها فضمخها بكفه .... »

وفي وصف عيد الوفاء وتخليق المقياس يقول الجلال السيوطي ٣ :

« وتختص الروضة من بين سائر الأقطار بيوم لها هو يوم عيد ، طالعها برج السنبلة والحوت للمشتري سعيد ، وهو يوم الزينة وما أدراك ما يوم الزينة ، يوم يحشر لها الناس ويحج فيه إلى المقياس وتطيب من تخليقه وتخليقه الأنفاس ، ويسبل فيه ستر الوفاء بالعفو وفي الحقيقة هو خلعة رضى ولباس ، وتكمد الحساد وتجتمع الأضداد فيحصل الصفا إذا انكدر والجبر إذا انكسر ، ويبلغ الخلق من النيل غايته النيل ويسحب الماء على بساط الأرض الذيل ، ويركب إليه الملك والجنود وتعقد الألوية والبنود ، ويكون للناس من مائه ولونه المحمر ورود . ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وله في كل سنة أجل معدود . »

---

(١) التويرى نهاية الأرب ج ١ ص ٢٨١

(٢) المقرئى الخطط ج ١ ص ٣٦٨-٣٦٩ وقد كان زكي الدين الحسين أرسل من مصر إلى أخيه بدمشق يلم مصر ويتشوق إلى دمشق ، فأرسل له أخوه من دمشق رسالة منها ما ذكره أعلاه .

(٣) بلبل الروضة نسخة دار الكتب ١٦-١٧ .

أما كتب البشارة التي كانت ترسل عن ديوان الإنشاء إلى النواب والولاة بالشام كل عام مبشرة بوفاء النيل ١ ، فهذه يوجد منها الكثير لذلك سنكتفي بأن نورد ثلاثاً منها من العصر الفاطمي والعصر الأيوبي والعصر المملوكي على التوالي .

فمن إنشاء ابن قادوس ٢ في العصر الفاطمي :

« النعم وإن كانت شاملة للأمم فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولها بشكر تنشر في الآفاق أعلامه ، واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه . نعمة يشترك في النفع بها العباد وتبدو بركتها على الناطق والصامت والجماد ، وتلك النعمة النيل المصري الذي تبرز به الأرض الجرز في أحسن الملابس ، وتظهر حال الرياض على القيعان والبساتين ، وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان ، فسبحان من جعله سبباً لإنشار الموات ، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات ، ووفره موارد الأرزاق والأقوات .

وهذا الأمر صادر إلى الأمير وقد من الله جل وعلا بوفاء النيل المبارك ، وخلع على القاضي فلان بن أبي الرداد في يوم كذا وكذا ، وطاف بالخلع والتشريفات والمواهب المضاعفات بالقاهرة المحروسة ومصر على جاري عادته وقديم سيرته . ونودي على الماء بوفائه ستة عشر ذراعاً وإصبعاً من سبعة عشر ذراعاً .

واستبشر بالنعمة بذلك الخلائق ، وواصلوا بالشكر مواصلة لا تستوقفهم عنها العوائق . وبدا من مسرات الأمم وانبهاجهم ما يضمن لهم الله المزيد ، وينيلهم المنال السعيد ، ويقضى لهم بالمآل الحميد . ٣ »

وكتب القاضي الفاضل باسم السلطان صلاح الدين الأيوبي مبشراً بالوفاء ٤ :

« نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغاً وأضفاها سبوغاً وأصفاها ينبوعاً وأسناها منفوعاً وأمدّها بحر مواهب وأختمها حسن عواقب ، النعمة بالنيل المصري الذي يبسط الآمال ويقبضها مده وجزره ويرمي النبات حجره ويحيي مطلقه الحيوان ويحني ثمرات

---

(١) يقول القلقشندي « صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٩ » وهذا الصنف من المكاتبات متداول بالديار المصرية إلى آخر وقت يكتب به في كل سنة عن الأبواب السلطانية إلى نواب السلطنة بالممالك الشامية عند وفاء النيل وتسير به البريدية ، وربما جى البريدى من الممالك شيء بسبب ذلك وإذا كانت الدولة عادلة ضمن الكتاب أنه لا يجب البريدى شيء بسبب ذلك .

(٢) محمود بن إسماعيل بن قادوس أبو الفتح النحيطي شيخ القاضي الفاضل مات سنة ٥٥٥هـ

(٣) (١١٥٦ م) (السيوطي حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٢) .

(٤) القلقشندي - صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٨ .

(٥) انظر السيوطي - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٣



الأرض صنوان وغير صنوان ، وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها ويوضح معنى قوله تعالى وبارك فيها وقدر فيها أقواتها .

وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا فأسفر وجه الأرض وإن كان تنقب وأمن يوم بشره من كان خائفاً يترقب ورأينا الإبانة عن لطائف الله حققت الظنون ووفت بالرزق المضمون إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

وقد أعلمناك لتستوفي حقه من الإذاعة وتبعده من الإضاعة وتتصرف على ما نعرفك من الطاعة وتشهر ما أورده البشير من البشري بإبانته .

وفي سلطنة الأشرف شعبان ، صدر الكتاب التالى عام ( ٧٦٦ هـ - ١٣٦٥ م ) ، وصورته بعد الصدر ١ :

« وبشره بأخصب عام وأخص مسرة هناؤها للوجود عام ، وأكمل نعمة تقابل العام من عيون الأرض بمزيد الإنعام .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجنب العالى تهدي إليه آمم سلام ، وأعم ثناء تام ، وتوضح لعلمه الكريم ، أن الله تعالى - وله الحمد - قد جرى في أمر النيل المبارك على عوائد الطافه ، ومنح عباده وبلاده من مديد نعمه مزيد إسعافه ، وأورد الآمال من جوده منهلاً عذباً ، وملاًها به إقبالاً وخصباً ، وأحيا به موات الأرض فاهترت وربت وأنبئت كل بهيج وأنجبت ، وأينعت الرياض فجرت فيها الروح ودبت ، وامتلات الحياض ففاضت بالمياه وانصببت . وطلع كالبلدر في ازدياده وتوالى على مديد الأرض بإمداده ، إلى أن بلغ حده ووصل الفرج ومنع الشدة .

وفي يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا وكذا من شهور القبط ، وفاه الله ستة عشر ذراعاً فاه فيها بالنجح ، وعم ثراه الأرض فأشرق بعد ليل الجذب بالرشاء أضواء صبح . وفي ذلك اليوم علق ستره وخلق مقياسه فاشتهر ذكره وكسر سده وتوالى مده ، ونجز من الحصب وعده ، وعلا الترع والجروف وقطع الطريق فأمن من الجذب المخوف ، وأقبل بوجهه الطلق المحيا وأسبل على الأرض لباس النفع فبد لها بعد الظمأ ريا ، فحمدنا الله تعالى على هذه النعم ورأينا أن يكون للجانب العالى أوفى نصيب من هذا الهناء الأعم وآثرنا إعلامه بذلك » .

ونخرج من مراجعة كتب البشارة هذه بما يأتي :

( ١ ) أصبح تحرير هذه الكتب تقليداً متبعاً منذ العهد الفاطمي حتى نهاية العصر المملوكي وكانت هذه الرسائل ترسل لحكام الأقاليم وبعض أجزاء الدولة الأخرى مثل الشام واليمن .

( ب ) يتضح منها مدى حفاوتهم بوفاء النيل واهتمامهم بالاحتفال به .

( ج ) هذه البشرية تعتبر إيلاداً يبدأ جمع الخراج في الأقاليم .

( د ) أن وفاء النيل يكون عند تمام الذراع السادس عشر في المتياس .

( هـ ) نلاحظ أنهم كانوا يذكرون التواريخ القبطية المقابلة للتواريخ الهجرية ، لأن الفيضان يتبع السنة الشمسية لا القمرية ...

وأتى على البلاد حين من الدهر فقد فيه الأدب مكانته وأخذ يتبدل إلى الحضيض وأصبح ضيق الأغراض ضعيف العبارة . وامتدت هذه الفترة من الفتح العثماني في القرن العاشر الهجري ( ١٦ م ) حتى القرن اسلث عشر الهجري ( ١٩ م ) حيث ظهرت الحركة العلمية والأدبية الحديثة واستعاد الأدب العربي مكانته السابقة . وعاد إلى الشعر جزائته وروعته وتعدد أغراضه ، وظهر من الشعراء من دان لهم الشعر وأسلس لهم قياده منهم البارودي وشوقي وحافظ وغيرهم كثير .

ومن شعر البارودي وهو بسرنديب يصف الروضة والنيل فيقول :-

ليت شعري متى أرى روضة المـد يـل ذات النخيل والأعـنـاب  
حيث تجرى السفين مستبقات فوق نهر مثل اللجين المـلـاب  
وفي قصيدة أخرى يصف النيل أيضاً والسفن البخارية فيه :

يستـن فيـها النيل بين حدائق غلب ورفاف النبات خصيب ١  
وترى السفين يحول فوق سراته زف الرئال تمطرت بهـوب ٢  
من كل راقصة على نقر الصبا تخنـال بين شمائل وجنوب ٣  
ملكـت أزمـتها الرياح فسيرهـا ضربان بين تحفـز وديب ٤

(١) يستن : يجري - غلب : جمع غلباء وهي الحديقة المتكاثفة المعنى ١ - النيل يجري بين حدائق متكاثفة وواد خصيب نضر النبات .

(٢) المرأة : أعلى كل شيء - الزف : الإسراع - الرئال : أولاد النعام

(٣) تمطرت : ذهبت .

(٤) التحفز : الاجتهاد في السير والإسراع .

فإذا أطلت عنانها وقتت وإن أقصرته سارت بغير لغوب ١  
وقال يصف روضة المقياس مشبهاً لها في كثرة أزهارها ونوارها وكأن نجوم السماء قد  
تناثرت في أرجائها وكان نوارها أقباس النار فلولاً الطل المتساقط لأحرقت الحماثل وأن  
كل ذلك من صنع النيل . فيقول :

هل في الخلاعة والصبأ من بام بين الخليج وروضة المقياس  
أرض كساهما النيل من إبداعه ولباسه الموشى أى لباس  
فكأنمما هوت الحجرة بينها فتشكلت في جملة الأغراس  
يتلهب التوار في أطرافها فتخاله قبساً من الأقباس  
لولاً مساس الطل أحرق ضوءه ذيل الحماثل رطبها والعاس

أما حافظ إبراهيم فإنه وإن ذكر النيل في أكثر من مائة بيت في ديوانه إلا أننا كنا  
نتنظر منه وهو شاعر النيل أن يخص النيل بقصيدة يصف لنا فيها متابعه ومجراه ومصبه  
ذاكراً فضله على البلاد وأثره في مصر مثلما فعل شوقي . وعلى كل فهو قد ذكر النيل  
في مختلف أغراض شعره ، سواء في المدح والثناء والوصف والشعر السياسي والاجتماعي  
إلى آخر هذه الأغراض .

وسنذكر أمثلة من أشعاره في مختلف أغراضه .

ففي المدح قال في قصيدة للخديوى عباس الثاني ٢ :

نظرت للنيل فاهترت جوانبه وفاض بالخير في سهل ووديان  
[يجرى على قدر في كل منحدر لم يحف أرضاً ولم يعمد لطغيان  
كأنه ورجال السرى تحرسه مملك سار في جند وأعوان  
قد كان يشكو ضياعاً مذ جرى طلقاً حتى أقمت له خزان أسوان

ويمدح محمد سعيد باشا ( رئيس الوزراء ) فيقول مخاطباً مصر : ٣

[فبك السعيدان اللذان تباريا يا مصر في الخيرات والبركات  
[نيل يفيض على سهولك رحمة وفي يبك غوائل العثرات

(١) لغوب : الإعياء والضعف والتعب .

(٢) ديوان حافظ ج ١ ص ٢٩

(٣) ديوان حافظ ج ١ ص ٥٥

ويقول في تحية أحمد شوقي سنة ١٩١٩ .

النيل قد ألقى إليه بسمعه — والماء أمسك فيه عن جريانه  
فاصده وغن النيل واهرز عطفه يكفيه ما عناه من أحزانه  
أما في الغزل فيقول لمحبيه إنه لم يكن من اليسير على الإنجليز احتلال مصر لو أن  
سيف لحظه الفتاك كان من سيوف المصريين ٢ .

ما كان سهلاً أن يروا نيله — لو أن في أسياقنا لحظكا  
وفي الرثاء قال في مصطفى كامل : ٣ .

فيانيل إن لم تجر بعد وفاته — دماً أحمر لا كنت يا نيل جاريا  
وفي رثائه محمد فريد ٤

أيها النيل لقد جـل الأسي — كن مداداً لي إذا الدمع تـفـد  
ويقول :

قل لصب النيل • إن لاقينه — في جوار الدائم الفرد الصمد  
إن مصر لا تني عن قصدها — رغم ما تلقى وإن طاك الأمد  
وقال يرثي سعد زغلول ٦

وسها النيل عن سراه ذمولا — حين ألقى للحموع تبكى انتحابا  
واعتراف التاميز يا سعد مقيا — من لا نال نيلنا وأصابنا

وفي الوصف نراه يصف الباهرة دندرة وقد قدم عليها سعد زغلول من مسجد  
وصيف إلى القاهرة سنة ١٩٢٦ ٧ .

ما بال دندرة تميس تهاديبا — ميس العروس مشت على استبرق  
والنيل يجري تحتها متهللا — والموج بين مهلل ومصفق

---

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ٩٨-٩٩ .

(٢) » » » ص ٢٤٨

(٣) » » » ج ٢ ص ١٥١

(٤) » » » ج ٢ ص ١٩٧-١٩٨ .

(٥) صب النيل يقصد به مصطفى كامل

(٦) ديوان حافظ ج ٢ ص ٢٢٠-٢٢١

(٧) » » » ج ١ ص ١١٨-١١٩



وكتب إلى أحد أصدقائه بانجلترا يتشوق إلى أيامهما الماضية حيث قضيا أوقاتاً  
سعيدة على شاطئ النيل بالجيزة ١

لله زيناك الجسوا	ر وذلك العيش الرخيم
بالحان الغرى قـ	ق النيل والدينا نعيم
والنيل مرآة تنفس	في صحيفتها النسيم
سلب السماء نجومها	فهوت بلجته تعوم
نشرت عليه غلالة	يفضاء حاكته الغيوم
شفت لأعتى سـوى	ما شابه منها الأديم ٢
وكأننا فوق السما	ء وتحتنا ذاك السديم ٣

وفي قصيدته « مصر تتحدث عن نفسها » يقول بلسانها : ٤

قراي نهر ونهرى فرات وسماي مصقولة كالفرند ٥  
أينما سرت جدول عند كرم عند زهر مدنر عند رند ٦  
ومن أبدع ما قاله في الوصف ، وصفه لمصر في فصولها المختلفة مشيراً إلى خطاب  
عمرو السابق ذكره وذلك في قصيدة له للملك فـؤاد ٧ .

أو لم يكن لك ملك مصر ونيلها	ينساب بين مروجها الأفياح
منصورة الجنات حالية الربا	مطلولة السرحات والأرواح
قد قال عمرو في ثراها آية	مأثورة نقشت على الألواح
بينما تراه لآثا وكأنما	نثرت بتربته عقود ملاح

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ١٧٣-١٧٤

(٢) يقول إن هذه الغلالة تمثلت على صفحة الماء كالثوب الممزق ، وكانت الغيوم قطعاً في  
السما فما صادف من وجه الماء انعكاس غيم كان شفافاً يبين ما تحته ، وما صادف منه أديم السماء  
بدا غير شفاف .

(٣) السديم : الضباب الرقيق - شبه به للبحر الذى يجرى من تحتهم .

(٤) ديوان حافظ ج ٢ ص ٩٠

(٥) الفرند : السيف

(٦) مدنر : أى مختلف الألوان أو مشرق متلألئ - الرند : شجر طيب الرائحة وله حب  
يقال له النار .

(٧) ديوان حافظ ج ٢ ص ١٠١

وإذا به للناظرين زمررد يشفيك أخضره من الأثـراح  
وإذا به مسك تشق سواده شق الأديم محارث الفلاح ١  
أما في شعره الاجتماعي تراه تارة يتألم للحال الذي وصلت إليه البلاد وطوراً  
يستنهض الهمم ويشحذ العزائم .

فيقول حائثاً على معاظلة مشروع الجامعة المصرية (سنة ١٩٠٧) ٢

من المداوى إذا ما علـة عرضت من المدافع عن عرض وعن نشب  
ومن يروض مياه النيل إن جمحت وأنزلت مصر بالويلات والحرب  
ويذكر نفشى الرشوة بالبلاد قائلاً : ٣ .

ومهندس بالنيل بات بكفه مفتاح رزق العامل المطراق  
تندى وتيس للخلائق كفه بالماء طوع الأصفر البراق ٤  
ويشكو غلاء الأسعار وينعى على المصريين تقاعسهم عن الهجرة وتفضيلهم الموت  
جوعاً ويقول لأولى الأمر : ٥

أصلحو أنفسا أضر بهـا الفقر وأحيا بموتها الأثامـا  
ليس في طوقها الرحيل ولا الجـد ولا أن تواصل الإقدامـا  
تؤثر الموت في ربا النيل جوعاً وترى العار أن تعاف المقامـا  
وبنو مصر في حمى النيل صرعى يرقبون القضاء عاماً فعامـا  
أبها النيل كيف نعى عطاشاً في بلاد رويت فيها الأثامـا  
يرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الأواما ٦

(١) الأفياح : اللواسة - منضورة : حسنة بهيجة - حالة الربا : مكسوة المرتفعات  
بأنواع الزهور والنبات - مطلولة : أى أصابها الطل - المرحات : جمع مريحة وهى الشجرة  
العظيمة - الأرواح : الرياح - ويشير في هذه الأبيات إلى خطاب عمرو وإلى ما ذكره عن أرض  
مصر من أنها في فصول السنة لؤلؤة ثم مسكة ثم زمردة .

(٢) الديوان ج ١ ص ٢٦٦ والنشب : المال

(٣) د د ص ٢٨١

(٤) المطراق : الذى يكثر طرق أبواب الرزق - تندى : تبتل والمراد فيضان يده بالماء -  
يريد بالأصفر البراق : الرشوة .

(٥) ديوان حافظ ج ١ ص ٣١٦-٣١٧

(٦) الواغل : اثنى يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم دون أن يدعى - الآوام : شدة

العطش .

ومن شعره السياسى ما قاله فى حفل لتكريم لسعد زغلول : ١  
الشعب يدعـو الله يا زغلول أن يستـقـل على يدك النيل  
وفيهـا يقول عن الإنجليز :

آنا رميناهم بنـدب حول عن قصد وادى النيل ليس يحول  
للنيل منبعه لنا ومصبهـ ما أن له عن أرضها تحويل ٢  
ويقول فى حادثة دنشواى ويعرض إبراهيم الهلباوى المدعى العام فى تلك المحاكمة :  
أمـة النيل أكبرت أن تعادى من رماها وأشفت أن تعادى  
لا جرى النيل فى نواحيك يا مصر ولا جادك الحيا حيث جادا ٣  
ويدعو أهل مصر إلى الاتحاد وينعى عليهم تفرق شملهم فيقول : ٤

عار على ابن النيل سباق الورى مهما تقلب دهره أن يسبقا  
أو كلما قالوا تجمع شملهم لعب الشقاق يجمعنا فتفرقا  
فتدققوا حججاً وحوطوا نيلكم فلكم أفاض عليكم وتدققوا  
ويعتبر حافظ رائداً من رواد القومية العربية وأحد بناء وحدتها فيقول محياً  
الشام ٥ مخاطباً أهلها .

لى موطن فى ربوع النيل أعظمه ولى هنا فى حماكم موطن ثانى  
النيل وهو إلى الأردن فى شغف يهدى إلى بردى أشواق ولهـان  
وقال فى قصيدة عن مصر وسوريا ٦  
إذا ألت بوادى النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب  
لو أخلص النيل والأردن ودهما تضافحت منهما الأمواه والعشب  
بالوادين تمشى الفخـر مشيته يحف ناحيته الجود والدأب

(١) الديوان ج ١ ص ١١٠ ، ١١٢ .

(٢) الضمير فى رميناهم يعود على الإنجليز - النذب : الماضى فى الحاجة النافذ فى قضائها  
الحول : الشديد الاحتيال .

(٣) الديوان ج ٢ ص ٢١

(٤) الديوان ج ٢ ص ٦٠-٦١

(٥) » ج ١ ص ١٣٤ ، ١٣٩

(٦) » » ص ٢٦٩

فقال هذا سخاء دونه ديم وسال هذا مضاء دونه القضب ١  
وتختم هذه الأمثلة بذكر الرسالة التي بعث بها شوقي وهو في منفاه بالأندلس إلى حافظ  
يتشوق إلى مصر ونيلها ورد حافظ عليه ٢

أرسل شوقي يقول :

يا ساكني مصر إنا لا نزال على عهد الوفاء - وإن غبتا - مقيمين  
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئاً نبل به أحشاء صاديننا  
كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل إلا عن أمانينا  
فرد حافظ عليه قائلاً :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله صاد ويسقى رباً مصر ويسقينا  
والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لنا  
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد تأينا وإن كنا مقيميننا  
ومن أروع ما قيل في النيل - بل لعله أروعها جميعاً - قصيدة أمير الشعراء شوقي  
الذي يخاطب فيها النيل قائلاً :

من أي عهد في القرى تتدفق وبأي كف في المدائن تغدق  
ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقرق  
وبأي عين أم بأية منزلة أم أي طوفان تفيض وتفهمق  
وبأي نول أنت ناسج بـردة للصفتين جديدها لا يخلق  
تسقى وتنطمع لا إناؤك ضائيق بالواردين ولا خوانك ينفق  
والماء تسكبه فيسبك عسجداً والأرض تغرقها فيحيا المغرق  
تعبي منابحك العقول ويستوى متخبط في علمها ومحقق  
أخلقت راووق الدهور ولم تزل بك حماة كالمسك لا تتروق  
دين الأوائل فيك دين مروءة لم لا يؤله من يقوت ويرزق  
لو أن مخلوقاً يسؤله لم تكن لسواك مرتبة الألوهة تخلق

(١) الديم من السحب : جمع ديمة وهي الدائمة المطر - القضب : السيوف القواطع يشير  
بالشطر الأول إلى وادي النيل وبالشطر الثاني إلى وادي الأردن .

(٢) الديوان ج ١ ص ١٨٦-١٨٧



دَانُوا بِبِحَرِّ الْمَكَارِمِ زَاخِرِ  
مَتَّقِيْدَ بَعُوْدِهِ وَوَعُوْدِهِ  
يَتَقَبَّلُ الْوَادِي الْحَيَاةَ كَرِيْمَةً  
أَصْلَ الْحَضَارَةِ فِي صَعِيدِكَ ثَابِتِ  
وَلَدْتَ فَكُنْتَ الْمَهْدُ ثُمَّ تَرَعَرَعَتْ  
لِلْأَرْضِ يَوْمَ وَالسَّمَاءِ قِيَامَةً  
وَيَقُولُ آخِرُ مَخَاطِبِ النَّبِيلِ :

إِلَيْهِ يَا نِيلَ كَمْ بَنَيْتَ حَيَاةَ  
قَدْ نَبَتْنَا عَلَى ثَرَاكَ نَبَاتًا  
لَا تَرَى الْأَرْضَ مَا خَطَوْتَ مَوَاتًا  
أَنْتَ تَهْدِي لَنَا شَهْبَا فِرَاتًا  
صَدَقَ الشَّاعِرُ فَالْحَيَاةَ تَسِيرُ فِي رِكَابِهِ  
وَمَا نَحْنُ إِلَّا ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِهِ ، وَصَدَقَ اللَّهُ  
الْعَظِيمُ « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ »

# جغرافية النيل في المؤلفات العربية

- النعم
- أنجسرى
- المصب
- الخللجان
- الترع والفسور



## الفصل الأول

### المنبع

نهر النيل أول نهر عرفته البشرية ، ولعب في تطورها الدور الرئيسى ومع ذلك ظل مجهول المنبع ، — وهو الذى قامت على ضفتيه أقدم وأروع حضارة عرفها التاريخ — وقد أحاط ببدايته الغموض . ولعب الخيال دوره فى محاولة استجلاء مبدأ النهر فظهرت الأساطير التى زادت فى الغموض والإبهام المحيطين بمنبعه . ولم ينقطع الجدل حول منبع النيل إلا فى القرن الماضى فقط بعد الكشف الحديثة التى قام بها الرحالة الأوربيون .

والمعلومات الجغرافية التى وردت فى مؤلفات الكتاب السابقين على الإسلام والمؤلفين العرب على السواء لم تكن مبنية على المشاهدة بل هى معلومات تخيلوها أو سمعوا بها من بعض الناس أو عثروا عليها فى كتب سابقة . فكما رأينا فى المقدمة كانت معلومات الجغرافيين السابقين على الإسلام عن منابع النيل ضئيلة وتافهة ، فيما عدا معلومات بطليموس التى أخذها من غيره . كما أن معلومات الكتاب العرب لم تكن بأوفر من معلومات السابقين فبالرغم من أن أكثر المؤلفين العرب كانوا رحالة إلا أن أحداً منهم لم يصل قط إلى منابع النيل . وقد صرح بذلك كثير من المؤلفين العرب ، فيقول أبو الفدا ١ : « ولم يتصل بنا من أخباره ( أى بداية النيل ) إلا ما نقل عن اليونان ونسب إلى بطليموس » . ويقول ابن فضل الله العمرى ٢ : « والشائع على ألسنة الناس أن أحداً ما وقف على أوله بالمشاهدة .... وإنما غالب ما يقال فى هذا — والله أعلم — مما أظهره نظر للعلم لانظر العيان » . أما السيوطى ٣ فينقل عن التيفاشى ٤ : « أن كل الأنهار يوقف على منبعه وأصله ، والنيل لا يوقف له على أصل منبع » .

والثابت من هذه الأقوال أن معلومات العرب عن مبدأ النيل ، هى معلومات منقولة عن غيرهم . وليس فى ذلك ما ينقص من قدر الجغرافيين العرب الذين كان لهم فضل

---

(١) تقويم البلدان ص ٤٥

(٢) مسالك الأبصار ج ١ ص ٧١

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٧

(٤) شرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشى نسبة إلى تيفاشى بإفريقية توفى سنة ٦٥١هـ - ١٢٥٣م



كبير في تطور وتقدم علم الجغرافيا ، والذين قاموا بالرحلات العلمية في شتى أنحاء العالم وخاصة أفريقيا ، فتجولوا في أعماقها ، وعرفوا الكثير من أجزائها وأسسوا فيها المدن والممالك ونشروا في بعض جهاتها حضارتهم ولغتهم ودينهم . إذ أنه لم يتيسر الكشف عن منابع النيل إلا في العصور الحديثة بعد أن تقدمت وسائل المواصلات ، وأصبحت البعثات الاستكشافية تلتقي التشجيع والتأييد من جانب السلطات الحكومية والجمعيات الجغرافية .

ولقد يطرأ على أذهاننا سؤال هو : هل قامت محاولات لاكتشاف منابع النيل ؟

لا شك أن المحاولات لاكتشاف منابع النيل بدأت منذ زمان بعيد ، فكانت المحاولات المستمرة لمعرفة أسرار هذا النهر واستجلاء غوامضه ومعرفة مخرجه . والمراجع الجغرافية تعطينا فكرة عن بعض المحاولات السابقة على الإسلام والتي بذلت للوصول إلى منابع النيل .

فهيرودوت يذكر قصة قيام خمسة شبان من الليبيين من سيرتس Syrtis (جنوب برقة) بالتوغل جنوباً لمعرفة نهاية الصحراء حتى وصلوا إلى مجرى مائي عظيم حيث أسرهم جنس من الأقزام السود ، وأنهم اعتقدوا أن هذا النهر هو النيل . ويظهر أن هؤلاء الشبان وصلوا إلى نهر النيجر عن طريق واحات فزان وجبال أماجار

<sup>٢</sup> Ahaggar

و ديودور <sup>٣</sup> الصقلي واسترابون يقولان إن قمبيز ملك الفرس لما فتح مصر (عام ٥٢٥ ق.م) تقدم إلى الجنوب في بلاد النوبة حتى وصل إلى جزيرة « مروي » وأنه هو الذي أطلق هذا الاسم عليها وعلى مدينة بناها هناك . هذا وإن كان بغض الباحثين <sup>٤</sup> يرى أنه لم يتعد الجنادل الثاني وعاد إلى مصر بعد أن لقي جيشه الأهوال ؛ كما أن هيرودوت الذي يعتبر المصدر الأول لتاريخ هذه الفترة لم يذكر عند وصفه لمروي أن قمبيز هو الذي أوجدها .

وحوالي سنة ٦٠ م قام اثنان من ضباط الحرس الامبراطوري الروماني بأمر من الامبراطور «نيرون» في رحلة لاكتشاف منابع النيل ، وقد تمكنا من التوغل جنوباً حتى خط عرض ٥ شمالاً <sup>٥</sup> . وفي ذلك يقول الفيلسوف سنيكا Lucius <sup>٥</sup>

Annaeus Seneca

«حانت لي الفرصة لسماع تقرير قائدي المائة اللذين أرسلهما الامبراطور «نيرون» إلى

(١) هيرودوت في مصر ص ٤٢ وما بعدها .

(٢) Crawford ; op. cit. p. 26.

(٣) ديودور في مصر ص ٦٦

(٤) الدكتور نجيب ميخائيل «تاريخ مصر» ص ٣١٦

(٥) Hermann ; Conquest by man. p. 134 .

منابع النيل واللذين يقولان في تقريرهما : وصلنا إلى مستنقعات واسعة ، وهي منطقة غير معروفة حتى لأهالي البلاد ولم يصل إليها إنسان ، فالأعشاب المائية كانت من الكثافة لدرجة لا يستطيع الإنسان معها سبر غور الماء ، كما لا يمكن اختراق هذه المستنقعات . ورأينا على بعد صخرتين يتدفق النيل بينهما بقوة . ولا نعلم هل هذا رافد من روافد النيل أو أنه منبعه ؛ أو هو هنا يظهر على سطح الأرض بعد أن يكون قد اختفى تحت الأرض فترة ما . وخروج الماء بقوة بين الصخور دليل على أنه يأتي من بقعة تتجمع فيها المياه التي تجري في هذا الإقليم .<sup>١</sup> وإنه من المحقق أن هذين القائدين وصلا إلى إقليم لم تطأه قدم إنسان أبيض بعد ذلك مدة ثمانية عشر قرناً ، وإن كل الاحتمالات تدل على أنهما وصلا إلى بحر الغزال<sup>٢</sup> . ويرى بعض الباحثين<sup>٣</sup> أن هذه البعثة وصلت إلى هذا المكان عن طريق الحبشة وليس عن طريق النيل الأبيض . كما يرى البعض<sup>٤</sup> . أيضاً أنه من المحتمل أن تكون المعلومات عن البحيرات الاستوائية قد جاءت عن طريق هذه البعثة .

أما بطليموس فقد جاء بمعلوماته — التي هي أقرب إلى الصحة بوجه عام — من كتابات جغرافي يدعى مارينوس الصوري ، وهذا بدوره يقول إن تاجراً يونانياً يدعى « ديوجين » كان يرتاد الساحل الإفريقي الشرقي وزنجبار حدثه أنه بالسير إلى الداخل غرباً لمدة خمسة وعشرين يوماً يصل الإنسان إلى بحيرتين عظيمتين وجبال تكملها الثلوج ، وأن هذه المنطقة هي منبع النيل . وربما يكون المقصود بالبحيرتين بحيرتا فيكتوريا وألبرت ، أما الجبال فالمرجح أنها جبال « روبرتوري » التي تكملها الثلوج دائماً . ويقول الدكتور همفرس<sup>٥</sup> ، إنه يعزى إلى العرب السبئيين فضل هذا الكشف وإنهم توغلوا في إفريقية حتى بحيرة ألبرت حيث يمكن رؤية جبال « روبرتوري » من هناك .

هذا بالنسبة للفترة السابقة على الإسلام ، أما المراجع العربية نفسها فهي خالية عن قيام أية محاولة عربية للكشف عن منابع النيل ، إلا أن ناصر خسرو الرحالة

(١) Herrman ; op. cit p. 134

(٢) Crowford ; op. cit p. 19 — Johnston ; op. cit. 190/191

(٣) E.I. art « Al Nil ».

(٤) Humphreys ; op. cit p. 511

Johnston ; op. cit p. 22

Ball ; op. cit. p. 100.

الفارسي يقول ١ : « سمعت أن سلطان مصر أرسل بعثة لتتبع شاطئ النيل سنة كاملة ودرسه ولكن أحداً لم يعرف حقيقة منبعه » . كما أن الغزولي ٢ يذكر محاولة للملك الصالح نجم الدين أيوب ، فيقول : « وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب يشتهي أن يعرف أصل هذا النيل فرسم أن تشتري عبيد صغار زنوج وما شاكلهم جلب لم يستعربوا وأسلمهم لصيادي السمك والبحارة ليعلموهم صنعة البحر وصيد السمك وأن يكون قوتهم من السمك لا غير ، فإذا مهرؤا في ذلك تصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل » . وقصة الغزولي هذه لم ترد في أي مرجع آخر من المراجع العربية ، كما أنه لم يذكر لنا ماذا تم في أمر هذه البعثة . وعلى كل فإذا كانت هذه المحاولة حقيقية فإنها لم تتم نظراً لأنه في هذه الفترة تعرضت مصر لهجوم الصليبيين ثم انتهى الأمر بزوال الدولة الأيوبية .

ومن العجيب أن تظهر في أوائل القرن الخامس عشر وهو القرن الذي عاش فيه الغزولي قصة تشبه كثيراً قصة الغزولي فيما عدا صاحب الفكرة وبعض الاستطرادات . وهذه القصة تلخص ٣ في أن الرحالة الأسباني بيرو تافور Pero Tafur عند عودته إلى القاهرة من جبل سيناء سنة ١٤٣٦ م قابل الرحالة الإيطالي نقولا دي كونتي Nicola de Conti الذي أخبره أن بريسترجون Prester John (حاكم شوا Shoa) أراد أن يكتشف منابع النيل فأحضر أطفالاً حديثي الفطام وأنشأهم على السمك النيء حتى كبروا فأرسلهم لاكتشاف منابع . وعندما وصل هؤلاء إلى منابع النيل وجبال القمر وجدوا النيل يخرج بقوة من فجوة بين الصخور ، فأرسلوا فريقاً منهم للاستكشاف ، ولكن بعضهم رفض العودة والذين عادوا رفضوا التحدث بما رأوا وانتهت الحملة بالفشل .

وجدير بالذكر أن الغزولي توفي سنة ٨١٥ هـ أي ١٤١٢ م وبذلك تكون إذاعة قصته قد سبقت هذه القصة الغريبة بأكثر من عشرين عاماً ، ولا يبعد أن تكون قصة الغزولي هي أصل هذه القصة الغريبة .

ويجدر بنا أن نذكر هنا رحلة عربياً آخر هو عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني ، الذي أرسله القائد جوهر الصقلي في عهد المعز في سفارة إلى ملك النوبة ، وقد وصل

---

(١) سفرنامه ص ٤١ ولكنه لم يذكر من هو السلطان الذي أرسل هذه البعثة وهل هو أحد الخلفاء الفاطميين .

(٢) مطالع البدور في منازل السرور ج ٢ ص ٧٥

(٣) Crawford ; op. cit p. 24

في رحلته حتى المنطقة التي يلتقي فيها النيل الأبيض بالنيل الأزرق وألف كتاباً أودعه تقريره عن هذه الرحلة وأسماء « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » وهذا الكتاب مفقود للأسف الشديد ، ولم يصلنا منه إلا مقتطفات يسيرة ضمنها المقرئ كتابه الخطوط في الفصل الذي تحدث فيه عن النيل وبلاد النوبة ، ويتضح مما أورده المقرئ على لسان ابن سليم أنه لم يتعد مكان اتصال النيل الأبيض بالنيل الأزرق وأنه يجهل المنطقة الواقعة جنوب هذا المكان . ولكننا نلاحظ أن المعلومات التي أوردها ابن سليم عن المنطقة الواقعة بين أسوان وموقع الخرطوم الحالية معلومات قيمة وهامة لم يسبقه إليها كاتب آخر ، ولا زالت حتى اليوم تحتفظ بقيمتها العملية الكبرى ويرجع إليها كل من كتب عن بلاد النوبة وشمال السودان من الكتاب المحدثين شرقيين وغربيين .

ويذكر ابن فضل الله العمري ١ رواية سمعها ، عن وصول رجل عربي إلى منابع النيل حيث يقول عند ذكره للبحيرة الثالثة الشمالية من بحيرات النيل : « حدثني قاضي القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوي أن الأمير أبادبوس بن أبي العلي أبي دبوس ٢ ووالده آخر سلاطين بر العدوة من بني عبد المؤمن حدثه أنه وصل إلى هذه البحيرة في أيام هربه من بني عبد الحق ملوك بني مرين القائمين الآن » . فإن صحت القصة يكون أول عربي مسلم وصل إلى منابع النيل .

إلى جانب ذلك ، نجد في المراجع العربية قصصاً عن وصول قوم إلى منابع النيل وهي قصص تظهر تفاهتها من الوهلة الأولى ، وإنها كما يقول ابن عبد السلام المتوفى من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين ٣ .

وقد تلخص ابن فضل الله العمري هذه الروايات فقال ٤ : « والشائع على ألسنة الناس أن أحداً ما وقف على أوله بالمشاهدة ، وجعل كل واحد منهم سبباً لعدم الوقوف على حقيقة أوله :—

فقال بعضهم : إنه انتهى أناس وصعدوا الجبل فرأوا ما وراءه بحراً عجائماً ، ماؤه أسود كالليل يشقه نهر أبيض كالنهار ، يدخل الجبل من جنوبه ويخرج من شماله ،

(١) العمري : مسالك الأبصار ج ١ ص ٧١

(٢) أبو هذا الأمير هو أبو العلي الواثق ( أبو دبوس ) آخر أمراء الموحدين وتولى

الملك ٦٦٥-٦٦٧

انظر Zambaur ; Manuel de Genealogie P. 73.

(٣) مخطوط الفيض الجديد نسخة أسكندرية ص ١٧

(٤) مسالك الأبصار ج ١ ص ٧١



ويتشعب على قبة هرمس المبنية هناك . وزعموا أنه هرمس الهرامسة وهو المسمى بالمثلث بالحكمة ، ويزعم بعضهم أنه إدريس عليه السلام .

وقال بعضهم : إن أناساً صعدوا الجبل ، وبقي كلما تقدم منهم واحد ضحك وصفق يديه وألقى روحه إلى ما وراء الجبل ، فخاف البقية أن يصيبهم مثل ذلك فرجعوا . وقال بعضهم إن ملكاً من ملوك مصر الأول جهز أناساً للوقوف على أوله فانتهوا إلى جبال من نحاس لما طلعت عليها الشمس وانعكست عليهم أشعتها أحرقت غالبهم فرجع البقية وقال البعض إنما هي جبال برامة كالبلور .

وهناك قصة شائعة في المراجع العربية تنسب إلى الليث بن سعد ١ عن رجل يقال له حائد بن أبي شالوم بن العيصي بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام ، أراد أن يحيط علماً بمخرج النيل فسار ثلاثين سنة في العمران وثلاثين سنة في أراضي الخراب ، وهو لا يفارق النيل إلى بحر أخضر فرأى النيل شق ذلك البحر ، فركب دابة هناك من دواب البحر سخرها الله له ، فقطع البحر ووصل إلى أرض من حديد جبالها وأشجارها من حديد ، ثم وصل إلى أرض من نحاس جبالها وأشجارها من نحاس ، ثم وقع في أرض من ذهب جبالها وأشجارها من ذهب ، ثم وقع في أرض من فضة جبالها وأشجارها من فضة إلى أن انتهى إلى سور عظيم منيع من ذهب وهناك قبة عالية من ذهب لها أربعة أبواب والماء ينحدر من ذلك السور ويستقر في تلك القبة ثم يخرج من الأبواب الأربعة أربعة أنهار ، ثلاثة منها تفور في الأرض والرابع يجري على وجه الأرض وهو النيل ، أما الثلاثة الأول فهي سيحون وجيحون والفرات . ثم آتاه آت وأخبره بأن هذه الجنة .

ولكننا نلاحظ أن بعض الكتاب الذين أوردوا هذه القصة لم يصدقوها وإنما أوردوها كرواية متداولة . ويعلق ياقوت على هذه القصة بأنها خبر شبيه بالخرافة ٢ . كما أن ابن عبد السلام المنوفي ٣ يقول أنه لا مزية في بطلان هذه الحكاية ، وأن الليث ابن سعد لم يؤكد هذا الخبر وإنما هو قال بلغني ، وإن هذا يعد خبراً والخبر يحتمل الصدق كما يحتمل الكذب ، واحتماله الكذب هنا أرجح .

إلى غير ذلك من قصص عن ملوك ما قبل الطوفان — أوردتها المقرئزي ٤ وغيره — وصلوا إلى منابع النيل حيث نظموا خروج الماء منها .

(١) ولد بقرية قرقشند سنة ٩٤ هـ ، ومات سنة ١٧٥ هـ

(٢) معجم البلدان ج ٤ ص ٨٦٨-٨٧٠

(٣) مخطوطه السابق ص ١٨

(٤) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٥٢ وما بعدها .

أما معلومات الكتاب العرب عن منابع النيل فيمكن إجمالها في أربعة آراء :

وأى يشترك فيه معظم الكتاب العرب حتى الذين يذكرون منهم منابع أخرى للنيل ، وهذا الرأى يستند إلى الأحاديث النبوية التى تقول بخروج النيل من الجنة أو من سدره المنتهى . وقد ذكرنا هذه الأحاديث بالتفصيل فى الفصل الأول من الباب الأول . وهؤلاء الكتاب لا يرون تعارضاً بين خروج النيل من الجنة وبين ما يذكرون من أماكن أخرى يخرج منها النهر ، وفى ذلك يقول أحمد بن عبد السلام المتوفى ١٠٨٠ هـ اعلم أنه لا خلاف بين عامة المسلمين فى أن أصل النيل يخرج من الجنة من أصل سدره المنتهى لتصريح الأحاديث الصحيحة بذلك . وأما الخلاف المذكور فى هذا الفصل وفى غيره من الكتب المصنفة فى ذلك فلأنما هو فى تعيين المكان الذى ينبع منه من الأرض بعد خروجه من الجنة . فهو يرى أن النيل يخرج من الجنة ثم يأتى إلى الأرض بطريقة ما ليخرج منها . هذا وإن كان الدمشقى شيخ الربوة ٢ يرى أن هذه الجنة أرضية لا سماوية .

ورأى ثان يعترف صراحة بأن منبع النيل غير معروف ، وهو رأى يقول به قلة من الكتاب منهم الإصطخرى ٣ وابن حوقل من ٤ القرن الرابع الهجرى ، فهما يتفقان أن النيل لا يعلم مبتداه ، وذلك لأنه يخرج من مفاوز وراء أرض الزنج لاتسلك . ولعل هذا الاتفاق فى الرأى بين الاثنين راجع إلى ما يقال من أن ابن حوقل اتخذ من كتاب الإصطخرى - الذى أعطاه له ليراجعه - أساساً لما كتبه .

أما الرأى الثالث فنستطيع القول بأن له أصلاً تاريخياً ، وقد أورده ابن الفقيه ٥ فيقول : « قال أبو الخطاب ، قال المشتري بن الأسود غزوت بلاد أنبية عشرين غزاة من السوس الأقصى فرأيت النيل بينه وبين البحر الأجاج كتيب من رمل يخرج للنيل [من تحته] . وهو رأى نستطيع أن نقارنه بما نقله بليزوس عن الملك جوبا الثانى من أن النيل يخرج من جبل فى غرب موريتانيا غير بعيد من المحيط .

ولعل الرأى الرابع هو أقرب الآراء إلى الصحة بوجه عام ، وقد قالت به الغالبية [العظمى من الكتاب العرب . وهو رأى يقول بخروج النيل من جبال القمر جنوب خط الاستواء . وهى معلومات أخذها العرب من جغرافية بطليموس ، وكان أول من

(١) الفيض المديد ص ٢٢

(٢) سبق إيضاح ذلك فى الفصل الأول من الباب الأول

(٣) الإصطخرى : مسالك الممالك ص ٥٠

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٤٧ ، ص ١٤٨

(٥) « مختصر كتاب البلدان » ص ٦٤

نقلها الخوارزمي . ولقد ظلت نظريات بطليموس هذه سائدة سواء لدى العرب أو الجغرافيين الأوربيين - حتى زمن الاكتشافات الحديثة . ونلاحظ بسهولة أنه خلال القرون المتعاقبة لم يصف الكتاب العرب إلى هذه المعلومات شيئاً ، بل نقل بعضهم عن بعض مع شيء من الاختصار أو الإفاضة ، حتى المؤلفات التي كانت وقفاً على النيل فقط لم تأت بجديد بل هو سرمد لآراء المتقلمين .

وخلاصة هذا الرأي هو تجمع ماء النيل من جبال القمر في أنهار تصب في بحيرات جامعة حيث يخرج النيل منها . والخلاف الذي قد نجده في المراجع العربية هو في تحديد موقع جبال القمر بالنسبة لخط الاستواء ، وفي عدد البحيرات الجامعة لمياه هذه الأنهار . فبينما بطليموس يحدد موقع الجبال جنوب خط الاستواء باثنتي عشرة درجة ونصف ١ ، يحددها ابن سينا ٢ ، وابن ميماتي ٣ ، والبغدادى ٤ ، وأبو الفدا ٥ ، بإحدى عشرة درجة أما الإدريسي ٦ وابن خلدون ٧ يجعلون موقعها في الدرجة السادسة عشرة جنوب خط الاستواء . على أن ابن خرداذبة ٨ يقول إن جبل القمر في اليمن . أما ابن رسته ٩ فيسمى هذه الجبال بجبال البين .

أما عدد البحيرات ، فالغالبية العظمى وعلى رأسهم الخوارزمي ١٠ يذكرون أنها ثلاثة بحيرات ، اثنتين منها جنوب خط الاستواء والثالثة شماله . وبعضهم وعلى رأسهم المسعودي ١١ يرى رأى بطليموس في أنها اثنتان فقط ، ولو أن عبد اللطيف البغدادى ١٢ لم يذكر إلا بحيرة واحدة فقط . كما اختلف الكتاب العرب في تقدير مساحة هذه البحيرات .

---

(١) Ball ; Op. Cit. p. 100

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٦٢

(٣) قوانين اللواوين ص ٧٣

(٤) الإفادة والاعتبار ص ٥

(٥) تقويم البلدان ص ٦٤

(٦) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٤

(٧) المقدمة ( ج ١ ) ص ٤١

(٨) المسالك والممالك ص ١٧٩

(٩) الأعلام النفسية ص ٩٠

(١٠) صورة الأرض ص ١٠٦-١٠٧

(١١) مروج الذهب ج ١ ص ٢٠٥

(١٢) الإفادة والاعتبار ص ٤٧

ويرى كثير من العلماء المحدثين ١ أن البحيرتين اللتين تقمان جنوب خط الاستواء هما بحيرتا فكتوريا والبرت ، أما البحيرة الثالثة التي يطلقون عليها اسم كورى ، فينبأ يرى البعض ٢ أنه ربما يكون المقصود بها بحيرة تشاد ، يرى آخرون ٣ أن هذه البحيرة كانت موجودة فعلاً في المنطقة التي يلتقي فيها النيل الأبيض بالسوبات وبحر الغزال ولم يبق من آثارها الآن سوى بحيرة نو وهو رأى له وجهته .

إلى جانب هذه البحيرات الثلاث يذكر قلة من المؤلفين العرب بحيرة أخرى يخرج منها نهر يتصل بالنيل في أرض النوبة . والمقصود بهذا النهر بلاشك هو النيل الأزرق وإن كان بعض الجغرافيين المحدثين ٤ يرون أن هذا الرافد هو السوبات وأن البحيرة التي يخرج منها هي بحيرة جارتوك وقد استمد الخوارزمي معلوماته عن هذا النهر من جغرافية بطليموس ، ويصفه لنا الخوارزمي ٥ بقوله : « وعين مدورة مركزها على خط الاستواء ومصبتها إلى النيل عند مدينة النوبة وقطر العين ثلاثة أجزاء ، ويخرج منها نهر مصبه في النيل مماس للإقليم الأول . وخليج فيما بين نهر هذه العين والنيل فوق مدينة النوبة » . وقد وقع الخوارزمي في الخطأ الذي وقع فيه بطليموس وغيره من المؤلفين اليونان والرومان ، فالخوارزمي يقصد بالخليج الذي يخرج من هذا النهر ويصب في النيل نهر العطيرة . وقد كان بطليموس ومن سبقه من المؤلفين يرون أن نهر العطيرة ويسمونه Astaboras والنيل الأزرق ويطلقون عليه Astapus نهر واحد افرق إلى هذين الفرعين قبل أن يتصل بالنيل .

وقد ذكر الإدريسي هذا النهر أيضاً وإن كان قد جعل اتصاله بالنيل عند مدينة بلاق ( جزيرة فيلاي ) جنوب أسوان ، وقد وصفه ٦ بأنه نهر كبير منبعه من فوق خط الاستواء وفي آخره نهاية المعمور من جهة الجنوب ، ثم يتجه شمالاً بغرب مخترقاً الحبشة حتى يصل إلى أرض النوبة فيصب هناك في ذراع النيل الذي يحيط بمدينة بلاق .

---

(١) Ball ; op. cit. p. 100

(٢) E.I. art «Al Nil».

(٣) Toussonn ; op. cit. T.I p. 30

(٤) رزقانة : نهر النيل مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ١٢ الجزء الأول مايو

س ١٩٥٠ .

(٥) صورة الأرض ص ١٠٩ .

(٦) صفة المغرب ص ٢٣



ويذكر أبو صالح الأرمني ١ في تاريخه ثلاثة أنهار في بلاد السودان ، أحدها يعرف بالأبيض والآخر يعرف بالأسود يأتي إلى النيل من الشرق ويمجاوره نهر أصفر كالزعفران . ولعله يقصد بالنهر الأبيض « النيل الأبيض » والنهر الأسود « النيل الأزرق » والنهر الأصفر « العظيرة » .

ويصف أبو الفدا ٢ نهراً أسماه نهر الهو على أنه من الأنهار التي ذكرها بطليموس يخرج من جبل يمتد من جنوب خط الاستواء إلى شماله وأن النهر يلتوى كالنون ثم يصب في النيل عند مدينة ملل التي هي من مدن الكفار المهملين . والوصف الذي ذكره أبو الفدا يطابق إلى حد كبير وصف النيل الأزرق وانحناءه كالنون قبل اتجاهه للشمال الغربي .

والخطأ الذي وقع فيه بطليموس وغيره من الكتاب العرب الذين ذكروا هذا النهر هو في تحديد مخرجه حيث جعلوا البحيرة التي ينبع منها في منطقة خط الاستواء ، في حين أن بحيرة تانا التي يخرج منها النيل الأزرق تقع على خط عرض ١٢ شمالاً .

ولقد ربط الرحالة الأوربيون الذين اكتشفوا منابع النيل بين سلاسل جبال روبرتوري وقممها الثلجية والتي تقع إلى الجنوب الغربي بين بحيرتي ألبرت وإدوارد ، وبين جبال القمر ، وقد ذكرها الرحالة سيك باسم Unyamweza Country ٣ ، أي مملكة القمر . ولكن البعض ٤ يرى أن جبال القمر ليست سلسلة روبرتوري بل هي جبال أخرى موجودة في الحبشة وأن البحيرتين اللتين ذكرهما بطليموس على أنهما منبع النيل موجودتان أيضاً في الحبشة وإحداهما هي بحيرة تانا أما البحيرة الأخرى فيحتمل أنها بحيرة أشانجي Ashangi ويحاولون تأكيد رأيهم بأن منطقة وسط إفريقيا جنوب خط ١٠ شمالاً وغرب النيل الأزرق لم يكن معروفاً حتى آخر القرن الثامن عشر الميلادي .

وأول من ذكر هذه الجبال باسم جبال القمر هو بطليموس ، وقد تبعه في ذلك المؤلفون العرب وإن اختلفوا في تشكيل لفظة القمر . فأغلبهم أوردوها بفتح القاف والميم نسبة إلى القمر وجعلوا لذلك أسباباً مختلفة . فالمسعودي ٥ يرى أن سبب هذه التسمية

---

(١) تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني ص ١٢٨

(٢) تقويم البلدان ص ١٥٣

(٣) E. T. art « al Nil ».

(٤) Crawford ; op. cit. p. 17/19 — 26

(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦١

هو ما يظهر من تأثير القمر في الجبل عند زيادته وتقصانه من النور والظلام في البدر والمحاق . أما ابن خلدون ١ فيقول إن نسبة هذا الجبل إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه . وقد نقل السيوطي ٢ عن التيفاشي أنه سمي بذلك لأن العين تقمر منه إذا نظرت إليه لشدة بياضه ولذلك أيضاً سمي القمر قمراً . أما القرمانى ٣ الدمشقي فيرى أن سبب هذه التسمية هو أن القمر لا يطلع عليه أصلاً لخروجه عن خط الاستواء .

ولبعض الباحثين ٤ تعليل لسبب هذه التسمية ، نرى إتماماً للفائدة أن نورده لأنه إن صح يكون للعرب القدماء فضل ارتياد منابع النيل . وهذا الرأي ينحصر في أن جبال القمر تكللها الثلوج طوال العام وأن من معاني لفظة القمر « تحير البصر من الثلج » ٥ . فالارتباط ظاهر بين لفظة القمر بهذا المعنى وبين هذه الجبال المكلفة بالثلوج . ولما كان — في رأيهم — أن لفظ القمر بهذا المعنى لم يكن شائعاً في العصر الإسلامي الذي كتب فيه مشاهير الجغرافيين العرب ، لذلك افترض أنها كانت شائعة في لغة العرب في الأزمان القديمة وأن العرب السبئيين كانوا يستعملونها ، وعلى ذلك فهذا في رأيهم دليل على ما ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين من أن فضل ارتياد منابع النيل في القديم يرجع إلى العرب السبئيين الذين كانوا يستعمرون ساحل إفريقية الشرقي ويتوغلون في داخلها للتجارة واستخراج الذهب ، وأن معلومات مارينوس الصوري ، وبطليموس ترجع في أصلها إلى ما عرفه العرب القدماء في رحلاتهم تلك عن البحيرات العظمى وعن الجبال التي تحير فيها بصرهم من بياض الثلج فسموها جبال القمر .

ويذكر الأستاذ تايلور ٦ — أحد العلماء البريطانيين — أن سبب تسمية جبال القمر أنه مرتفع جداً حتى يصل إلى دائرة القمر .

أما النطق الآخر للفظ فهو بضم القاف وسكون الميم . وقد أوردته على هذا النحو ياقوت وابن سعيد ٧ . وجاء في الخطط المقرئية ٨ أنه يوجد في بحر الزنج جزيرة

(١) المقدمة (ج ١) ص ٤٨

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤

(٣) أخبار النول ص ٤١٥

(٤) دكتور جمال مرسى بدر « نهر النيل في تاريخ الفكر الجغرافي » المجلة عدد أكتوبر سنة ١٩٥٧ .

(٥) اللسان — وتاج العروسی للزبيدي .

(٦) Crawford ; op. cit p. 26.

(٧) ابن خلدون ج ١ ص ٤٨

(٨) ج ١ ص ٥١

يطلق عليها جزيرة القمر بضم القاف وإسكان الميم والراء المهملة ، طولها أربعة أشهر في عرض عشرين يوماً (لعله يذكر جزيرة مدغشقر) ، بها عدة بلاد كثيرة منها قمرية وإليها ينسب الطائر القمري . وأن هذه الجزيرة ضاقت بأهلها فبنوا على الساحل محلات يسكنونها في سفح جبل يعرف بهم يقال له جبل القمر وينصب منه النيل .

أما ابن عبد السلام المنوفي ١ فينقل عن الحافظ ابن كثير أنه ذكر في تاريخه الكبير أن اسم هذه الجبال تعرف بجبال القمرى - بضم القاف وسكون الميم وزيادة ألف وياء إلى آخر الكلمة - أى البيض .

وكما اختلف الكتاب العرب في نطق اسم الجبال ، اختلفوا في لونها ، فبعضهم كابن صالح يقول إنها ٢ حمراء وآخرون يصفونها بأنها ٣ بيضاء لما غلب عليها من الثلج وفريق يرى أنها جبال سود ترى من بعيد كأن عليها الغمام ٤ .

• • •

وقد أشركت العرب مع النيل أنهاراً أخرى ، على أنها تخرج من نفس منابعه ، أو أنها تتفرع منه . وهذه الأنهار مرتبة حسب التسلسل التاريخي في المؤلفات العربية .  
هى :-

#### (١) نهر مهران أو السند

ولعل أول من زعم - من الكتاب العرب - أن نهر السند و النيل هما نهر واحد ، الكاتب العربى الشهير الجاحظ (القرنين الثانى والثالث الهجرى) . وقد نقد المسعودى رأى الجاحظ هذا فى كتابه « مروج الذهب » ٥ إذ يقول : « وقد ذكر الجاحظ أن نهر مهران السند من نيل مصر ، واستدل على ذلك بوجود التماسيح فيه . فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل وذكر ذلك فى كتابه المترجم بكتاب « الأمصار وعجائب البلدان » ولم يعلم أن مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالي بلاد السند » .

ويشارك الجاحظ فى رأيه هذا ، ابن الفقيه ٦ واليعقوبى ٧ ( القرن الثالث

---

(١) الفيض المديد ص ٧

(٢) تاريخ الشيخ أبى صالح ص ١٢٧-١٢٨

(٣) أبو الفدا تقويم البلدان ص ٦٤

(٤) العبرى مسالك الأبصار ج ١ ص ٧٠

(٥) ج ١ ص ٢٠٥

(٦) مختصر كتاب البلدان ص ٦٣

(٧) كتاب البلدان ص ١٢٤

المجري) فيرى اليعقوبي أن النيل يجري من وراء علوة إلى أرض السند في النهر الذي يقال له مهران كما يجري في نيل مصر ، ويستشهد على ذلك بأن وقت زيادتهما واحد ، وأن في الجزيرة التي بأرض علوة مثل ما يجزائر السند من القبلة والكركدنات ، وأن التماسيح موجودة في نهر مهران كما في نيل مصر . واليعقوبي يقصد — على ما يظهر ، بجزيرة علوة المنطقة الواقعة بين نهري العظيرة والنيل الأزرق والتي كانت تعرف في المؤلفات اليونانية واللاتينية القديمة بجزيرة مروي .

ووجه العجب أن كل ما يستند إليه الجاحظ وابن الفقيه واليعقوبي هو أن وجود التماسيح في النيل والسند دلالة على كونهما نهراً واحداً . وقد رأينا كيف فند المسعودي — وهو من رجال القرن الرابع الهجري — هذا الرأي وذكر المنابع الحقيقية لنهر السند .

ولم يلق رأي الجاحظ هذا تعصيماً من المؤلفين العرب ، فلم يذكر بعد ذلك إلا في المؤلفات المتأخرة في القرن التاسع الهجري وبعده كمؤلفات الأقفهسي<sup>١</sup> والسيوطي<sup>٢</sup> وغيرهم ، على أنه رأي من الآراء المختلفة دون تأييد أو تفنيد .

أما ابن عبد السلام<sup>٣</sup> المتنوفي فقد ذكر هذا الرأي منسوباً إلى الإمام الشافعي نقلاً عن كتاب في مناقب الإمام لأبي القاسم عبد المحسن بن عثمان بن غانم المقدسي ، من أن النيل يمر بأرض الهند واستند في ذلك إلى وجود الخيزران والقنا في النيل . هذا وإن كان ابن عبد السلام يشك في نسبة هذا الكلام إلى الإمام الشافعي بل ينسبه إلى الربيع<sup>٤</sup> .

ولعل الجاحظ ومن تبعه في رأيه هذا أخذوا فكرة اتصال النيل بالسند عن الفرس وغيرهم من الأمم السابقة . إذ يروى الأستاذ هرمان<sup>٥</sup> أن الإسكندر الأكبر عندما وصل إلى نهر السند (حوالي سنة ٣٢٦ ق.م) دهش هو ورجاله عندما وجدوا النهر مليئاً بالتماسيح التي — كما يعتقدون — لا توجد إلا في النيل ، فراودتهم فكرة اتصال هذا النهر بالنيل وأنه قد يكون أحد منابعه ، وأن وجود التماسيح دليل على أن آسيا

---

(١) مخطوط نيل مصر وأهرامها — نسخة الإسكندرية ص ٤٣

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٦

(٣) الفيض المديد ص ١٢ ، ص ٢٧

(٤) هو أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي المؤذن صاحب الشافعي وراويته كتبه والثقة الثبت توفي سنة ٢٧٠ هـ (انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي الطبعة الأولى القاهرة — ج ١ ص ٢٥٩ ، ص ٢٦١) .

(٥) Herrmann ; op. cit. p. 116



وأفريقيا متصلتان في مكان ما نحو الجنوب ، ثم زاد في اقتناعهم وصولهم بعد ذلك بأسابيع إلى نهر هيداسبس Hydaspes ( أحد فروع السند ويعرف الآن باسم جيلوم Jhelum ) ووجدوا فيه أيضا التماسيح ، عند ذلك اعتقدوا أن هذين النهرين هما المنابع المجهولة لنهر النيل وأن الثلوج الذائبة المنحدرة من تلك الجبال الهائلة إلى هذين النهرين هي نفسها المياه التي يأتي بها النيل على مدار السنين . وعلى ذلك فإنه من الممكن الوصول إلى النيل بالإبحار في أحد هذين النهرين .

وعندما علم الإسكندر أن «أردشير الثالث Artaxerxes» ( ٣٥٨-٣٣٧ ق.م ) أحد ملوك فارس فكر في تجفيف نهر السند - الذي كان يعتقد أنه المنبع الحقيقي للنيل - حتى يؤدب بذلك العصاة المصريين ، أمر «أى الإسكندر» قائد أسطوله نياركوس Nearchus أن يبني أسطولا ليعود به إلى مصر عن طريق السند والنيل كما أنه كتب إلى أمه أنه اكتشف منابع النيل .

ولكنه سرعان ما علم أن نهرى السند وهيداسبس يصبان في المحيط وأنه لا علاقة لهما بالنيل فأدرك خطأه واستعاد خطابه إلى أمه .

لذلك فإنه من المرجح أن فكرة الفرس الأقدمين عن وجود اتصال بين السند والنيل قد وجدت طريقها إلى مؤلفات الجاحظ وغيره ، وأنه تلقاها ضمن ما انتقل إلى العرب من تراث الفرس ومعارفهم . ولعله مما زاد هذه الفكرة رسوخاً لدى الجاحظ وغيره اتصال النيل الأزرق بالنيل ، فاعتقدوا أنه نهر السند . يفسر لنا ذلك ما يراه اليعقوبى من اتصال جزيرة علوة بجزيرة السند ، وأن النيل يجري من وراء علوة إلى أرض السند . وكما قلنا سابقاً أنه من المرجح أن اليعقوبى يقصد بجزيرة علوة ، جزيرة مروى وأنه اعتقد أن النيل الأزرق الذى يصب في النيل في هذه المنطقة ، ليس رافداً له ، بل هو نهر السند يخرج من هناك إلى الهند .

( ب ) أما النهر الثانى فيختلف اسمه باختلاف الكتاب الذين يختلفون أيضا في مكان خروجه . والمسعودى هو أول من ذكر هذا النهر فيقول ١ : « رأيت في جغرافيا النيل مصوراً ظاهراً من تحت جبل القمر ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتى عشرة عيناً ، فتصب تلك المياه إلى بحيرتين هنالك كالبطائح ، ثم يجتمع الماء منها جارياً فيمر برمال هنالك وجبال ثم يحترق أرض السودان مما يلي بلاد الزنج فيتسع منه خليج يصب إلى بحر الزنج وهو بحر جزيرة قبلو وهي جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين إلا أن لغتهم زنجية . وذكر جماعة من نواخذة هذا البحر من السيرافيين والعمانيين

وهم أرباب المراكب أنهم يشاهدون في هذا البحر في الوقت الذي يكثر فيه زيادة النيل [بمصر أو قبل الأوان بمدة يسيرة ماء ينحرق هذا البحر ويشق قطعة منه من شدة جريانه يخرج من جبال الزنج عرضه أكثر من ميل ، عذبا حلواً يتكدر في إبان الزيادة بمصر وصعيدها ٥٠١] .

ويعني المسعودي بجغرافية النيل «جغرافية بطليموس» ولكن بطليموس لم يذكر هذا الخليج الذي يصب في بحر الزنج ، ولعل المسعودي اختلط عليه أمر النهر الذي ذكره بطليموس آتياً من الجنوب الشرقى ليصب في النيل (النيل الأزرق) وخلط بينه وبين خليجه هذا ، خصوصاً وأن المسعودي يجعل يخرج هذا الخليج من النيل بعد تركه بلاد الزنج ، فربما اعتقد أن هذا النهر الذي في مصور بطليموس خليج يخرج من النيل ليصب في بحر الزنج . ولا نعلم بالضبط المكان الذي جعله المسعودي مصباً لهذا الخليج ، وأين تقع جزيرة قبلو هذه . ويرجح البعض ١ أن المقصود بجزيرة قبلو هي إحدى جزر القمر Comoro Islands (شمال غرب مدغشقر) وبالأخص الجزيرة الغربية منها وتقع تجاه مصب نهر ليفومه ، وأنها على مسيرة يوم أو يومين من الشاطئ . على أن بعض المراجع الأخرى ٢ ترجح أن يكون هذا النهر هو نهر وبي بالصومال الإيطالي .

ونلاحظ أن الربط بين النيل وهذا النهر لم يصير شائعاً في المؤلفات العربية إلا ابتداء من القرن التاسع الهجري ، حيث يذكره ابن سعيد ويجعل يخرج من بحيرة كورى . كما أن الدمشقي شيخ الربرة يسميه نهر الدمام ومقدشو الزنج ، ويتفق مع ابن سعيد في خروجه من بحيرة كورى ، ويصفه بأنه ٣ : بحر كبير غزير الماء يخرج أيضاً من بحيرة كورى فيمر في مجالات دم دم السودان ولملم الزنوج وقلجور وحجامي الحبش ، بين جبال شم ثم لا ينتفع به مسيرة شهر ثم ينعطف نحو الشرق بعشرة أيام ثم يمر ببلاد خاصة العليا [وإبلين وأكاكي وكناور نحو من شهر ونصف شمالاً وشرقاً ثم يرجع إلى جهة الجنوب فيمر بأرض الهاوية إلى مقدشو الحمراء ، وتفرق منه فرقة تسمى نهر وبي وتسقي بلاد زيلع وباضع وزنجبار الساحل وبربرا ، فإذا قارب أرض مقدشو افترق ثلاث فرقات . ، أحدها يسمى الحب الكبير والثانية الحب الصغير والثالثة بحر دمدم كما هو ، ثم يصب الثلاثة في بحر الزنج من جهة الجنوب فيما هو خلف خط الاستواء بدرجتين أو ثلاث . ]

---

(١) المسيو جيان « وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية » تعريب يوسف

كمال ص ٨٠-٨١

(٢) E.I. art. «Al Nil».

(٣) نخبة الدهر ص ١١١

والدمشقي بلا شك يقصد نهر وبي ونهر الجلب Juba المعروفين في الصومال الإيطالي .  
ونرى في وصف القلقشندي ما يؤيد هذا الرأي حيث يقول ١ إن هذا النهر بعد  
خروجه من بحيرة كوري يذهب إلى مقلشو من بلاد الحبشة المسلمين على ساحل البحر  
الهندي مقابل بلاد اليمن .

أما ابن فضل الله العمرى ٢ فيجعل خروج هذا النهر من البحيرة الشرقية من  
بحيرتي النيل اللتين تقعان جنوب خط الاستواء ، وأنه يصب في البحر الهندي . ويتبعه في  
ذلك المقرئى ٣ الذى ينقل كلام العمرى بالنص ولو أنه لم يشر إليه . ولم يذكر المقرئى  
ولا العمرى اسماً لهذا النهر وإن جعلاً مصبه أيضاً في البحر الهندي . ولا نعلم هل هذا  
النهر الذى ذكره هو نفس النهر الذى ذكره الدمشقي أم أنه نهر آخر .

( ج ) نيل غانة ويطلقون عليه أيضاً نيل السودان ونيل الزنج . والمقصود به  
نهر النيجر المعروف .

وقد ظهر هذا الخلط بين النيل والنيجر منذ القرن الخامس ٤ الهجرى ( ١١ م )  
لأول مرة في مؤلف البكرى ٥ المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب ٥ . عند وصفه لبلاد  
السودان ومدن غانة وأنها تقع على النيل وسقيا أرضها منه ، وهو يقصد بالنيل نهر النيجر  
لا نيل مصر . ثم جاء الإدريسي ٦ في القرن السادس ليزيد ذلك إيضاحاً وتأكيداً ،  
فجعل يخرج نيل مصر ونيل السودان من بحيرة واحدة وأنه بينما يتجه نيل مصر شمالاً يخرج  
نيل السودان متجهاً إلى الغرب وعليه أكثر بلاد السودان .

ثم أخذ رأى الإدريسي في الشيوع منذ القرن السابع حيث ظهر بعد ذلك في مؤلفات  
ابن سعيد ثم ذاع في المؤلفات العربية ، فالدمشقي ٧ يصف نهر غانة وخروجه من  
بحيرة كوري ويمجى بين جبال من المشرق إلى المغرب حتى يصب في البحر المحيط المغربى  
المسمى اقبيا نوس الأخضر ، وأن هذا النهر يشبه النيل في زيادته ونقصانه وفلاحة أراضيه .

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٠

(٢) مسالك الأبصار ج ١ ص ٦٨

(٣) الخطط ج ١ ص ٥٣

(٤) لعل ابن سليم الأسوانى هو أول من خلط بين النيل والنيجر إذ يذكر عند ذكره علوة  
أن النيل الأبيض يأتي من الغرب وأنه يجتمع في بلد السودان وأنه سأل بعض المناربة عن هذا النيل  
الذى يأتي من عندهم . انظر المقرئى الخطط ج ١ ص ١٩٢ وما بعدها .

(٥) ص ١٧٧

(٦) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٥

(٧) نخبة الدهر ص ١١٠

وفي أول سنة (٨٧٥٣ - فبراير سنة ١٣٥٢ م) زار ابن بطوطة غرب إفريقيا وارتاد المنطقة المعروفة الآن بنيجيريا ورأى نهر النيجر ، وقد سماه النهر الأعظم وأنه هو النيل وأن هذا النهر عند مدينة يوفى - وهي أكبر بلاد السودان - ينحدر إلى بلاد النوبة ثم إلى دنقلة ثم إلى جنادل هي آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان . فهو على ذلك يعتقد أن النيجر والنيل نهر واحد . وفي الغالب فإن ابن بطوطة جاء بهذه الفكرة من سكان البلاد البلاد أنفسهم ، وأنهم كانوا يسمون نهرهم النيل ، يؤيد ذلك ما قاله ابن فضل الله العمري ١ : « وحدثني الشيخ الثبت سعيد الدكالي - وهو ممن أقام بمالي ٢ خمساً وثلاثين سنة مضطرباً في بلادها مجتمعاً بأهلها - قال : المستفيض ببلاد السودان أن النيل في أصله ينحدر من جبال سود تيان على بعد كان عليها الغمام ، ثم يتفرق نهرين يصب أحدهما في البحر المحيط إلى جهة بحر الظلمة الجنوبي ، والآخر يصل إلى مصر حتى يصب في البحر الشامي » .



نرى مما تقدم أن العرب قد ربطت بين النيل وبين أنهار ثلاثة أخرى لامت إلى بصلة . فأما اتصال النيل بالسند فقد فنده المؤلفون العرب أنفسهم كما رأينا . وقد تأثر الذين وقعوا في هذا الخطأ - في الغالب - بما كانت الفرس تعتقده من اتصال النيل بالسند واتصال آسيا بإفريقية ناحية الجنوب . كما أن فكرة الاتصال بين إفريقيا وآسيا ظلت عالقة في أذهان الغربيين حتى أواخر العصور الوسطى في الوقت الذي كان العرب يؤكدون بإمكان الدوران حول إفريقيا ، خصوصاً من كان منهم يقيم في شرق إفريقيا ٣ .

أما الخلط بين النيل ونهر غانة ونهر مقدشو ، فلعل للمؤلفين العرب بعض العذر في ذلك ، فإنه إذا أخذنا بالرأى القائل بأن بحيرة كوري كانت في المكان الذي يلتقي فيه النيل الأبيض بالسوبات وبحر الغزال وتمثلها الآن بحيرة نو ، استطعنا أن نرجح أن هؤلاء المؤلفين ظنوا أن بحر الغزال هو نيل غانة ، وأن نهر السوبات هو نيل مقدشو .

ولا يقلل هذا الربط بين النيل وغيره من الأنهار من شأن الجغرافيين العرب ، فإنه حتى القرن السابع ٤ عشر كانت خرائط إفريقيا تظهر وسطها بحيرة ينبع منها الكنفو والزمبيزي والنيل .

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٧٠

(٢) إحدى الممالك التي كانت تقع على نهر النيجر

(٣) Herrman ; op. cit. p. 422

(٤) Tousson ; op. cit. T.I p. 29



بل إن الأوربيين أنفسهم كانوا يعتقدون أن النيل والنيجر نهر واحد، وعندما اكتشف البرتغاليون السنغال عام ١٤٤٥ م اعتقد الجميع أنهم وصلوا إلى مصب الفرع الغربي للنيل (١) .

والتبس الأمر على الرحالة الأوربيين كما التبس على ابن بطوطة من قبل وخلطوا بين النيل والنيجر ، قال الرحالة الإيطالي انطونيو مالفانت (١) Antonio Malfante الذى توغل جنوب الصحراء الكبرى سنة ١٤٤٧ م - أى بعد ابن بطوطة بأقل من قرن - كتب يقول « وفي البلاد التى تقع إلى الجنوب يجرى نهر كبير يفيض فى وقت معين ، وهذا النهر يمر على تمبكتو ( على نهر النيجر ) ويأتى من مصر ، وهو الذى يصب فى البحر عند القاهرة وأنه كان من الممكن الوصول إلى مصر فى هذا النهر لولا الشلالات التى تعترض النهر ولا يمكن عبورها » .

وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى تم الكشف عن حوض النيجر من منبعه إلى مصبه ، وتبين أنه نهر مستقل لا علاقة له بالنيل.

---

(١) Herrmann, op. cit. p. 412

## الفصل الثاني

### المجرى

إن خروج النيل من الجنوب إلى الشمال حقيقة كانت معروفة تماماً للمراجع العربية التي تؤكد دائماً أن النيل هو النهر الوحيد في العالم الذي يجري من الجنوب إلى الشمال مخالفاً في ذلك سائر الأنهار التي تجري من الشمال إلى الجنوب حيث أن الشمال - في رأيها - أكثر ارتفاعاً عن الجنوب وأكثر ميالاً ١ .

ولا شك أن معلومات العرب عن مجرى النيل كانت أوضح وأدق من معلوماتهم عن منابعه فهم قد عرفوا النيل ومجراه في مصر كما أن المسلمين قد وصلوا في توغلهم الحربي حتى دنقلة كما استطاع بعضهم كابن سليم أن يصل حتى منطقة الخرطوم الحالية ، فهذه المنطقة يجنادها كانت معروفة لهم .

هذا وإن اعتمدوا - في أول الأمر على الأقل - على المراجع القديمة لتكوين فكرة كاملة عن مجرى النيل ، وخاصة وصف بطليموس ، ويمكن ملاحظة ذلك بمقارنة خريطة بطليموس بخريطة الخوارزمي . كما أن وصف المؤلفين السابقين على الإسلام لمجرى النيل خاصة في منطقة انحناءته الكبرى والتقاءه بالنيل الأزرق وعطبرة كان أكثر دقة مما أورده المؤلفون العرب .

ووصف الكتاب العرب لمجرى النيل يأخذ طابعاً أقرب إلى الصحة منذ وصوله إلى علوة متجهاً شمالاً ، أما إلى الجنوب من علوة فالمعلومات مضطربة وغير دقيقة شأنهم في ذلك شأن المراجع السابقة على الإسلام ، بل إن الخرائط الجغرافية ظلت حتى سنة ١٨٣٩ تقف عند رسم مجرى النيل عند جنوبي موقع الخرطوم الحالي .

---

(١) يذكر بعض الكتاب العرب أنهاراً أخرى تجرى من الجنوب إلى الشمال . فابن حوقل (صورة الأرض ص ١٥٢) يذكر أن نهر الأردن مثل النيل يجري من الجنوب إلى الشمال . والنويري (نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٥) يقول إن نهر مهران السند ونهر الأرفط وهو العاصي يجريان من الجنوب إلى الشمال . والحقيقة أن نهر الأردن يجري من الشمال إلى الجنوب ونهر السند يجري من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي .

ولما كانت معلومات العرب عن مجرى النيل تختلف من حيث دقتها وصحتها من جزء لآخر لذلك يمكن تقسيم مجرى النيل إلى ثلاثة أقسام بحسب مقدار صدق معلوماتهم عنها :

( ١ ) القسم الأول منذ خروج النيل من منابعه حتى وصوله علوة ، وهي منطقة معلومات العرب عنها ضئيلة ولا تعتمد على معلومات صحيحة ، وقد أغفلها كثير من الكتاب العرب . وأول من تعرض لذكرها ابن الفقيه فيقول ١ : « ومن خلف علوا أمة من السودان تدعى بكنة وهم عراة مثل الزنج وفي بلادهم يفرق النيل » . وأورد المسعودي ٢ على لسان القبطي المعمر في قصته مع ابن طولون قوله : « ووراء علوة أمة عظيمة من السودان تدعى بكنة وهم عراة كالزنج وأرضهم تنبت الذهب وفي مملكة هذه الأمة يفرق النيل فيتشعب منه خليج عظيم ثم يخضر الخليج من بعد انفصاله عن النيل وينحدر الأكثر إلى بلاد النوبة وهو النيل لا يتغير فإذا كان بعض الأزمنة انفصل الأكثر من الماء في ذلك الخليج وابيض الأكثر واخضر الأقل فيشق ذلك الخليج في أودية وخلجان وأعماق مأنوسة حتى يخرج إلى خلايس الجنوب وذلك على ساحل الزنج ومصبه في بحرهم » .

ويصف الإدريسي هذا القسم بقوله ٣ : « وفي هذا الجزء افرق النيلين أعنى نيل مصر الذى يشق أرضنا وجريه من الجنوب إلى الشمال وأكثر مدن مصر على ضفتيه معاً وفي جزائره أيضاً . والقسم الثانى من النيل يمر من جهة المشرق إلى أقصى المغرب ، وعلى هذا القسم من النيل جميع بلاد السودان أو أكثرها » . ويتفق ابن فضل الله ٤ العمرى مع الإدريسي في وصفه هذا .

أما ابن بطوطة ٥ فيخلط بين النيل والنيجر في هذه المنطقة حيث إنه في رحلته الثالثة سنة ٧٥٣ هـ وصل إلى مدينة كارسخو على نهر النيجر وظنه النيل ، وذكر أنه ينحدر من كارسخو إلى بلدة كايبرة فبلدة زاغة ثم إلى تمبكتو ثم ينحدر من تمبكتو إلى بلدة كوكو ثم إلى بلدة مولى فبلدة يوفى حيث ينحدر إلى بلاد النوبة ودنقلة ثم إلى مصر .

ويذكر المقرئى ٦ وصفاً لهذه المنطقة على لسان ابن سليم الأسوانى وإن كان أكثر

(١) مختصر كتاب البلدان ص ٧٦

(٢) المروج ج ٢ ص ٣٨٣

(٣) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٤ .

(٤) مسالك الأبصار ج ١ ص ٦٨-٦٩

(٥) الرحلة ج ٢ ص ١٩٣-١٩٤

(٦) الخطط ج ١ ص ١٩٢

هذه المعلومات وصلت ابن سليم عن طريق السماع . فالنيل في هذه المنطقة كما يقول ابن سليم يتشعب إلى سبعة أنهار ، منها نهر يأتي من الشرق كدر الماء يجف في الصيف ويأتي من عين عظيمة تقع على جبل هناك . والنيل الأبيض يأتي من الغرب ١ ولون مائه شديد البياض مثل اللبن ، وقد سأل ابن سليم بعض المغاربة الذين قابلهم عن النيل الذي عندهم وعن لونه فأفادوه أنه يخرج من جبال الرمل وأنه يجتمع في بلد السودان في برك عظام ، ثم ينصب إلى مالا يعرف وأنه ليس أبيض ، فيما أن يكون اكتسب ذلك اللون مما يمر عليه أو من نهر آخر ينصب إليه .

أما النهر الثالث فيطلق عليه ابن سليم اسم النيل الأخضر ويأتي من الشرق حيث يتصل بالنيل الأبيض عند علوة وبينهما جزيرة يصفها ابن سليم بأنه لا يدرك سعتها ولا يعرف لها نهاية . وفي هذا النهر تصب الأنهار الأربعة الأخرى ، وإن هذه الأنهار تزيد في وقت واحد نتيجة للأمطار . ولكنه عجز عن معرفة نهاية هذه الأنهار رغم كثرة سؤاله وكل ما أخبر به أنها تأتي من خراب وإن استتج أنه بعد الخراب عمران لما يأتي فيه وقت الزيادة من أخشاب وأشياء تدل على وجود حياة .

ويقدر الكتاب العرب مسيرة النيل في هذا الجزء الخراب أربعة أشهر وهي مسافة طويلة بالنسبة للجزء الباقي من مجرى النيل حيث يقدرونه في النوبة ومصر بثلاثة أشهر .  
( ب ) أما الجزء الثاني فمن علوة ( الخرطوم ) حتى أسوان ، ومعلومات الكتاب العرب في مجموعها تدل على معرفة بهذا الإقليم من حيث طبيعة أرضه وسكانه ويقدررون مسيرة النيل في هذا الجزء بشهرين .

ويتبين من خريطة الخوارزمي للنيل ، أنه كان على علم تام بانحناءة النيل الكبرى وإن أخطأ في رسم الموضع الذي يلتقي النيل بروافده الآتي من الشرق حيث جعله إلى الشمال كثيراً من مكان اتصاله الحقيقي . ويذكر الخوارزمي البلاد التي يمر عليها النيل في هذه المنطقة فيذكر علوة وزغاوة وفزان والنوبة . وقد أخطأ بوضع زغاوة وفزان في الشرق حيث إنها تقع بعيداً إلى الغرب من النيل ، وزغاوة حالياً تقع إلى شمال دارفور وإن كانوا في القرون الوسطى يقيمون إلى الغرب من ذلك بمسافة طويلة ٢ .

ويهمل الكتاب العرب وصف انحناءة النيل في هذه المنطقة حتى الخوارزمي الذي أظهرها في خريطة لم يذكرها في وصفه ، ولم يذكرها إلا ابن سليم كما سيرد في حينه .

---

(١) لعل ابن سليم في ذكره هذا النهر الذي يأتي من المغرب يكون أول من جمع بين النيل والنيجر .

(٢) Macmichael; A History of The Arabs in the Sudan p. 54.



ويقول النويرى ١ فى وصفه لهذا الجزء أن النيل إذا بلغ دنقلة عطف من غربها إلى المغرب وانحدر إلى الإقليم الثانى فىكون على شطيه عمارة النوبة . ولعله بهذا الوصف يشير إلى انحناء النيل بعد أبو حمد حيث يتجه إلى الجنوب الغربى ، فإذا كان هذا ما يقصده يكون قد أخطأ فى المكان الذى يبدأ فيه النيل فى انحنائه للغرب ، إذ إن النيل عند دنقلة القديمة يكون قد انتهى من انحنائه وبدأ فى الاتجاه شمالاً .

ومن أهم من تعرض لوصف هذا الجزء ابن سليم والإدريسى ٢ وإن كان وصف ابن سليم الذى يعتمد على المشاهدة والاتصال الشخصى هو أهم وصف عربى لهذه المنطقة ، فابن سليم يذكر فى هذه المنطقة ثلاثة جنادل فى حين أن الكتاب الآخرين لم يذكروا إلا الجندل الأول الذى يقع جنوب أسوان . وإن كان ابن حوقل ٣ المعاصر للمسعودى يذكر علاوة على الجندل الأول الجندل القريب من دنقلة ولعله يقصد الجندل الثالث .

ويذكر ابن سليم ٤ أنه عند قرى تقع على شاطئ النيل تعرف بالأبواب ( كابوشيا ) ٥ - وكانت تقع فى أقصى الشمال من مملكة علوة - تجتمع فروع سبعة للنيل ، ستة تأتي من الشرق أهمها النيل الأخضر الذى تتصل به بقية الفروع الستة ، والنيل الأبيض ويأتى من ناحية الغرب . وعند التقاء النيلين الأبيض والأخضر تقع جزيرة يصفها ابن سليم بأنه لا يعرف لها غاية وأن بعض مملكى علوة أراد أن يأتى نهايتها فلم يأت عليها بعد سنين ، والراجح أنه يقصد جزيرة مروى Moroe التى تكلم عنها اراتوستين وبليني وبطليموس واسترابون وغيرهم من الكتاب السابقين على الإسلام . وتقع سوبة عاصمة علوة ( مكان الخرطوم ) عند ملتقى النيلين الأخضر والأبيض .

ويصف ابن سليم انحناء النيل الكبرى فيذكر أن النيل ينعطف فى المنطقة بين دنقلة وأول بلد علوة إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر . كما يذكر أن المسافة بين دنقلة وأول علوة أطول من المسافة بينها وبين أسوان والى يقدرها بنحسين مرحلة ( ٦٠٠ كم ) . وبعد أن يترك النيل علوة يخترق أرض النوبة وفى الشرق تقع أرض البجة ، وهو يذكر أن علوة أكثر خصباً وأوفر ثروة ، كما أن الجزء الجنوبي

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٢

(٢) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٩ وما بعدها .

(٣) صورة الأرض ص ١٤٥

(٤) انظر المقرئى ، الخطط ج ١ ص ١٩٠ وما بعدها

(٥)

من النوبة الذى يقع جنوب الشلال الثالث أخصب من الجزء الواقع شمال هذا الجندل والذى يمتد حتى حدود مصر . ويصف الجندل الثالث بأنه أشد الجندل صعوبة وأنه جبل معترض من الشرق إلى الغرب فى النيل والماء ينصب من ثلاثة أبواب وربما رجع إلى باين عند انحساره ، أما الجندل الثانى الواقع إلى شماله ويقع أيضاً فى أرض النوبة فإنه تنتهى سفن النوبة القادمة من الشمال ولا تتجاوزه ، كما أنه لم يكن من المسموح لأحد تجاوز هذه المنطقة جنوباً إلا بإذن من حاكم المنطقة .

أما الجزء الواقع إلى الشمال من الجندل الثانى - ويقع حالياً فى الأراضى المصرية - فيصفه بأنه ناحية ضيقة شططة كثيرة الجبال التى تقترب من النيل حتى أصبحت الرقعة الزراعية ضيقة وقراها مترامية على الشاطئ وتروى مزارعها على أعناق البقر بالدواليب ( السواقى ) ، ومن أهم المدن فى هذه المنطقة التى يذكرها ابن سليم عدوة ( الدر ) وابريم ، وكان للمسلمين فى هذه الناحية أملاك خصوصاً فيما يلى حدود مصر . ويقول المسعودى ١ : « ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلية بأرض النوبة يؤدون خراجها إلى ملك النوبة ، وابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الزمان فى دولة بنى أمية وبنى العباس ... وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس . »

ثم تنتهى حدود النوبة عند مدينة بلاق عند الجندل الأول وهو الحد الذى ينتهى إليه سفن النوبة وسفن المسلمين . وقد جعل الإدريسي مدينة بلاق المكان الذى يلتقى فيه النيل برافده الآتى من الحبشة فيقول ٢ : « ومدينة بلاق من مدن النوبة وهى بين ذراعين من النيل وأهلها متحضرون ومعاشهم حسنة ، وأرضها تسقى بالنيل وماء النهر الذى يأتى من بلاد الحبشة وهو واد كبير جداً يمد النيل وموقعه بمقربة من مدينة بلاق . » أما ابن خلدون ٣ فيجعل موقع علوة بين دنقلة وبلق .

ويذكر الدمشقى شيخ الربوة ٤ أن النيل يخفى تحت الأرض فى بلاد النوبة نحو ثلاثة مراحل ثم يظهر ويمر شمالاً حتى يصل إلى دنقلة . وهو وصف لم يشاركه فيه أحد من الكتاب العرب اللهم إلا الإدريسي عند ذكره لنهر كوكو وخروجه من جبل يتصل رأسه بالنيل فيقول ٥ : « وزعموا أن النيل يغوص تحت ذلك الجبل ويخرج من

---

(١) المروج ج ١ ص ١٩٠

(٢) « صفة المغرب وأرض السودان ومصر » ص ١٩

(٣) المقدمة ( ج ١ ) ص ٤٨

(٤) نخبة الدهر ص ٨٩

(٥) المرجع السابق ص ٣٧ ( صفة المغرب )

طرفه الآخر حيث يظهر خروجه ويمر حتى يتصل بكوكو ثم يمر مغرباً في الصحراء فيغوص في الرمال ١ . ووصف الأديسي هذا يرجع دون شك إلى نيل السودان لانييل مصر . وربما أخذ الدمشقي هذا الرأي من الإديسي وحوره وأضافه للنيل أو لعله جاء برأيه هذا نتيجة لآراء قديمة ، كما أن هذا الرأي صار أساساً - على ما يظهر - لأسطورة تقول بوجود فرع جوفي لنهر النيل يتجه إلى الواحات ، وظل هذا الفرع الجوفي يظهر في الخرائط الجغرافية حتى سنة ١٨٦٠ م .

وتعرض كثير من المؤلفات العربية لذكر الشعوب التي تقيم في هذه المنطقة وهي النوبة والبهجة والحبشة . ويرجع الكتاب العرب - كاليقوبي ١ والمسعودي ٢ - نسبهم إلى كوش بن حام من ولد نوح . وأن ولد كوش انقسموا فرقتين فرقة استقرت في هذا الجزء وهي السابق ذكر شعوبها ، والفرقة الأخرى عبرت النهر إلى الغرب حيث استقرت في منطقة نهر النيجر وبحيرة تشاد ومنهم الزغاوة وكوكو وغيرهم .

وعندما فتح العرب مصر وجدوا إلى الجنوب منها النوبيين . وأول ما ظهر لفظ النوبيين في جغرافية ايراستين الذي ذكرهم باسم Nabatae والأصل المصري القديم لكلمة النوبة ٣ مشتق من لفظ أونوبو بمعنى الذهب أي أنها بلاد الذهب . ويظهر أن العرب استعملوا كلمة النوبيين ٤ التي وجدوها مستعملة في مصر وأطلقوها على العناصر التي تقيم جنوب الشلال الأول .

وقد اختلف الكتاب المحدثون في أصل الشعب النوبي هل هو زنجي تعرض لهجرات قوقازية من الشمال والشرق والغرب ، أو أنه شعب حامى قوقازي تأثر بهجرات زنجية . ولكن البعض ٥ يرى أن النوبيين من أصول قوقازية حامية عريقة قديمة مؤيدين بذلك ما ذكره الكتاب العرب .

وقبل ظهور الإسلام بمدة وجيزة كانت هناك ثلاث ممالك تمتد على النيل من حدود مصر الجنوبية حتى النيل الأزرق ، هي النوبة والمقرة وعلوة . وفي ذلك يقول يوحنا الأفسوسي ٦ : « إن القس جوليان - مبعوث الامبراطورة ثيودورا زوجة جستنيان -

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢١٦

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٨١

(٣) الدكتور عوض محمد عوض « السودان الشمالي » ص ٣٠١

(٤) Macmichael ; op. cit. p. 12. —

(٥) الدكتور عوض محمد عوض - المرجع السابق - ص ٢٩٣

(٦) Kirwan ; op. cit.

الذى وصل إلى الشلال الأول بين سنتي ٥٤٠ - ٥٤٨ م وجد أن البلاد جنوب الشلال الأول خاضعة للتوبيين Nobadae وأن إلى الجنوب من النوبة شعب قوى آخر هم علوة وأنه بين علوة والنوبة شعب آخر هم المقررة . ولكن في النصف الثاني للقرن السادس الميلادي تكونت في شمال النوبة مملكة مسيحية تحت حكم الملك سيكو الذي أنشأ دنقلة ( القديمة ) التي ظلت عاصمة للنوبة لمدة سبعة قرون ، وبذلك يكون قد ضم المقررة إلى مملكته وأصبحت النوبة تمتد من الشلال الأول حتى حدود علوة . يؤيد ذلك أنه عندما قام عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى مصر في عهد عثمان بغزوته الثانية على النوبة سنة ٣١ هـ ( ٦٥١-٦٥٢ م ) ودمر دنقلة ، كتب معاهدة مع ملك النوبة جاء فيها أنها معاهدة من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى عظيم النوبة ومن تحت حكمه من حدود أسوان حتى حدود علوة ١ .

بل إن المسعودي الذي زار مصر في ولاية الإخشيد محمد بن طنج ( ٣٢٣-٣٣٤ هـ - ٩٣٥-٩٤٦ م ) يقرر أن مملكة النوبة كانت تضم علوة أيضاً إذ يقول ٢ : « وأما النوبة فافترقت فرقتين ، فرقة في شرق النيل وغربه وأناخت على شاطئته فاتصلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد من بلاد أسوان وغيرها واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعبه ولحقوا بقريب من أعاليه وبنوا دار مملكة وهي مدينة عظيمة تدعى دنقلة ٥

والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة وبنوا مدينة عظيمة وسموها سوبة . وانتهيت من تصنيفي إلى هذا الموضع من كتابنا هذا في شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٢ فأخبرت أن الملك في مدينة دنقلة إلى النوبة كبرا بن سرور ، وهو ملك ابن ملك فصاعدا ، وملكه يحتوى على أم قرية وعلوة والبلد المتصل بمملكته بأرض أسوان يعرف بمريس وإليه تضاف الزنج المريسية . فالمسعودي يرى أن مملكة هذا الملك كانت تضم المريس في الشمال والمقررة وعلوة .

ويذكر ابن سليم في كتابه عن « النوبة والمقررة وعلوة والبجة والنيل » . ما سبق أن ذكره المسعودي من أن لبعض المسلمين من أسوان ضياعاً كثيرة بأرض النوبة يؤدون خراجها لملك النوبة ، ويذكر المسعودي ٣ أن ملك النوبة حاول أن يحتكم إلى الخليفة

---

(١) انظر المقرريزي « المخطط » ج ١ ص ٢٠٠

(٢) المروج ج ١ باب ٣١ ص ١٨٨

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ١٩٠



المأمون ١ عند حضوره مصر ( المحرم سنة ٢١٧ هـ - سنة ٨٣٢ م ) في أمر هذه الأملاك ولكن قضاته أقرت المسلمين على ما بأيديهم .

ويذكر ابن سليم أن بعض النوبيين الذين يقيمون إلى الشمال من الشلال الثاني تحولوا إلى الإسلام ، كما ذكر بعض المدن في هذا الجزء الشمالى مثل نجراش ( فرس ) عاصمة هذا الإقليم وسماها مدينة المريس ، وقلعة ابريم وميناء أدواء ( الدر ) ( قرب معبد أبو سمبل ) ويحكم هذا الإقليم الشمالى حاكم قوى يعرف بصاحب الجبل خاضع للملك النوبة فقد وصفه ابن سليم بأنه من أجل ولائهم لقرية من أرض الإسلام . وكان الشلال الثانى حداً لا يسمح لأحد - لا من المسلمين أو غيرهم - بتجاوزه إلى الجنوب إلا بإذن صاحب الجبل ، والظاهر أن منطقة نفوذه كانت تمتد جنوباً حتى ساي ٢ . وجنوب المنطقة التى يحكمها صاحب الجبل لم تكن النفود معروفة وكان يحدث تبادل بضائع الشمال بعبيد وماشية وجمال وحديد وجبوب . وكانت لغة المريس هى المستعملة حتى بلدة ياستو ( على بعد ٣٦ ميلاً جنوب الشلال الثالث قريباً من أبى قاطمة ) . وكانت ياستو الحد بين المريس والمقرة ٢ . وإلى الجنوب من هذا المكان يقع اقليمان هما بقون وسفد بقل التى تمتد جنوباً حتى دنقلة التى كانت عاصمة كل الإقليم من حدود مصر حتى حدود علوة . ويصف ابن سليم خصب وغنى الإقليم على جازى النيل عند دنقلة . ولم يذكر ابن سليم شيئاً عن السكان الأصليين ، ولكنه يتحدث عن جنس من البجة يعرفون بالزنافج أقام في هذه المنطقة ( فيما بين أبو حمد وبربر ) من قديم وقد احتفظوا بلغتهم ولا يخالطون النوبة وعليهم وال من قبل النوبة . كما أنه من هذا الموضع تخرج طريق إلى سواحل البحر الأحمر ، ويقول ابن سليم أن منها عبر من نجا من بنى أمية عند هربهم إلى النوبة بعد زوال دولتهم .

ويمتد إقليم دنقلة جنوباً حتى بلدة الأبواب التى كانت الحد الشمالى لعلوة ويحكمها ملك اسمه الرحراح تابع للملك علوة الذى كان على عهد ابن سليم يدعى سميون ٣ .

من ذلك نرى أنه عند الفتح العربى لمصر وبعده كانت توجد مملكتان على ضفتى النيل في هذا الجزء ، الأولى جنوب أسوان وتمتد حتى كابوشيا ، يسكن في الجزء الشمال المريس وفي الجنوبى المقررة لكل منهما لغته . ويقول المقريزى ٣ إن المريس والمقرة من اليمن ومن حمير بالذات ، وأن جد المريس يدعى سلها وجد المقررة يدعى المقرى . والمملكة الثانية

---

(١) يذكر المقريزى في الخطط ج ١ ص ٢٠١ أن هذه الشكوى رفعت للمعتصم .

(٢) Macmichael ; op. cit. p. 170.

(٣) انظر المقريزى الخطط ج ١ ص ١٩٠ وما بعدها .

هى علوة وعاصمتها سوبة وأنها كانت مستقلة عن المملكة الشمالية . هذا وإن لم يمنع من أن الجزء الشمالى للمملكة كان فى بعض الأوقات يخضع للملك النوبة .

ولما فتح العرب مصر كان من الطبيعى أن يحتكوا بهؤلاء الجيران الجنوبيين . ويذكر المسعودى ١ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر عمرو بن العاص بمحاربة النوبة فأرسل إليهم نافع بن عبد القيس القهرى واستمرت المناوشات والحروب بينهم حتى عزل عمرو بن العاص فى زمن عثمان ووليها عبد الله بن سعد الذى قام بغزوة فى سنة ٣١ هـ (ابريل - مايو سنة ٦٥٢ م) وصالحهم على جزية سنوية من العبيد تعرف باسم البقط ٢ وتكون من ٣٦٥ رأساً لبيت مال المسلمين وأربعين رأساً لأمير مصر ، وعشرين لخليفته المقيم بأسوان والذى كان يتسلم هذا البقط ولحاكم أسوان الذى يحضر مع هذا الخليفة قبض القبط خمسة رؤوس ولائى عشر شاهداً عدولاً من أهل أسوان يحضرون معه اثني عشر رأساً . وكان الموضع الذى يسلم فيه هذا البقط يعرف بالقصر على بعد ستة أميال جنوب أسوان .

ويقول المسعودى ١ إن هذه الجزية ظلت تدفع سنوياً حتى أيامه ٣ . وظلت سارية لمدة ستمائة سنة ٤ . هذا بالرغم من أنه قد قامت بعض حملات تأديبية فى أوقات متفرقة إلى النوبة عندما كانوا ينقضون الهدنة أو يهاجمون أسوان ، أما فيما عدا ذلك كانت علاقة مصر بالنوبة يسودها السلام بوجه عام وتقوم على تبادل التجارة .

وقد أخذ المسلمون يستوطنون هذه البلاد ويقتنون بها الأراضى ، ودخل بعض النوبيين فى الجزء الشمالى فى الإسلام كما رأينا فى تقرير ابن سليم . ولا شك أن بلاد النوبة مثلها مثل مصر وباقي السودان قد تعرضت لهجرات عربية قبل الإسلام وبعده . هذا وقد دخلت المؤثرات والسلالات العربية من طريقين ٥ :

الأول : من الشمال حيث انتشرت قبائل عربية أكثرها من ربيعة ما بين الشلال

- 
- (١) المسعودى مروج الذهب ج ١ ص ١٩٠  
(٢) كلمة البقط إماماًخوذة من الكلمة المصرية القديمة باق Bak بمعنى عبد أو من الكلمة اللاتينية Pactum ومعناها عقد أو اتفاق . أو أنها عربية الأصل بمعنى نبذة أو قطعة أو فرقة .  
انظر اللسان - سيده الكاشف « مصر فى فجر الإسلام » ص ١٥ الهامش -

Trimingham; op. cit. 62 — E.L.; op. cit

(٣) يذكر المقرئى فى الخطط ج ١ ص ٢٠١ أن المعتصم جعل دفع البقط كل ثلاث سنوات .

(٤) Macmichael; op. cit. p. 157.

(٥) الدكتور عوض محمد عوض المرجع السابق ص ٢٩٩ .

الأول ووادي حلفا ، وهو الإقليم الذي كان يطلق عليه اسم مريس وهي كلمة قبطية بمعنى الجنوب أو الإقليم الجنوبي .

الثاني : من الجزيرة العربية مباشرة .

والذي لا شك فيه أن استقرار العرب في النوبة أخذ شكلاً واسعاً يتزايد باستمرار حتى إذا كان القرن التاسع الهجري ( ١٥ م ) ، صارت المنطقة بين الشلالين الأول والثاني وربما حتى دنقلة ، في مظهر يشبه ما هي عليه اليوم ١ .

والنوبيون في الوقت الحاضر يحتلون مساحة من النهر قد تكون أقل من نصف المساحة التي كانوا يحتلونها من قبل ، وتمتد أوطانهم اليوم من أسوان شمالاً حتى الدبة جنوباً . وينقسمون خمس مجموعات رئيسية هي الدناقلة في الجنوب ما بين الدبة وأبي فاطمة ، ثم المحس والسكوت في إقليم الجنادل ، والقديجة ما بين وادي حلفا وكورسكو والكنوز في الجزء الممتد من كرسكو حتى أسوان . والنسب العربي في الدناقلة قوى حتى أنه ليس من السهل أن يميز المرء بينهم وبين جيرانهم من عرب البديرية . كذلك نلاحظ هذه الصلة قوية بين الكنوز الذين لا يكاد تختلف ملامحهم في شيء عن سكان الوجه القبلي في مصر ، وذلك لا شك راجع إلى أن هذا الإقليم قد استحال إلى مستعمرة عربية على أثر الفتح العربي لمصر ونزلت قبائل من ربيعة ومصر وبعض الجهنين ، وهو أول إقليم زالت عنه سلطة ملك النوبة المسيحي وتحول في وقت متقدم إلى الإسلام ٢ .

أما مملكة علوة ، فكانت تمتد من الأبواب ( كابوشيا ) حتى سنار جنوباً ٣ ، وعاصمتها سوبة ( قرب موقع الخرطوم ) . ويقول بعض الباحثين (٤) إنه بعد أن أنشئت مملكة النوبة المسيحية في القرن السادس الميلادي وصارت عاصمتها دنقلة انتشرت المسيحية بعد ذلك في جزيرة نروى وأنشئت بعد ذلك مملكة علوة . وكانت بلاد النوبة الشمالية هي العامل الأكبر في إنشاء هاتين الدولتين ٤ .

ويصف ابن سليم سوبة عاصمة علوة بأنه كان بها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس ، كثيرة الذهب ، وأن دين علوة النصرانية على مذهب اليعاقبة وأن أساقفتهم من قبل صاحب

---

(١) Macmichael ; op. cit. p. 188.

(٢) الدكتور محمد عوض محمد المرجع السابق ص ٣٠٣-٣٠٤

(٣) Kirwan ; op. cit:

(٤) الدكتور محمد عوض محمد المرجع السابق ص ٢٩٩

الإسكندرية كالنوبة . وأن علوة أكثر ثراء من النوبة وإن كانوا — كما يقول — أقل فهماً منهم .

وعلى شاطئ العظيرة كانت تسكن قبيلة الديجيون التي تتصل من جهة بسكان علوة ومن جهة أخرى بالبجة . ويليهم البازة على حدود الحبشة ، ولعل البازة هؤلاء هم الذين ذكرهم اليعقوبى ١ عند ذكره ممالك البجة باسم مملكة بازين وأنهم يتأخمون مملكة علوة .

وفي الجزيرة جنوب علوة يسكن قوم يعرفون باسم الكرنيتا بلادهم غنية خصبة يزرعون على ماء النيل والمطر ، ومساحتها — كما يقدرها ابن سليم ١ شهرين في شهرين ، وميزة بلد علوة من هذه الناحية فيوجهون المراكب فتوسق وربما وقع بينهم الحرب ، فهم بذلك خاضعين إلى حد ما للملك علوة .

وقد أخذ النفوذ العربى يتوغل في علوة منذ زمن بعيد يرجع إلى الأقل إلى القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) ، يؤكد ذلك ما قرره ابن سليم ٢ عند حديثه عن سوية أن لها رباطاً فيه جماعة من المسلمين . وفي أوائل القرن الثامن الهجرى أخذ هذا النفوذ العربى يشتد وينتشر ، وفي عام ( ١٤٧٤ م — ٨٨١ هـ ) أنشأ العرب مدينة أريحي على النيل الأزرق . وفي سنة ( ٩١٠ هـ — ١٥٠٤ م ) هوجمت مملكة علوة من الشمال والجنوب وقامت على أنقاضها دولة الفنج التي أنشأت عاصمة لها مدينة سنار القديمة ( تقع شمال سنار الجديدة بثلاثة أميال ) . ورواية الفنج عن نشأتهم الأولى تتلخص في أن أجدادهم من بنى أمية الذين هربوا إلى الحبشة بعد قيام الدولة العباسية وأنهم صاهروا الحبشة ومن هذا التزاوج جاء الفنج ، وإن كان بعض الكتاب لم يقبل هذه الرواية لأنها تتعارض مع ما جاء في رحلات السائح الاسكتلندى بروم ، الذى مر بهذه الجهات في أواخر القرن الثامن عشر وقال إن الفنج من أصل شلكاوى (٣) .

أما البجة فهم تلك القبائل الرحل التي تسكن الصحراء الشرقية بين البحر الأحمر والنيل من قوص شمالاً حتى حدود الحبشة . والبجة مثل النوبة معرقون في القدم ، ولكنهم بحكم بيئتهم وانقطاعهم عن طرق المهاجرة أصبى جوهرأ من النوبة ، لم يتعرضوا للاختلاط بعناصر غريبة عنهم كما تعرض النوبيون ٤ ، وقد استوطنوا البلاد التي يسكنونها اليوم منذ آلاف السنين وكان يطلق عليهم في العصور القديمة البليميز Blemyes

(١) تاريخ اليعقوبى ص ٢١٧

(٢) المقرئى الخطط ج ١ ص ١٩٣

(٣) الدكتور عوض محمد عوض المرجع السابق ص ٢٥٢-٢٥٣

(٤) المرجع السابق ص ٢٢



والبجة حاميون مثل النوبة وقد تشعبوا قبائل ، قسمهم اليعقوبى ١ إلى ست ممالك الأولى متاخمة لحدود مصر وهى مملكة نقيس وعاصمتها هجر ، ومملكة بقلين ومملكة بازين وهى التى ذكرها ابن سليم باسم بازه ثم مملكة جارين ومملكة قطعة ثم مملكة النجاشى ، فهو بذلك ينسب الأحباش إلى البجة .

ولكن المسعودى ٢ لم يذكر لهم ممالك بل يقول إنهم انقسموا إلى فرق نصبت لها ملكاً واحداً . ثم جاء المقرئى ٣ بعد ذلك بعدة قرون ليقرر أن البجة ليس لها ملك بل كان لها قديماً رئيس يرجع إليه رؤساؤهم ويقيم فى قرية هجر .

والبجة قوم رحل يعيشون على الرعى ويتبعون الكلاً وإقامتهم فى أخبية من جلود وأنسابهم من جهة النساء ، وهم قوم سلب ونهب فكانوا يغيرون على بلاد النوبة كما أنهم كانوا يغيرون على صعيد مصر قبل الإسلام وبعده ، إلى أن خالطهم المسلمون وتزوجوا فيهم وأغلب هؤلاء من عرب ربيعة ومضر وقحطانيين من اليمن ، ولكن الغلبة كانت لربيعة والزعامة فيهم ، وكان الجميع خاضعين — فى زمن المسعودى — لبشر بن مروان ابن إسحق من ربيعة ، وذكر أنه يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألفاً من البجة من فرع يعرف بالحدارب الذين أسلموا من دون سائر البجة التى بقيت على وثنياتها ٢ .

وعندما فتح العرب مصر ، أرسلت البعثات لاستغلال المناجم القديمة الواقعة فى أرض البجة ، ولكن هؤلاء قاوموا توغل المسلمين فترة ما ، ثم حدث الاختلاط بين العرب وبينهم وأقام كثير من القبائل العربية والتجار المسلمون بين البجة وتزوجوا منهم واندمجوا فيهم . ولم يكن بد من أن يتأثر البجة بالإسلام والثقافة العربية تأثيراً شديداً ، فلم يلبثوا أن أصبحوا جميعاً مسلمين ، لا يدينون بدين آخر . وبلغ من أثر العرب فيهم أن خلفاءهم اليوم من البشارية والأمرار والمهندوه ، ينكرون أى نسب آخر ويؤكدون أنهم من أصل عربى ويرجحونه على نسبهم البجاوى العريق القديم ٤ .

فإذا ما دخل النهر أرض مصر نجد أن صلة العرب به صارت صلة وثيقة ومعلوماتهم عن مجراه فيها مبنية على معرفة تامة ، فهم أصحاب البلاد والنيل يجرى فى أرضهم وقد عنوا به عناية كبيرة ، وأنشئت الترع والسدود للانتفاع بمياهه واهتمت كثير من المؤلفات

(١) تاريخ اليعقوبى ص ٢١٧

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٨٨

(٣) الخطط ج ١ ص ١٩٤

(٤) الدكتور عوض محمد عوض — المرجع السابق ص ٦٩

العربية بالأثر الاقتصادي للنيل في مصر وأنواع الزراعات المختلفة ومواعيدها ، بل لقد فُكر أحد العرب في إنشاء خزان كخزان أسوان الحالي ، ذلك هو المهندس العربي الشهير ابن الهيثم أيام الحاكم بأمر الله ؛ ولكننا مع هذا نجد أن هيرودوت ودرأو استرابون قد وصف مجرى النيل في مصر من الناحية الجغرافية - وصفاً يفوق في دقة تعبيره كثيراً مما أورده غالبية الكتاب العرب .

فالمسعودي ١ يذكر أن النيل كان يطغى على مصر ويركب أرضها ثم نضب الماء بعد ذلك وظهرت الأرض . ولكن ما ذكره هيرودوت عن أن مصر كانت خليجاً من البحر ملأه النيل برواسبه ، والأدلة التي ساقها لتأييد قوله ، أدق بكثير مما يقوله المسعودي من أن النيل هو الذي كان يركب أرض مصر .

وأطلق العرب اسم الصعيد على المنطقة من أسوان إلى الفسطاط ، ويقول المقرئ ٢ إنها سميت صعيداً لارتفاعها وطيب أرضها كما أسماها أيضاً الوجه القبلي . وهي نفس الأسماء المعروفة اليوم . كما أطلقوا اسم الريف وأسفل الأرض على منطقة الدلتا وكانت المنطقة الواقعة بين فرعى النيل تعرف باسم بطن الريف أما الجزء الواقع شرق فرع دمياط فكان اسمه الخوف الشرقي ، أما المنطقة الواقعة غرب الفرع الآخر فتعرف بالخوف الغربي .

ويذكر أبو القدا ٣ أن النيل يصل إلى أسوان عند خط عرض ٢٢ ، ويصل الفسطاط عند خط عرض ٣٠ ويصب في البحر حيث خط العرض ٣١ ، وهو بذلك يذكر العروض الحقيقية وإن أخطأ في خط العرض عند أسوان حيث أنه ٢٤ . أما ابن مماتي ٤ والسيوطي ٥ فيذكر أن خطأ أن مصب النيل في البحر عند خط عرض ٣٠ .

ووادي النيل في الصعيد يكتنفه جبلان في الشرق والغرب . ويتوقف عرضه على مدى اقتراب الجبلين أو بعدهما من النهر . ويذكر الاصطخري ٦ وابن حوقل ٧ والإدريسي ٨ أن عرض العمارة على النيل من أسوان حتى الفسطاط يتراوح ما بين

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٧٠

(٢) الخطط ج ١ ص ١٨٩

(٣) تقويم البلدان ص ٤٥

(٤) قوانين اللواوين ص ٧٣

(٥) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٥

(٦) مسالك الممالك ص ٥٢

(٧) صورة الأرض ص ١٥٣

(٨) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٤٣

نصف يوم إلى يوم ( من ١٤ إلى ٢٨ كم تقريباً ) ، ثم تعرض فيصير عرضها شمال  
الفسطاط من الإسكندرية إلى الحوف الشرقى نحو ثمانية أيام .

أما المقرئى ١ فيذكر نقلاً عن غيره أن مسافة إقليم الصعيد مسيرة اثني عشر يوماً  
بالجمال وعرضه ثلاث ساعات ، وأنه بلغ من عمارة الصعيد أيام الناصر محمد بن قلاوون  
وما بعدها أن المسافر من القاهرة إلى أسوان لم يكن يحتاج لنفقة بل يجد في كل بلد وناحية  
عدة دور للضيافة ولكن أمره آل في زمن المقرئى إلى أن كل ذلك قد تلاشى وحل الفقر  
والجذب بالبلاد .

ولم يتعرض الجغرافيون السابقون على الإسلام ولا الجغرافيون العرب لانتشاء النيل  
عند قنا ، إلا أنه من المحتمل أن قدامه بن جعفر قد عناها بقوله عند وصف مجرى النيل  
في مصر ٢ « ثم ينخرج حتى يصير إلى مدينة أسوان ماساً لها ثم يعدل معترجاً ثم يرجع  
ويعر ماراً إلى مصر ماساً لها » .

ونحنم هذا الفصل بتقدير الكتاب العرب لطول مجرى النيل من منبعه إلى مصبه ونرى  
أنه بينما تتفق الغالبية إلى أن طول مجرى النيل سبعة أشهر ، شهر منها في بلاد الإسلام  
وشهرين في النوبة وأربعة في الحراب . نجد أنهم اختلفوا في تقدير هذه المسافة بالأميال  
كما يظهر من الجدول التالى .

ميل	
٢٩٣٣	قدامة ٣
من ٢٧٠٠ إلى ٣٠٠٠	المسعودى ٤
٥٦٣٤	الإدريسى ٥
٩٠٠٠	الدمشقى ٦
٢٢٤٤	المقرئى ٧ ٧٤٨ فرسخاً أى

- 
- (١) الخطط ج ١ ص ١٨٩
  - (٢) الخراج وصناعة الكتابة ص ٦٤ ب
  - (٣) الخراج وصفة الكتابة ص ٦٤ ب .
  - (٤) مروج الذهب ج ١ ص ٢٠٨ يقول المسعودى إن النيل « يجرى على وجه الأرض  
تسمائة فرسخ وقيل ألف فرسخ » والفرسخ ثلاثة أميال .
  - (٥) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٦
  - (٦) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٨٩
  - (٧) الخطط ج ١ ص ٥٣

ميل

السيوطي ١ . عن صاحب مرآة الزمان ٩٠٠٠ .

عن صاحب مسجع الهديل ٨٦١٤

القرماني الدمشقي ٢ ١٧٤٨ فرسخاً أى ٥٣٤٤

ويتبين أن أحداً لم يصل إلى التقدير الحقيقي وهو أربعة آلاف ميل إلا أن المسعودي أقرب الجميع إلى الرقم الصحيح :

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤-١٨٥

(٢) أخبار الدول ص ٤٨٢



## الفصل الثالث

### المصب

إذا تتبعنا نهر النيل منذ دخوله مصر نجده يجرى في واد ضيق ، تحده من الشرق والغرب هضبتان مرتفعتان ، تنفرجان عن القاهرة وتتلاشيان في الصحراء ، وعندئذ يتسع الوادى فجأة مكوناً الدلتا ، وهى سهل فيضى كان خليجاً من البحر اكتسبه النهر وغمره بغرينه .

والدلتا أشبه بمثلث قاعدته في الشمال عند ساحل البحر ورأسه في الجنوب حيث قمة الدلتا ومكان تفرع النهر . وقد أطلق اليونان عليها هذا الاسم لأنها تشبه رابع حروف الهجاء اليونانية ١ . ويتوقف اتساع الدلتا شرقاً وغرباً على مدى ما تصل إليه مياه النيل :

فهاتان الهضبتان تحددان مجرى النيل في الصعيد فلا يجد مفرأ من أن يسير بينهما في خط يكاد يكون مستقيماً ، حتى إذا وصل إلى القاهرة وجد المجال قد اتسع أمامه فلا عوائق ولا حواجز فكان أشبه بسجين انطلق من عقاله ووجد باب الحرية مفتوحاً على مصراعيه فانطلق يعربد يمينا ويساراً ، ويمد فروعه في كل اتجاه .

ولم تكن الدلتا قبيل العصر التاريخي وفي بدايته قد اتخذت شكلها النهائي ، بل كانت مليئة بالمستنقعات ٢ . ولا شك أن فروع النهر حيثئذ كانت كثيرة ومتغيرة باستمرار . وفي غضون السنين والقرون المتعاقبة اختفت المستنقعات واختفى معها كثير من أفرع النهر وظلت هذه الفروع تنقص من عصر لآخر حتى استقرت على فرعين اثنين هما الآن فرعاً رشيد ودمياط .

وكما تغير مظهر الدلتا وعدد فروع النيل ، تغير كذلك مكان قمة الدلتا من عصر

---

(١) استرابون في مصر . وهيب كامل ص ٤٨ : والدلتا في شكلها تشبه حرف دلتا اليوناني

(٢) انظر جزأين : البيئة والموقع الجغرافي ص ٥

وهير ودوت في مصر وهيب كامل ص ٢٦

لآخر ويذكر الدكتور رزقانة ١ أن قمة الدلتا في تغير مستمر منذ تكوينها حتى الوقت الحاضر ففي بدء العصر التاريخي وقيام الحكم الملكي المصري أو قبله بقليل كان رأس الدلتا عند منفيس ٢ ثم انتقل إلى الشمال حتى صار في عهد الدولة الحديثة عند مدينة « خرى عحا » ٣ حيث كان يخرج فرع دمياط الحالي ٣ .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد ذكر هيرودوت أن النيل يتفرع عند مدينة كركاسوروس ٤ ويحدد استرابون المسافة بين منفيس وقمة الدلتا بثلاث شوينات ٥ ، ويقدرها بليبي باثنين وعشرين كيلو متراً ، وبطليموس الجغرافي بعشر دقائق عرضية أى عشرون كيلو متراً ٣

أى أن قمة الدلتا انتقلت منذ بداية العصر التاريخي حتى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح إلى الشمال هذه المسافة ، فصارت عند الطرف الجنوبي لجزيرة الوراق قبالة روض الفرج ١ .

فإذا انتقلنا إلى القرون الأولى للهجرة ، وتبعنا وصف الكتاب العرب ، نجد أن الخوارزمي ٦ يذكر أن النيل يفرق من مصر (أى القسطنطينية) إلى البحر في خلجان سبعة ولا شك أن الخوارزمي نقل ذلك عن بطليموس ، ولا تدل على حقيقة الحال في عصره هو .

أما ابن عبد الحكم فبالرغم من عدم ذكره مكان تفرع النيل إلا أنه ذكر ٧ سبعة خلجان هي منف ، المنهى ، القيوم ، سخا ، دمياط ، الإسكندرية ، سرودس ، أما عن خليج منف فمن المرجح أنه لم يكن يجرى في العصر العربي وإنما كانت آثار مجراه ظاهرة في ذلك العصر ٨ . أما خليج المنهى والقيوم فيخرجان في الصعيد بعيداً عن الدلتا ،

---

(١) مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية المجلد الرابع سنة ١٩٤٨ مقال « قمة دلتا النيل »  
دكتور إبراهيم رزقانة .

(٢) مكانها الحال « ميت رهينة » جنوب القاهرة .

(٣) « مصر العتيقة حالياً » - انظر رزقانه المرجع السابق .

(٤) قرية الوراق الحالية - قبالة الطرف الجنوبي لجزيرة الوراق - انظر رزقانه المرجع السابق وكذلك « هيرودوت في مصر » حاشية ص ٣٤ .

(٥) استرابون في مصر - وهيب كامل ص ٩٣ والشوين - ٨٦٥٢ متراً أى أن المسافة حوالى ٢٦ كم .

(٦) صورة الأرض ص ١٠٩

(٧) ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارها ص ٦

(٨) رزقانه المرجع السابق

ولا يبقى إلا الخلجان الأربعة الباقية وهذه تخرج في الدلتا . ولما كان خليج سردوس موجوداً في عصر ابن عبد الحكم لذلك يمكن القول إن قمة الدلتا كانت في ذلك الوقت عند سردوس ١ » ومعنى هذا أن كلا الموضعين جنوب جزيرة الوراق وشمالها يعنيان قمة الدلتا القديمة ، وإنما في عصرين مختلفين ، الأول في القرون الأولى من الميلاد والثاني في القرون الأولى من الهجرة .

أما ابن سيرايبون ، فيذكر ٢ أربعة رءوس للدلتا ، الأول جنوبي منف عند أهرام يوسف ٣ ( بالقرب من الفيوم ) حيث يخرج فرع يتجه إلى الإسكندرية . ويرى عمر طوسون ٤ أن هذا الفرع هو خليج منف الذي ذكره ابن عبد الحكم وغيره .

أما القمة الثانية فيذكر أنها أسفل مدينة مصر ، حيث يخرج خليجان ، أحدهما يتجه يسرة لير عل سردوس والآخر يتجه يمنة إلى القرما ويسميه عمود النيل ٥ . وبذلك يكون هذا المكان هو نفس المكان الذي ذكره هيرودوت من قبل ، أي عند الطرف الجنوبي لجزيرة الوراق ٦ .

أما القمة الثالثة التي ذكرها ابن سيرايبون فعند سردوس نفسها ، إذ يقول إنه يخرج من خليج سردوس عند هذه المدينة خليج يصب في البحر أسفل الإسكندرية .

ثم يذكر أنه عند شطونف يخرج خليج من خليج سردوس الكبير ويصب عند دمياط . ويتضح لأول وهلة أن أماكن التفرع الأربعة لم تكن كلها موجودة في زمن ابن سيرايبون

---

(١) مكانها الآن قرية بسوس في مواجهة الطرف الشمالى لجزيرة الوراق - رزقانة المرجع

السابق

(٢) ابن سيرايبون - كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة ص ١٤٠ وما بعدها

(٣) يذكر القلقشندي ما يفيد أن أهرام يوسف عند البدرشين حيث يقول في صبح الأعشى

ج ٣ ص ٢٩٨ : موضع المقياس بمنف إلى الآن معروف على القرب من الأهرام اليوسفية من جهة البلدة المعروفة بالبدرشين .

(٤) Tousson ; op. cit. I p. 177

(٥) ابن سيرايبون المرجع السابق الذكر ص ١٤٢ : ويقول ابن سيرايبون عن تفرع فرعى

سردوس والقرما ما يأتي : - ويخرج الخليج الثانى من النيل أسفل مدينة مصر ويمر إلى سردوس

ثم إلى ينا ثم إلى بوصير ثم إلى شطيوف وهذه القرى كلها شرقية ثم يصب إلى البحر عند طول نخ ٥

(٥٣٨) مع مدينة سمبود وهى غربية ... فأما الخليج السابع فهو الذى يقاسم خليج سردوس فيمر

خليج يمر إلى سردوس ويمر هذا يمنة على سمتة وهو عمود النيل يمر من مصر بتفيس وهى شرقية

إلى جرجير وهى شرقية ثم إلى نو غربية ثم إلى القرما .

(٦) رزقانه « قمة الدلتا » ص ٣١

ولمّا خلط بين المعلومات التي ذكرها من سبقوه . وكما ذكرنا سابقاً لم يكن فرع منف موجداً في ذلك الوقت . أما القمة الثانية فلم يذكرها من سبقه من الكتاب العرب إنما ذكرها كتاب العصر اليوناني والروماني ، كما أن فرع الفرما لم يذكره أى كاتب عربى سابق أو لاحق لابن سيرا يون ١ .

أما قمتا سردوس وشطانوف فيمكن « أن يفهم على أنه تصوير صادق للحالة القائمة في عهده أى أنه كان للدلتا في ذلك العهد قمتان ، قمة رئيسية عند سردوس ، وقمة ثانوية أو مشروع قمة عند شطانوف » ٢ .

وعلى أى حال فقد صارت قمة الدلتا الرئيسية عند شطانوف منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ( آخر العاشر الميلادى ) ونرى الكتاب العرب ابتداء من ابن حوقل لا يذكرون إلا هذه القمة على أنها المكان الوحيد الذى يتفرع عنده النهر ، وظلت كذلك قروناً عدة حيث ذكرها ابن عبد السلام المنوفى في القرن العاشر الهجرى ٣ .

ثم أخذت تراجع بعد ذلك نحو الجنوب حتى صارت عند موضعها الحالى ، أى أنها تراجعت في غضون هذه المدة نحو الجنوب بمقدار عشرة كيلو مترات . ويرى الدكتور رزقانه ٤ أن الظواهر تشير إلى أن قمة الدلتا ستظل في التراجع جنوباً حتى تصل إلى شمال جزيرة الوراق كسابق عهدها في القرون الأولى للهجرة ، بل يتوقع أن يكون التراجع أكثر من ذلك حتى تعود إلى المكان الذى ذكره هيرودوت من قبل ، أى عند الطرف الجنوبي لجزيرة الوراق .

وعلى ذلك تكون قمة الدلتا مرت في دورين ، دور تقدم نحو الشمال بلغ أقصى مداه في القرن التاسع الهجرى ( ١٥ م ) حيث أصبحت عند شطانوف ، ودور تراجع مرة أخرى نحو الجنوب حيث أصبحت قمة الدلتا في الوقت الحاضر جنوب شبه جزيرة الشعير ، وما زال هذا الدور مستمراً ٥ .

ولما كانت قمة الدلتا هي أول ما تكون منها ، كان من المؤكد أن فروع الدلتا القريبة

---

(١) يذكر الدكتور بتلر في كتابه « فتح العرب لمصر » عند ذكره الفرما ص ١٨٥-١٨٦ ما يأتى : - « ومدينة بلوز اسمها بالقبطية يرمون ويسمونها العرب الفرما ، وكان فرع النيل اسمه الفرع البلوزى يهوى إلى البحر بقربها » ولا نعلم هل يقصد أن الفرع كان موجوداً عند الفتح العربى .

(٢) رزقانه « قمة الدلتا » ص ٣٣

(٣) مخطوطة « الفيض المديد في أخبار النيل السعيد » . نسخة بلدية اسكندرية ص ٨

(٤) رزقانه المرجع السابق ص ٣٤-٣٧

(٥) رزقانه المرجع السابق ص ٢٨



من القمة هي التي وجدت أولاً . وإذا ألقينا نظرة إلى فروع النيل في الدلتا ، نلاحظ أن عددها وأماكنها وأسماءها قد تغير من وقت لآخر .

ويتبين مما ذكره الجغرافيون والمؤرخون اليونانيون والرومانيون أن فروع النيل كانت كثيرة ومنتشرة في الدلتا من الشرق إلى الغرب . وقد ذكروا بعض هذه الفروع وأهمها البعض الآخر فهيرودوت يذكر ١ ثلاثة فروع رئيسية تخرج من كركا سوروس ، أحدها يتجه شرقاً إلى بيلوز ( الفرما ) وهو الفرع البيلوزي ، والثاني وهو الكانوبي يتجه غرباً إلى كانوب ( كوم سمعدى جنوب أبي قير ) والثالث ويعتبره أكبرها وأبعدها شهرة - يمتد وسط الدلتا ويسمى السبتي ٢ ويتفرع منه فرعان آخران أقل أهمية هما الساي ٣ ٥ والمنديس ٤ كما يذكر فرعين آخرين على أنهما صنعايان ليسا طبيعيين هما البوكولي والبولبتي .

ولكن الفيلسوف اليوناني أرسطو ( ٣٨٤-٣٢٢ ق . م ) يرى أن الفرع الكانوبي وحده هو المجرى الطبيعي ، وأن الفروع الباقية حفرها الإنسان لتجفيف الدلتا ٦ .

وفي القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعده ، كانت فروع النيل في الدلتا التي ذكرها ديودور ٧ الصقلي واسترابون ٨ ، هي نفس الفروع التي ذكرها هيرودوت من قبل ، فيما عدا أنهما أطلقا على الفرع الساي اسم الفرع الثاني ٩ . كما ذكر الفرع البولبتي على أنه فرع أساسي كما اتحد البوكولي مع الجزء الجنوبي من مجرى السبتي وكونا مجرى

---

(١) هيرودوت في مصر ص ٣٤

(٢) نسبة إلى سبتيوس وهي سمند

(٣) قد يكون نسبة إلى ساي وهي صا الحجر - ولو أن ذلك يتعارض مع الهامش - ٥ وانظر الهامش - ٩

(٤) نسبة إلى منديس أي تل الربع جنوب شرق المنصورة

(٥) مكانه الآن بحر موسى . ويقول على مبارك أنه يغلب على الظن أنه هو البحر المردوبي أنظر على مبارك نخبة الفكر في تدبير نيل مصر ص ٥٣ .

(٦) عمر طوسون « تاريخ خليج اسكندرية » ص ٤

(٧) ديودور الصقلي في مصر - وهيب كامل ص ٦٥ وما بعدها .

(٨) استرابون في مصر ص ٧٨

(٩) نسبة إلى تانيس وهي صان الحجر . وقد ذكر استرابون ص ٧٨ أن البعض يطلق عليه أيضاً اسم الفرع الساي .

واحد ، أطلقا عليه اسم الفرع القاتني ١ ، وقد اعتبره استرابون ٢ الثالث في الضخامة بالمقارنة بالفرعين الكانوبي واليلوزي .

وقد ذكر بطليموس في القرن الثاني الميلادي فروعاً سبعة تختلف أسماؤها عن الأسماء السابقة في حين أن إميان مارسلان Ammien Marcellin الذي زار مصر في القرن الرابع الميلادي يذكر نفس الأفرع التي ذكرها استرابون ٣ .

فإذا وصلنا إلى العصر العربي نجد أن الوضع قد تغير واختفت بعض الفروع وصار من المرجح أن عددها أصبح أربعاً فقط ٤ .

ولكن الخوارزمي ٥ الذي ينقل عن بطليموس — يذكر أن النيل يتفرع من مصر ( الفسطاط ) سبعة أفرع تصب في البحر فيما بين الاسكندرية ودمياط ، وبذلك يختلف موقع هذه المصببات عما كانت عليه في العصور السابقة للإسلام ، كما أن عددها يختلف عن عدد فروع الدلتا في العصر الإسلامي .

وذكر ابن عبد الحكم ٦ كذلك ، سبعة أفرع أو خلجان كانت موجودة قبل الإسلام وهذه الخلجان وإن ظل بعضها في العصر العربي ، إلا أنها لا تصور تماماً فروع النيل في الدلتا ومصباته في ذلك الوقت .

أما ابن سيرايون ٧ الذي ينقل عن تقدموه — فتد ذكر هو أيضاً سبعة أفرع في الدلتا هي من الغرب إلى الشرق ، فرع يصب في أنبحر عند الإسكندرية وفرعان يصبان إلى الشرق من الاسكندرية وفرع دمياط وفرع مردوس وفرع بوصير وفرع القرما .  
ولما كانت معلومات ابن سيرايون خليطاً من المعلومات التي استقاها من المصادر السابقة ، فلا يمكن أن نتقبل بسهولة معلوماته هذه على أنها تصور الحالة التي كانت عليها الدلتا في وقته . خصوصاً وإنه في نفس القرن الذي عاش فيه ابن سيرايون عاش كاتب

---

(١) أي الفرع الأوسط لأنه كان يشق وسط الدلتا . انظر عمر طوسون — تاريخ خليج إسكندرية ص ٤

(٢) استرابيون في مصر ص ٧٨

(٣) Tousson ; op. cit. I p. 147

(٤) رزقانه : « نهر النيل » مخطوط ابن سيرايون ص ٢٠٣ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مايو ١٩٥٠ .

(٥) صورة الأرض ص ١٠٩ .

(٦) فتوح مصر وأخبارها ص ٦

(٧) كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العجالة ص ١٤٠ — ١٤٢

آخر هو اليعقوبى الذى يذكر ١ فرعين فقط للنيل هما فرعا رشيد ودمياط . ومنذ ذلك الوقت لم يعد يذكر إلا هذان الفرعان علاوة على فروع أخرى تخرج منهما .

ويمكن تقسيم فروع النيل فى الدلتا إلى قسمين ، قسم لم يعد له وجود فى العصر العربى ، أو على الأقل لم يعد يعمل كصب للنهر ، وقسم آخر يمثل الأفرع التى تعتبر مصبات للنهر . ويدخل تحت القسم الأول الأفرع الآتية :

فرع منف : ذكره ابن عبد الحكم ، وعنه نقل غيره من الكتاب العرب ، ولكنهم لم يوضحوا لنا شيئاً عن هذا الفرع يدلنا عن بدايته أو مجراه أو مصبه ، ويرجح أنه الفرع الذى ذكره ابن سيرايون ووصفه بأنه يخرج عند طول ناك ( ٥١,٢٠ ) فوق أهرام يوسف عليه السلام بشىء يسير ، ثم يمر إلى قصر يوسف وهو غربى ويسقى ما عليه من الضياع ، ويصب فى البحر مع مدينة الإسكندرية ٢ . وهو من الأفرع القديمة التى اختفت فى ذلك الوقت .

فرع سخا : ذكره ابن عبد الحكم وغيره ونسبوا حفره إلى أحد ملوك مصر القدماء ٣ ومن اسمه يرجح أنه كان يمر بسخا . ويرى عمر طوسون ٤ أنه يمثل فرع الترمتيك Thermutiaque الذى ذكره بطليموس إما كله أو جزءاً منه ، وأنه كان موجوداً فى العصر العربى أو على الأقل الجزء الجنوبى منه الذى صار يعرف فيما بعد باسم بحر ابيار .

ويذكر ابن ممتى ٥ ضمن جسور وترع الغربية ، جسر سخا الذى يفتح فى الثامن من بابه وأنه يسقى ترعة اسمها السخاوية ، لعلها الجزء الشمالى من هذا الفرع .

فرع سردوس : ذكره المؤلفون العرب نقلاً عن ابن عبد الحكم ، ولكن بن سيرايون ٦ هو الوحيد الذى يصف مجراه ، وأنه يخرج أسفل مدينة مصر ويمر إلى سردوس ثم نيا وبوصير وشطيوف وتقع جميعها شرقى هذا الفرع ، ويصب فى البحر عند طول ( لح ٥ ) أى ٣٨ مع مدينة سمود . ويخرج منه فروع أخرى تتجه إلى أماكن مختلفة .

---

(١) كتاب البلدان ص ١٢٦

(٢) ابن سيرايون « المرجع السابق ص ١٤٠-١٤١

(٣) المقرئى « الخطط » ج ١ ص ٧٠

(٤) Tousson; op. cit. 5 p. 185

(٥) قوانين الدواوين ص ٢١٨

(٦) المرجع السابق ص ١٤٢ : « كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العهارة »

ويصف عمر طوسون ١ مجرى هذا النهر بقوله « إنه بعد سردوس ( بسوس ) يتبع مجرى قناة زيتون الحالية التي تمر غرب قلوب ثم يتبع بعد ذلك قناة إسكندر ثم يتحد مع القرطامية حتى كفر فرنسيس حيث يدخل في فرع دمياط ، ( وإن هذه المسافة كانت تمثل جزءاً من الفرع السبتي الذي عرف فيما بعد باسم القاتيني ) ، وبعد بنها يتبع فرع دمياط حتى باناً ثم يمر بأبي صير وشطيوف ( بلد غير معروف ) ثم سمنود وبعد ذلك يتحد مع فرع تنيس ليصب في بحيرة تنيس » .

ويذكر المؤلفون العرب أن الذي حفر هذا الخليج هو هامان وزير فرعون ، وأنه جمع مالاً وفيراً من أهل القرى التي يمر عليها ، ولذلك فهو أكثر الخليجان عطوفاً .

وقد بقي الخليج إلى وقت متأخر حيث وصفه المسعودي بأنه من أمهات الترع التي بالبلاد ٢ ولكنه فقد أهميته بحفر خليج أبي المنجا في عهد الأفضل شاهنشاه وزير المستعلي سنة ٥٠٦ هـ ولم يعد غير ترعة ذكرها ابن مماتي باسم « بحر قلوب المعروف بالسردوس » ٣ .

وقد وصفه ابن دقماق عند ذكره قلوب « وبها ( قلوب ) خليج السردوس ، وهو أحد نزهات الدنيا ، وهو خليج يسار فيه بين بساتين مشبكة وأشجار ملتفة وفواكه دانية ، وهذا الخليج حفره هامان وزير فرعون ٥٠١ هـ » ٤ .

ولكن هذا الوصف لا يدل على ما كان عليه الخليج في الوقت الذي عاش فيه ابن دقماق ويظهر أنه نقله عن ابن الأثير حيث إن القلقشندي وهو معاصر لابن دقماق يذكر هذا الوصف بنصه نقلاً عن ابن الأثير ثم استطرد ٥ : « قلت : ( أي القلقشندي ) أما الآن فقد ذهب ذلك وبطل الخليج وعوض ببحر أبي المنجا » .

فرع الفرما : وهو الفرع البيلوزي أحد الفروع الرئيسية القديمة ، ولم يذكر هذا الفرع إلا ابن سيرايون ٦ وسماه عمود النيل ، ويتجه من مصر يمينا ليمر بتانيس ( صان

---

(١) Tousson ; op. cit. I p. 188

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٣

(٣) قوانين الدواوين ص ٢٠٦

(٤) كتاب الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٥ ص ٤٧

(٥) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٤

(٦) المرجع السابق ص ١٤٢ . وما يدل على أن فرع الفرما لم يكن موجوداً في العصر العربي ما قاله ياقوت ( معجم البلدان ج ٣ ص ٨٨٣ ) عن الفرما : « وليس بها ترع ولا ماء يشرب لا ماء المطر فإنه يخزن في الجباب ويخزنون أيضاً ماء النيل يحمل إليهم في المراكب من تنيس » كما أنه لم يذكر أي كاتب عربي أنه كان موجوداً خصوصاً ابن عبد الحكم .



الحجر) وجرجير ١ وتقعان إلى الشرق منه ونوو إلى الغرب منه ثم إلى الفرما حيث يصب في البحر عند طول ندل (٣٠°٥٤). ولا يمكننا أن نتقبل بسهولة وجود هذا الفرع في ذلك الوقت ، حيث إن أحداً من المؤلفين العرب لم يتعرض لذكره .

فرع بوصير : لم يذكره إلا ابن سيرايون كذلك ، حيث يصفه بقوله ٢ : « ويخرج من خليج سردوس الكبير ، أوله بإزاء بوصير يمر حتى يصب في البحر عند مدينة اسرودات وهي غريه » . ولما كانت مدينة اسرودات هذه غير معروفة فلا نعلم شيئاً عن مجرى هذا الفرع أو مصبه .

أما القسم الثاني من الفروع فيشمل فرع رشيد ودمياط وما يتفرع منهما : فرع رشيد : ويتفرع عند شطونف ٣ ، وهذا الفرع لم يأخذ شكله الحالي إلا في عصر متأخر ..

وقد ذكره هيرودوت على أنه قناة صناعية أطلق عليها اسم البوليتي ، وكانت تخرج من الفرع الكانوبي عند زاوية البحر (٤) (٦) (التابعة لمركز كوم حمادة بحيرة) . ثم صارت من فروع النهر التي ذكرها ديودور الصقلي واسترابون .

وفي خلال القرن الخامس الميلادي ، فقد الجزء الشمالي للفرع الكانوبي أهميته كفرع وصار مجرد ترعة ٤ ، وكون البوليتي مع الجزء الجنوبي للكانوبي فرعاً واحداً هو الذي أطلق عليه العرب اسم فرع رشيد ووصفوه بأنه عمود النيل ٥ ، كما كان الكانوبي من قبل هو الفرع الرئيسي في الدلتا .

---

(١) جنوب شرق بحيرة المنزلة .

(٢) انظر الهامش ٦ في الصفحة السابقة .

(٣) أطلق عليه الإدريسي اسم شطونف . انظر : صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس ص ١٤٩ وهي قرية لا زالت موجودة بمحافظة المنوفية .

(٤) عمر طومسون « تاريخ خليج اسكندرية ص ١٠-١١

(٥) الدمشقي شيخ الربوة : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٥٩ - النويري : نهاية

الأرب ج ١ ص ٢٦٢ - المقرئزي الخطط ج ١ ص ٥٤ .

(٦) يذكر على باشا مبارك في موضع أن الفرع الكانوبي كان يفرع عند فوة ويذكر في موضع آخر أنه يتفرع عند الرحمانية حيث يتجه فرع إلى كانوب والفرع الآخر هو بحر رشيد . وهو بذلك يجعل مكان التفرع إلى الشمال ثيراً من المكان الذي يتفرع منه وهو زاوية البحر أو الرافقة والتي ذكر قدامة أن عندها يخرج اسكندرية . وأرى أن على باشا مبارك أخطأ في تعيين مكان تفرع هذا الفرع - أنظر : الخطط التوفيقية - ج ١ ص ١٥

نخبة الفكر في تدبير نيل مصر ص ٥١

قدامة ابن جعفر ... الخراج وصفة الكتابة ص ٢٢٠

وكانت تخرج من هذا الفرع فروع أخرى نجد وصفاً دقيقاً لها في المؤلفات العربية وعلى الخصوص مؤلفات ابن حوقل والإدريسي. ومن هذه الفروع :

أ - خليج الإسكندرية : وسنذكره في الفصل الرابع الخاص بالخليجان .

ب - بحر ابيار : ذكره ابن حوقل والإدريسي والقلقشندي وإن كان القلقشندي هو الذي أطلق عليه هذا الاسم ١ . ويتفرع عند بلدة أبو يحنس ( أو أبو نشابة كما يقول القلقشندي ) ويتجه شمالاً بشرق ، ثم يعطف مرة أخرى إلى الغرب ليتصل بالفرع الرئيسي عند بيج كما يذكر ابن حوقل ٢ والإدريسي ٣ أو الفرستق كما يقول القلقشندي ١ .

ويسمى الإدريسي الأرض المحصورة بين هذا الفرع والفرع الرئيسي جزيرة بيار ٣ ولكن ابن ماتي ٤ والقلقشندي ١ يطلقان عليها اسم جزيرة بني نصر .

وبحر ابيار هذا يمثل الجزء الأعلى لفرع الترمياك الذي ذكره بطليموس ، أو خليج سخا الذي ذكره ابن عبد الحكم ، كما تحتل قناة البتانونية حالياً الجزء الأكبر من مجراه ٥ .

ج - فرع فرنوه : ذكره ابن حوقل ٢ فقط ، وحسب وصفه ، أن النهر عند بيج ، ينقسم إلى فرعين يتصلان مرة أخرى عند بلهيب ( العطف ) أما الفرع الغربي فيمر على فرنوه ومحلة مسروق ( محلة نصر ) ومحلة أبي خراشة وفيشة وسنديس وسنبازه ، ثم ينتهي عند بلهيب حيث يجتمع مع الفرع الشرقي .

د - فرع صا : وهو الفرع الشرقي الذي يخرج عند بيج ليمر على « صا » . ولم يذكر ابن حوقل ٢ أي بلاد أخرى غير « صا » .

هـ - نهر شابور : ذكره ابن حوقل والإدريسي ٦ ، وإن كان الأخير هو الذي أطلق عليه هذا الاسم ، ويخرج عند أبي يحنس ويتجه إلى شابور ثم يتبع بعد ذلك مجرى خليج إسكندرية .

ويتابع الإدريسي ٦ وصف فرع رشيد ، فيذكر أنه عند فوة ينقسم إلى قسمين يحصران بينهما جزيرة الراهب ثم يتصلان عند سنديون شمال فوة بخمسة عشر ميلاً .

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٢

(٢) ابن حوقل صورة الأرض ص ٨٣-٨٥

(٣) الإدريسي صفة المغرب ص ١٦٠

(٤) ابن ماتي : قوانين الدواوين ص ٢١٩

(٥) 5 — Tousson ; op. cit LP. 185

(٦) صفة المغرب ص ١٦٠-١٦١

وتقابل سندیون على الضفة الغربية قرية سمديس ويخرج إلى الشمال منها فرع ١  
يصب في بحيرة مارة ٢ بين رشيد والإسكندرية ، وقد أطلق عليها أبو الفدا اسم بحيرة  
نستروة خطأ إذ أن نستروة تقع بين دمياط ورشيد ٣ وهي المعروفة ببحيرة البرلس .  
ثم يتابع النيل مجراه في ذلك الفرع ليصب عند رشيد ٤ حيث تعرف فوهته  
بالأشتوم .

فرع دمياط : مثل فرع رشيد ، ناله كثير من التغير والتبدل حتى اتخذ وضعه  
الحالي وكان في أول أمره - مثله في ذلك مثل فرع رشيد أيضاً - قناة صناعية أطلق عليها  
هيرودوت اسم البوكولي ، تخرج من الفرع السبتي عند مدينة سمنود ٥ .  
ولكن سرعان ما اتحدت هذه القناة مع الجزء الجنوبي من مجرى السبتي في مجرى واحد  
أطلق عليه ديودور الصقلي واسترابون اسم الفرع القاتيني .

ثم ناله بعض التغير منذ ذلك الوقت حتى الفتح العربي ، فأطلق عليه الكتاب العرب  
اسم الفرع الشرقي وفرع تنيس ودمياط ثم فرع دمياط فقط .

وأول من ذكر هذا الفرع ، الخوارزمي وابن عبد الحكم وغيرهما وإن لم يذكروا  
مكان تفرعه حتى جاء ابن سيرايون في القرن الثالث فحدد مكان خروجه عند شطنوف .  
ثم يتوسع اليعقوبي في وصف هذا الفرع فيذكر أنه يفرق فرقتين إحداهما تجري إلى  
دمياط والأخرى تتجه إلى تنيس ٦ .

والإدريسي هو الذي أعطانا وصفاً دقيقاً لهذا الفرع فيذكر ٧ ، أنه عند شطنوف  
يخرج فرعان أحدهما إلى الغرب والآخر يتجه إلى الشرق نحو تنيس ودمياط .

- 
- (١) أطلق عليه عمر طوسون اسم قناة فزارة
  - (٢) لعله يقصد بحيرة أدكو وهو الأصح ولم يذكر ياقوت في معجمه ، بحيرة بهذا الاسم .  
وقد سماها القلقشندي باسم بحيرة أبو قير ( صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧ ) ويقول : وقد وقع  
للسultan عماد الدين صاحب حماة وهم فجعل هذه البحيرة هي بحيرة نستروة .
  - (٣) انظر ياقوت « معجم البلدان » ج ٤ ص ٧٨٠
  - (٤) يذكر على باشا مبارك : أن فرع بولبتين سمي فرع رشيد بعد وضع هذه المدينة  
عليه وأنها أخذت في الظهور في خلافة المتوكل على الله العباسي سنة ثمانمائة ونحو السبعين  
ميلادية . انظر : الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٧٥ .
  - (٥) « ديودور الصقلي في مصر » - وهيب كامل حاشية ص ٦٥ .
  - (٦) كتاب البلدان ص ١٢٦ .
  - (٧) صفة المغرب ص ١٤٩ و ١٥١ .

وشمال أنتهى يتفرع - هذا الفرع الشرقى - إلى فرعين ، يمر الشرقى ١ منهما على منية عطار ( ميت عطار ) التى تقع قبالة أنتهى ثم يمر على عدة قرى لعل من أهمها - التى لا تزال موجودة للآن - صحرشت الكبرى ( صهرجت الكبرى ) على الضفة الشرقية وصحرشت الصغرى ( صهرجت الصغرى ) على الضفة الغربية ، ومنية غمر ( ميت غمر ) على الضفة الشرقية ويقابلها على الضفة الغربية منية زفته ( زقى ) ، ثم إلى قرية دمسيس .

أما الفرع الغربى فينتجه من أنتهى إلى ملبج ثم إلى طنطة والجعفرية والسنتة وسنباط ثم إلى شبرة ٢ .

وعند شبرة ودمسيس يلتقى هذان الفرعان فى مجرى واحد إلى أن ينقسم مرة أخرى عند طرخا ( طلخا ) إلى فرعين أحدهما يتجه إلى تنيس والثانى إلى دمياط حيث يصب فى البحر فى موضع يقال له الأشتوم عرض النيل هناك نحو مائة ذراع ٣ .

ويظهر أن الفرع من طلخا إلى دمياط كان أقل شأنًا من الفرع المتجه إلى تنيس ، حيث إن الإدريسى يقول إن ذراع النيل الذى ينصب إلى دمياط يخرج من الذراع النازل إلى تنيس ٤ ولكن سرعان ما فقد الأخير أهميته فنجد أن الدمشقى شيخ الربوة ومن جاء بعده يذكرون الفرع الشرقى باسم فرع دمياط فقط ، ثم يؤكد القلقشندى هذا المعنى فى قوله ٥ : « فأما الفرقة الشرقية فتتمر فى الشمال حتى تأتى على قرية تسمى المنصورة من عمل المرتاحية فتتشعب شعبتين ، وتمر الغربية منهما وهى العظمى إلى دمياط وتنصب فى بحر الروم ، وتمر الشرقية منهما على أشموم طناح من غربيها حتى تجاوز بلاد المترلة وتنصب فى بحيرة شرقى دمياط وهى بحيرة تنيس ٤ .

ولقد لعبت فروع النيل دوراً كبيراً فى التقسيم الإدارى للدلتا ٦ ، وقد كان الكتاب

---

(١) هذا الجزء الشرقى يكون جزءاً من فرع دمياط الحال .

(٢) هذا الفرع مكانه الآن بحر شين . وشبرا المقصودة هى شبرا ملس ( انظر خريطة فى الولاة والقضاة للكندى ) .

(٣) ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٧ ، ج ٢ ص ٦٠٢ .

ويلاحظ أن فم فرع رشيد كان يعرف أيضاً بالأشتوم .

(٤) المرجع السابق ص ١٥٧ ( صفة المغرب ) .

(٥) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩١-٢٩٢ .

(٦) E. I. art «Al Nil» .



السابقون على الإسلام يطلقون لفظ الدلتا على المنطقة المحصورة بين فروع النيل فقط ،  
أما المنطقة الواقعة إلى يسار الدلتا فأطلقوا عليها اسم ليبيا بما في ذلك الإسكندرية ، والمنطقة  
التي على يمين الدلتا سموها بلاد العرب ١ .

أما في العصر العربي ، فكانت المنطقة الواقعة شمال القاهرة تسمى « أسفل الأرض »  
و « الريف » كما يطلق اسم الحوف الشرقى على كل ما يقع شرقى فرع دمياط والحوف  
الغربى على ما يقع غرب فرع رشيد .

---

(١) استرابون فى مصر - ص ٩٢ ١٧ : ٣٠

## الفصل الرابع

### الخلجان والترع والجسور

عنى المصريون من قديم بحفر الترع وإقامة السدود لضمان الانتفاع بمياه النهر ، سواء أكان الفيضان مرتفعاً أو منخفضاً . وفى ذلك يقول استرابون ١ إن انصراف المصريين إلى شئون النهر قد وصل إلى حد أنهم يقهرون الطبيعة بالجد ، وأن النهر يروى من الأرض فى الفيضان المنخفض مثل ما يروى منها فى الفيضان المرتفع بواسطة الترع والجسور .

ويتكلم ابن عبد الحكم عن مصر فى أيام الملوك القدماء فىقول ٢ « وكانت مصر قناطر وجسوراً بتقدير وتدير ، حتى أن الماء ليجرى تحت منازلها وأقيبتها فيجسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا . فذلك قول الله عز وجل فيما حكى عن قول فرعون . « أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتى أفلا تبصرون ٣ » .

وسأل عمرو بن العاص المقوقس عن مصر ، بم تكون عمارتها ، فكان من أول هذه الأسباب « حفر خلجانها ، وسد جسورها وترعها ، لما فى ذلك من تحكم فى رى الأراضى على اختلافها من حيث ارتفاعها وانخفاضها وأن يكون فى أوقات محددة تضمن خلو الأرض من مزروعاتها . »

وأكثر الخلجان والترع التى ذكرها الكتاب العرب توجد فى الوجه البحرى .

أما الخلجان فهى أمهات الترع التى تغذى غيرها من الترع الأخرى الأصغر منها . وكلمة خليج مأخوذة من فعل خلج أى انتزع ، والخليج لغوياً معناه نهر يقطع من النهر الأعظم إلى موضع يتفج به فيه ٤ .

وقد اشتركت معظم المراجع العربية فى ذكر سبعة خلجان هى ، سخا ودمياط ومنف والقيوم والمنهى والسردوس وخليج الإسكندرية . وهى كلها كانت موجودة قبل

---

(١) « استرابون فى مصر » ص ٤٦ ١٧ : ٣

(٢) « فتوح مصر وأخبارها » ص ٦ .

(٣) سورة الزخرف آية ٥١ .

(٤) اللسان .

الإسلام . أما خليج أمير المؤمنين ، فإنه وإن جدد حفره بعد الفتح العربى ، إلا أنه حفر قبل الإسلام . كما ذكرت بعض هذه المراجع خلجاناً أخرى حفرت فى العهد الإسلامى والمرجع الرئيسى الذى اعتمد عليه الآخرون فى ذكر الخلجان هو ابن عبد الحكم ، فقد ذكر فى فتوح مصر ١ وهو يتكلم عن فضائل مصر فى أيام الملوك القدماء « وكانت الجئات بحافى النيل من أوله إلى آخره فى الجائين جميعاً ما بين أسوان ورشيد ، وسبع خليج خليج الإسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنهى وخليج سردوس وكان جميع أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما قلدروا من قناطرها وخليجها وجسورها » . ثم ذكر بعد ذلك خليج أمير المؤمنين . وأربعة من هذه الخلجان السبعة التى ذكرها ابن عبد الحكم وغيره قد تعرضنا لذكرها فى الفصل السابق وهى خلجان دمياط وسخا والسردوس ومنف :

أما الخلجان الثلاثة الباقية فهى المنهى والفيوم وإسكندرية .

المنهى والفيوم : من الخلجان القديمة ، وكان من أغراضه علاوة على رى إقليم الفيوم توصيل المياه الزائدة أيام الفيضان إلى بحيرة مويريس (قارون) ثم إعادة هذه المياه إلى النهر مرة أخرى عند الحاجة ، ولذلك فقد عملت على طرفية أهوسة لضبط خروج ودخول المياه . وكان هذا الخليج يخرج حينئذ من الإقليم الهرقلى (أهناسية المدينة) ٢ ٣ .

ويذكر ابن عبد الحكم وغالبية المؤلفين العرب أن الفيوم والمنهى حفرهما يوسف النبى عن طريق الوحي . فيقول ابن عبد الحكم ٤ « أوحى إلى يوسف صلى الله عليه وسلم أن تحفر ثلاثة خلج ، خليجاً فى أعلى الصعيد من موضع كذا إلى موضع كذا وخليجاً شرقياً من موضع كذا إلى موضع كذا ، وخليجاً غربياً من موضع كذا إلى موضع كذا ، فوضع يوسف العمال فحفر خليج المنهى من أعلى أشمون إلى اللاهون ، وأمر البنائين أن يحفروا اللاهون ، وحفر خليج الفيوم وهو الخليج الشرقى ، وحفر خليجاً بقرية يقال لها تنهت من قرى الفيوم وهو الخليج الغربى . فخرج ماؤها من الخليج الشرقى فصب فى النيل ، وخرج من الخليج الغربى فصب فى صحراء تنهت إلى الغرب ، فلم يبق فى

(١) ص ٦ .

(٢) استرابون فى مصر - وهيب كامل ص ٩٧ ، ١٠١ : ١٧ - ٣٥ : ١٧ : ٢٧

(٣) يذكر ديودور الصقل أن الملك مويريس حفر هذه البحيرة على بعد ١٠ سخينوس من جنوب منف (أى حوالى ١١١ كم) لتخزين المياه الزائدة حتى لا يغمر النهر البلاد بتياره القوى فى غير أوان الحاجة ، واحتفر فيما بين النهر والبحيرة قناة . وظلت البحيرة تبنى بحاجات المصريين إلى وقته (أى وقت ذيودور انظر : ديودور الصقل فى مصر - وهيب كامل ص ٩٩ - ١٠٠ ويذكر المغرب أن مويريس ربما يكون انمنحت الثالث من الأسرة ١٢)

(٤) فتوح مصر ص ٤٥ .

الجوبة ماء . ثم أدخلها الفعلة فقطع ما كان فيها من القصب والطرفاء وأخرجه منها ، وكان ذلك ابتداء جرى النيل . وقد صارت الجوبة أرضاً ريفية برية وارتفع ماء النيل فدخل في رأس المنهى فجرى فيه حتى انتهى إلى اللاهون فقطعه إلى الفيوم فدخل خليجها فسقاها .

ويصف الإدريسي ١ خليج المنهى بأنه يخرج إلى جهة الغرب عند مدينة صول ويسمى هناك المنهى ، فيمر جارباً نحو المغرب والشمال فيصل إلى مدينة البهنسا على أربعة مراحل وهي بالجهة الغربية من هذا الخليج ، ويترل هذا الخليج مع الشمال إلى مدينة اهناس وذلك مرحلتان ومنها إلى اللاهون مرحلتان ومنها إلى مدينة دلاص وهي في الضفة الشرقية من معظم النيل ، وينتهي هذا الخليج إلى الفيوم ويصل إلى بحيرة اقي وتنهت . ويحدد الإدريسي مكان صول هذه بأنها تبعد عن أخميم مسافة يوم . ويرى عمرطوسون ٢ أنها مدينة سوهاج الحالية ، وأن المنهى كان يتبع في مجراه ترعة السوهاجية الحالية حتى ديروط حيث يسير في مجرى بحر يوسف إلى اللاهون .

ولكني اعتقد أن الإدريسي أخطأ أولاً في تعيين مكان صول ، وثانياً في مكان خروج الخليج . فمدينة صول تقع إلى الشمال كثيراً من المكان الذي ذكره الإدريسي ، فياقوت ٣ يذكر أنها قرية في أول الصعيد ، وابن الجيعان وابن دقماق ٤ يذكران أنها تابعة تابعة للأعمال الأطفيحية . علاوة على ذلك يوجد حالياً بلدة بهذا الاسم تقع جنوب أطيح على الجانب الشرقي للنيل وتتبعان محافظة الجيزة . كما أنه لم يرد في المراجع أى ذكر لبلد آخر بهذا الاسم تكون هي المقصودة في رواية الإدريسي .

أما عن مكان خروج الخليج فإننا نعتمد على رواية النابلسي الشافعي الصفدي الذي تولى النظر في بلاد الفيوم سنة ٦٤١ هـ وهو بذلك ثقة فيما يقول - فقد ذكر ٥ بعد الإدريسي بأقل من قرن من أن المنهى يخرج من النيل عند قرية دروة سريام . وقد ذكر ابن عبد الحكم من قبل أن المنهى أخرجه يوسف من أعلى أشمون .

---

(١) صفة المغرب ص ٥٠-٥١ .

(٢) op. cit. T.I p. 174

(٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٤) ابن الجيعان «التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية» ص ١٥٠ .

ابن دقماق «الانتصار بواسطة عقد الامصار» ج ٤ ص ١٢٦

(٥) تاريخ الفيوم وبلاده ص ٣ .



ولا شك أن المقصود الأشمونين ، التي ذكر ابن مماتي ١ أن بها الجبل المعروف بكرسي الساحرة الذي يخرج عنده المنهى . ولما كانت دروة سريام هذه من أعمال الأشمونين ، فرجح أنها المكان الذي عناه ابن عبد الحكم وابن مماتي .

والقلقشندي ٢ والمقرئزي ٣ يحددان أيضا خروج المنهى من دروة سريام هذه والتي صارت تعرف وقتئذ باسم دروة الشريف ٤ .

ويهاجم النابلسي الصفدي رواية المؤرخين العرب عن حفر هذين الخليجين بالوحي فيقول ٥ : « المسافة من عهد يوسف عليه السلام إلى الآن بعيدة . وشروط الموثوق بروايته عزيزة شديدة ، ولعمري لو كان هذا الأمر جرى لضرب في قصصه الواردة في القرآن بحصة بل بمخصص » . ويرى أن حفر المنهى هو نتيجة للتفكير الإنساني والتصميم الهندسي ٦ .

ويصف النابلسي الخزان الذي بنى عند اللاهون بقوله ٧ . « وعند منتهاه جعل بناء محكم على وضع هندسي متقن بهما سيح الرصاص وزبر الحديد ما بين الأحجار ، يعلو هذا البناء على أرض الخليج المحفّر خمسة عشر ذراعاً ، يرد هذا البناء الماء الذي يصل إليه من النيل في البحر المنهى عن أن يخرج في منخفض وراءه إلى النيل » .

ثم يتبين الإهمال الذي تعرض له هذا الخليج فيقول ٧ « وقد كان رأس هذا البحر المنهى فيما سلف يحف كل سنة أربعة أشهر ويمد الفيوم ماؤه الحاصل فيه والتزر بقية السنة وهي ثمانية أشهر ، فانعكس الحال فيه لإهمال حفره وعدم العناية به ، فصار يحف الآن ثمانية أشهر ويمده النيل أربعة أشهر . ومن دليل إهماله أنه لم يوجد

---

(١) قوانين الدواوين ص ٢٣٠ : لا شك أن ابن مماتي يقصد أن هذا الجبل قريب من انصنا التي تقع على البر الشرقي للنيل وهي قرية لدروه سريام هذه . ومعنى كرمي الساحرة أي عاصمتها وربما يشير بذلك إلى دلوكة العجوز التي يقال إنها بنت مقياسا بانصنا . أو ربما كانت الألف زائدة في الساحرة ويكون المقصود كرمي السحرة ، أي عاصمتهم حيث يذكر العرب أنها كانت مدينة السحرة ومنها جلبهم فرعون - وعلى كل فإن ابن عبد الحكم وابن مماتي يتفقان مع النابلسي وغيره من أتوا بعده أن المنهى يخرج من هذه النواحي وليس من صول كما ذكر الإدريسي .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠١ .

(٣) الخطط ج ١ ص ٧١ .

(٤) تعرف الآن باسم ديروط الشريف من أعمال أسيوط وعندها يخرج بحر يوسف .

(٥) انظر الهامش ٥ في الصفحة السابقة

(٦) تاريخ الفيوم وبلاده ص ٥ .

(٧) المرجع السابق ص ٣ .

للاهتمام بحضره ذكر في الديوان ولا حساب يشهد به من مدة تزيد على مائة سنة « وهو قول رجل مستول يدل على مدى الإهمال الذي تعرضت له البلاد والذي كان من نتائجه انحطاط ثروة البلاد الزراعية . ولكنه يذكر أن نجم الدين أيوب أمر بالعناية به .

وقد صار المنهى وخليج الفيوم يعرفان منذ عهد المقریزی على الأقل باسم بحر يوسف ١ ، ويصفه المقریزی بأنه « نهر لا ينقطع جريانه في جميع السنة . ويذكر قصة حفر يوسف له وخروج الملك ليرى هذا العمل الذي تم في سبعين يوماً ، فتعجب وقال إنه عمل ألف يوم وبذلك سميت الفيوم ٢ .

وقد أجمع المؤلفون سواء قبل الإسلام وبعده ، على أن هذا الخليج قد جعل من الفيوم بلداً خصباً لا يعادله إقليم آخر بمصر . وأنه الإقليم الوحيد الذي يروى طيلة العام ٣ .

٢ - خليج الإسكندرية : ارتبط تاريخ هذا الخليج بتاريخ الإسكندرية . فالإسكندر الأكبر عندما بنى مدينته سنة ٣٣١ ق.م ، رأى أن يوفر لها الماء فمد قناة من الفرع الكانوبي عند مدينة شديا ٤ إلى الإسكندرية ٥ .

وقد وصف استرابون ٦ هذه القناة بأنها تقع على يمين الخارج من الإسكندرية عن طريق البوابة الكانوبية ، وأنها تمتد من البحيرة ( بحيرة مارية أو ماريو طيسى وهي مربوط الحالية ) إلى شديا على الفرع الكانوبي والتي تبعد عن الإسكندرية أربع شوينات ( ٣٤,٥ كم تقريباً ) . وعند شديا مرسى المراكب التي يستقلها الحكام عند إبحارهم إلى الجنوب ، ودائرة جمركية للبضائع القادمة من الشمال والجنوب .

---

(١) المقریزی الخطط ج ١ ص ٧١ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٥ .

وهو قول أجمع عليه أكثر المؤلفين العرب . وهناك تعليقات أخرى لهذه التسمية ، منها ما جاء في كتاب «الاستبصار في عجائب الأمصار» لمؤلف مراکشى مجهول نشر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ص ٩١ « قال عبد الملك بن حبيب إنما سميت الفيوم لأن إخراجها ألف دينار كل يوم ٥٠١ » ويذكر الدكتور جونستون أن الفيوم هي تعريب كلمة بي يوما Piyuma أى النهر الذى يطلقه المصريون على النيل انظر p. 7

(٣) استرابون ص ٩٧ - قلقشندي المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠١ - المقریزی الخطط

ج ١ ص ٧١ .

(٤) أى القنطرة ومكانها اليوم قرية النشو البحرى مركز كفر النوار .

(٥) عمر طوسون « تاريخ خليج الاسكندرية » ص ٩ ويذكر أن رأس هذه التربة وفها لا يزالان إلى اليوم بالحالة التي كانا عليها في عصر إقامتهما على تربة الناصرى القديمة التي تمثل مجرى الفرع الكانوبي القديم .

(٦) استرابون في مصر ص ٧٦ .

وهذه القناة كانت صالحة للملاحة طيلة السنة ، إذ أن استرابون ١ يذكر أن أكبر مميزات الإسكندرية ، أنها المدينة الوحيدة في مصر كلها ذات الموقع الصالح للتجارة الخارجية لوجود الميناء والداخلية لأن « النهر يحمل وينقل بسهولة كل البضائع إلى هذا الموقع » .

ولقد ظل هذا الخليج على الحالة التي وصفها استرابون - أى من شديا إلى إسكندرية - حتى القرن الخامس الميلادي حيث فقد الفرع الكانوبي أهميته وأصبح مجرد ترعة ٢ ، تخرج من فرع رشيد عند الراقفة ( زاوية البحر ) ، فإذا ما وصلت إلى الكريون تفرعت فرعين فرع ظل كما كان الحال قديماً يتجه شمالاً في المجرى الكانوبي ، والفرع الآخر هو قناة الإسكندرية القديمة من شديا حتى الإسكندرية .

فلما فتح العرب مصر ، كان الجزء الممتد من الكريون إلى خليج أبي قير قد زال من الوجود ، وبمعنى آخر أصبح خليج الإسكندرية عند الفتح العربي يمتد من زاوية البحر إلى الكريون في مجرى الفرع الكانوبي القديم ثم يتبع مجرى قناة شديا الذي حفره الإسكندر ٣ .

وقد أخطأ ابن عبد الحكم وغيره من المؤلفين العرب ، إذ نسبوا إلى كليوباتره إنشاء هذا الخليج ، وأنها ساقته من النيل من قرية كسا قبالة الكريون ٤ ولكن المسعودي يذكر أن الخليج كان موجوداً عند إنشاء الإسكندرية فيقول ٥ « وقد كان الإسكندر ابن فيليس المقبوني بنى الإسكندرية على هذا الخليج من النيل وكان يفجر إليه معظم ماء النيل ويسقى بلاد الإسكندرية وبلاد مريوط » .

وقد تغير مكان خروج هذا الخليج منذ الفتح عدة مرات .

فكان يبتدئ أولاً عند الراقفة ، ٦ وظل الحال على ذلك حتى أوائل القرن الرابع الهجري على الأقل حيث كان قدامة بن جعفر آخر مؤرخ يقول بخروج الخليج

---

(١) استرابون في مصر ص ٧١ .

(٢) عمر طوسون : المرجع السابق ص ١١ .

(٣) انظر عمر طوسون . تاريخ خليج الاسكندرية ص ١٥ .

(٤) ابن عبد الحكم المرجع السابق ص ٤١ - ابن دقاق المرجع السابق ج ٥ ص ١٢١ -

المقريزي الخطط ج ١ ص ٧١ ، ١٦٩ .

(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٦) انظر ابن خرداذبة المسالك والممالك ص ٢٢٠ .

من ذلك المكان ١ . وقد طهر الخليج في هذه الفترة مرتين على الأقل ذكرهما المؤرخون العرب ، أولاهما على يد الحارث بن مسكين أثناء تولية قضاء مصر من قبل الواثق بالله سنة ٢٣٩ هـ ٢ . والثانية في عهد أحمد بن طولون سنة ٢٥٩ هـ ٣ .

ولكن سرعان ما طمشته الرمال ، إذ إن المسعودي يذكر أن النيل انقطع عن الإسكندرية وأنه في سنة ٣٣٢ هـ زاد النيل إلى ثمانية عشر ذراعاً ومع ذلك لا يعلم هل دخل الماء خليج الإسكندرية أم لا . وفي ذلك دليل على مدى الإهمال الذي تعرض له هذا الخليج<sup>٤</sup> .

ويذكر ابن حوقل بعد ذلك بسنين قليلة ، مكاناً آخر إلى الشمال من الراققة يخرج عنده الخليج وهو مدينة شابور<sup>٥</sup> . ولكن لم يذكر هو أو غيره التاريخ الذي حدث فيه هذا التغير أو الشخص الذي أمر به .

ويصف<sup>٥</sup> الإدريسي - الذي جاء بعد ابن حوقل بقرنين - مجرى الخليج وصفاً مطابقاً لما ذكره ابن حوقل ، ولكن في الصفحات التي تسبق ذلك<sup>٦</sup> يصير أنه عند قرية ببيج يتفرع خليج يصل إلى الإسكندرية<sup>٧</sup> .

ويرى عمر طوسون أن فم الخليج في هذه الفترة كان عند ببيج فعلاً ، وأن ذلك التغير حدث في زمن الحاكم بأمر الله سنة ( ٤٠٤ هـ - ١٠١٣ م )<sup>٧</sup> . ويستند في ذلك على ما ذكره المقرئ في نقلاً عن أبي الحسن الخزومي<sup>٨</sup> ( من القرن السادس الهجري ) « أما خليج الإسكندرية فإنه من فوهة الخليج إلى ترعة بودرة ليس على شيء منها سد . بومنجرج (أبومنجوج) ، محلة تبوك (آتبوك) ، أسينه (أسمانية) ، أورين محلة فرنوى ، محلة حسن ، منية طراد وتعرف بالقاعة ، محلة مسروق ونصر » .

---

(١) الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٢٠ .

(٢) الكندي « الولاة والقضاة » ص ٤٦٩ .

(٣) المقرئ في الخطوط ج ١ ص ١٧١ .

(٤) صورة الأرض ص ٨٢-٨٣ .

(٥) صفة المغرب ص ١٦٠ .

(٦) « » « ١٤٩ .

(٧) عمر طوسون تاريخ خليج الإسكندرية ص ٢٠-٢١ .

وفي ذلك يقول المقرئ في الخطوط ج ١ ص ١٧١ نقلاً عن المسبحي « إن الحاكم بأمر الله أطلق لحفر خليج الإسكندرية في سنة ٤٠٤ خمسة عشر ألف دينار فحفر كله » .

(٨) الخطوط ج ١ ص ١٦٩ والخزومي عاش في القرن السادس الهجري أي القرن الذي

عاش فيه الإدريسي .



ويؤكد - أى عمر طوسون - أن هذا المجرى هو مجرى فرع فرنوه الذى ذكر ابن حوقل خروجه عند بيج ، ولكن بدلاً من أن ينغطف من محلة نصر إلى الشرق ليلتقى بفرع رشيد عند فوه ، يظل متجهاً إلى الشمال الغربى إلى الإسكندرية . وأن الغرض الذى دعا إلى هذا التغيير هو فتح باب جديد لتغذية ترعة الإسكندرية ١

وعلى كل فقد أكد ابن ممتى ٢ بما لا يدع مجالاً للشك ، أن فتحة هذا الخليج كانت عند بيج وأن طوله ٣٠٦٣٠ قصبة حاكمة أى ١١٨ كم ٣ .

ويظهر أن فتحة شابور ظلت تعمل إلى جانب فتحة بيج ، إذ يروى المقرئى ٤ : « وفى سنة ٦٦٢ بعث الملك الظاهر بيبرس الأمير علياً أمير جاندار لحفر خليج الإسكندرية وقد امتلأت فوهته بالطين وقل الماء فى الإسكندرية ، فابتدأ الحفر من النقيدى وأنشأ هناك مسجداً ، ثم بعث السلطان فى سنة ٦٦٤ لحفر هذا الخليج الأمير علم الدين سنجر المسرورى ، ثم سار بكافة الأمراء والأجناد وباشر الحفر بنفسه ، وعمل فيه الأمراء وجميع الناس إلى أن زالت الرمال التى كانت على الساحل بين النقيدى وفم الخليج . ٥

وللمرة الرابعة ينتقل فم الخليج إلى الشمال ، فيذكر القلقشندي أن خليج الإسكندرية يخرج من العطف المقابلة لفوه ، وأن فوهته كانت فيما تقدم عند الظاهرية ٥ . ولم يذكر القلقشندي من قام بهذا التغيير ، ولكن المقرئى ٦ يذكر أنه فى سنة ٧١٠ أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون بحفر هذا الخليج . وعلى ذلك يكون الناصر محمد بن قلاوون هو الذى نقل فتحة الخليج إلى العطف ، وأن الجزء الجديد الذى حفره يمتد من العطف حتى يلتقى بمجرى الخليج القديم عند كفر الحمايدة (شمال دمنهور) وسمى هذا الجزء الجديد الخليج الناصرى ٧ .

---

(١) عمر طوسون المرجع السابق ص ٢١ .

ويظهر أن الخليج رغم هذا العمل قد انقطع عن الإسكندرية بعد ذلك بمدة قصيرة حيث يذكر الرحالة الفارس ناصر خمرى علوى أن ماء الشرب فى الإسكندرية من المطر سفرنامه ص ٤٣ )

(٢) قوانين الدواوين ص ٢٢١ .

(٣) عمر طوسون المرجع السابق ص ٢٥ . كما يذكر أن طول هذه المسافة حسب ما تدل عليه خرائط المساحة ١١١ كم .

(٤) الخطط ج ١ ص ١٧١ .

(٥) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٤ .

(٦) الخطط ج ١ ص ١٧١ .

(٧) عمر طوسون المرجع السابق ص ٢٦-٢٨ وارجع للخريطة الملحقه بالكتاب .

وظل الماء يجرى فى الخليج طيلة العام إلى ما بعد سنة ٧٧٠ هـ حيث انقطع دخول الماء فيه إلا أيام الزيادة ، ولذلك أمر الملك الأشرف برسباى بحفره فى سنة ٨٢٦ هـ وانتهى فى تسعين يوماً ١ وعلى ما يذكر عمر طوسون أن الأشرف برسباى نقل فتحة الخليج من العطف إلى الجنوب عند الرحمانية ، وسميت الترعة الجديدة الأشرفية ٢ .

ولكن بالرغم من هذه الإصلاحات والتطهير ، سرعان ما تعذر سلوك هذا الخليج بالمراكب إلا فى أيام النيل . وظل الخليج مهملًا حتى حفر محمد على ترعة المحمودية وكان رأى أولاً أن تتبع مجرى الأشرفية وتبدأ من الرحمانية ثم عدل عن ذلك وجعل بدايتها عند العطف ٣ ، وبذلك تكون فتحة خليج الإسكندرية قد عادت إلى الشمال مرة أخرى. وظلت ترعة المحمودية تتبع مجرى خليج الإسكندرية مع بعض التعديلات ٣ .

٣ - خليج أمير المؤمنين : بعد أن استتب الأمر لعمر و بن العاص فى مصر ، قام بعمل يعد من أروع أعماله الإدارية ، ذلك حفره خليجاً يربط بين النيل والبحر الأحمر . ولقد أصبح هذا الخليج مرتبطاً بتاريخ القسطنطينية والقاهرة بوجه خاص وبتاريخ مصر بوجه عام حتى ردم منذ عهد غير بعيد .

فالعيد الذى كان يقام كل عام لكسر سده - أو كما يقولون جبر الخليج - ظل من أهم أعياد القاهرة وأروعها التى يشترك فيها ذوو السلطان والعامة على السواء . كما كان هذا الحفل بمثابة إعلان عن وفاء النيل وإيدان بيده جمع الخراج .

وهو خليج قديم ، كان يعرف باسم قناة تراجان تخرج من النيل شمال بابليون وتمر بعين شمس ثم تسير فى وادى الطيليات ، وإن خط سيرها هو مجرى قناة الإسماعيلية الآن

---

(١) المقرئى الخطط ج ١ ص ١٧٢ .

(٢) عمر طوسون المرجع السابق ص ٢٨-٢٩ .

ومما يؤيد رأى عمر طوسون من أن تخرج الأشرفية كان عند الرحمانية مذكورة الجبرقى فى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٤ ص ٢٦٥ فى حوادث شهر جمادى الثانى سنة ١٢٣٢ هـ وأن محمد على رأى حفر ترعة إلى الإسكندرية ومبداً خليج الأشرفية عند الرحمانية . ويذكر على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ج ١ ص ١٣ أن الناصر محمد بن قلاوون أمر بحفر خليج الإسكندرية من عند قرية الرحمانية حتى انتهوا به إلى الخليج الأصلى فسمى الخليج الناصرى من ذلك الوقت ولا شك أنه خطأ فى ذكر مكان ابتداء الحفر ، فكما رأينا ذكر القلقشندى أن الخليج يبتدىء من العطف المقابلة لقوة ولم ينتقل إلى الرحمانية إلا بعد ذلك . وقد عاد على باشا مبارك وأيد هذا رأى حيث يذكر فى ج ١٤ ص ٥٢ عن العطف : أن فم الخليج الناصرى القديم واقع بينها وبين ترعة الاتكاوية ولأن تشاهد جوانبه مرتفعة عن أرض الشارع نحو مترين . (٣) انظر الجبرقى المرجع السابق حوادث شعبان سنة ١٢٣٢ وانظر على مبارك الخطط ج ٧ ص ٤٥ ، ص ٥٠-٥١ ونجدة الفكر ص ٨٤ وكلوت بك لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٧٠٢-٧٠٣

من العباسية حتى الإسماعيلية ثم يتجه جنوباً في مجرى قناة السويس الحالية من بحيرة التمساح متحرّقا البحيرات المرة حتى يصب في خليج السويس عند السويس ١ .

ولكن هذه القناة أقدم من زمن تراجان بكثير ، وإن نسبت إليه لأنه أعاد تطهيرها ونقل مخرجها إلى بابليون . فقد ذكرها هيرودوت ٢ وديودور ٣ الصقلي واسترابون ٤ باسم قناة البحر الأحمر وتخرج من الفرع البيلوزي إلى أرسنوى Arsinoe (السويس) وأن نيخو بن بساتيك (نكاو الثاني من الأسرة ٢٦ عام ٦٠٩-٥٩٣ ق.م) هو الذى بدأ حفرها ولكنه سرعان ما تركه لظهور نبوءة تقول بأن الذى سيستفيد منها أجنبي ، وباشّر العمل بعده في حفرها دارا الأول الذى لم يتمها هو الآخر لاقتناعه برأى خاطيء بأن مستوى البحر الأحمر أعلى من مستوى أرض مصر ، ثم استأنف البطالمة الحفر فأتمها بطليموس الثاني وسميت القناة باسمه .

وقد جدد حفر هذه القناة مرات بعد ذلك ، لعل أهمها التجديد الذى حدث في عهد تراجان ونقله مخرجها من بوباسطيس (تل بسطه قرب الزقازيق) إلى بابليون حتى سميت باسمه .

وكما فعل تراجان فعل عمرو بن العاص بعد ذلك بعدة قرون . فقد أعاد حفر القناة وأصلحها بعد أن كان الرمل قد سدها ، حتى قيل إن عمرا «احتاج إلى من يده على موضعها من القبط فأجازه برفع الجزية عنه ٥ . ولكن السرعة التى تم بها الحفر تدل على أن أجزاء منها كانت ظاهرة ويذكر بتلر ٦ « قيل إن عمرا كان ينوى حفر خليج بين بحيرة التمساح ، والبحر الأبيض المتوسط ، فيكون بذلك قد قطع البرزخ بالبحر كما هو اليوم . ولكن عمر بن الخطاب أبى عليه ذلك وأنكره ، قائلاً أنه يمكن الروم من السير إلى البحر الأحمر وقطع السيل على من أراد الحج وليس في هذه القصة شبهة تمنع من تصديقها ٧ .

---

(١) بتلر «فتح العرب لمصر» ص ٢٩٩ .

عمرطوسون op. cit. TL p. 230

(٢) هيرودوت في مصر ص ١٢٩ .

(٣) ديودور الصقلي في مصر ص ٦٧-٦٨ .

(٤) استرابون في مصر ص ٨٦-٨٧ : ١٧ : ٢٥-٢٦ .

(٥) ابن عبد الحكم ص ١٦٦ - بتلر المرجع السابق ص ٢٩٩ .

(٦) بتلر : المرجع السابق ص ٣٠١ .

(٧) يظهر أن خليج أمير المؤمنين كان مع ذلك يربط بين البحر الأبيض والأحمر إذ ينقل السيوطي في مخطوطه كوكب الروضة « ص ٩١ عن ابن زولاق : وكان خارج البحر يركبون فيه من ساحل تمنيس يسرون منه ثم يتقلون بالقازم إلى المراكب الكبار » .

أما سبب حفر خليج أمير المؤمنين أو على الأصح إعادة حفره هو المجاعة التي حدثت في الحجاز والتي تعرف بعام الرمادة ، فأرسل الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص يسأله القوات ويقول له : إنه قد ألقى في روعى أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر فهو أسهل لما تريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة ١ .  
وأما تاريخ حفره فيجمع الكتاب العرب على ما ذكره الكندي من أن عمراً بدأ الحفر سنة ٢٣ هـ ( ٦٤٣-٦٤٤ م ) ٢ ، وفرغ منه في ستة أشهر وجرت السفن في الخليج ووصلت إلى الحجاز في الشهر السابع . وظلت التجارة والأقوات تحمل إلى الحجاز عن طريق هذا الخليج حتى بعد زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز ثم أهملته الولاة وطغت عليه الرمال وصار نهايته بحيرة التماسح . وقيل إن الخليفة أبو جعفر المنصور هو الذى أمر بردم هذا الخليج ليقطع عن الحجاز الطعام ، وذلك عندما ثار عليه بها محمد بن عبد الله أحد أحفاد علي من بنى الحسن سنة ( ١٥٨ هـ - ٧٧٥ م ) .

أما المقدسى فيعطينا وصفاً لخليج أسماه أيضاً خليج أمير المؤمنين ، ولكنه يختلف تماماً عما أجمع عليه الكتاب العرب ، فيذكر عند وصفه للقسطاط ٣ ، وهو (القسطاط) نحو ثلثي فرسخ طبقات بعضها فوق بعض ، وكانت جانبيين ، القسطاط والجزيرة . ثم شق بعض الخلفاء من ولد العباسي خليجاً على قطعة منها فسميت تلك للقطعة الجزيرة لأنها بين العمود والخليج وسمى خليج أمير المؤمنين منه شربهم ٤ .  
ويظهر أن الأمر اختلط عليه فظن أن مجرى النيل بين القسطاط وجزيرة الروضة هو خليج أمير المؤمنين ، وأن الذى حفره أحد خلفاء بني العباس .

ويعتقد الرحالة الفارسي ناصر خسرو علوى أن الذى حفر هذا الخليج خليفاً فاطمى - لعله يقصد الظاهر بن الحاكم ٥ ، فيقول ٤ : ويرى السائر خارج المدينة (القاهرة) ناحية الغرب ترعة كبيرة تسمى الخليج حفرها والد السلطان وله على شاطئها ثلثمائة قرية ، ويبتدىء فم الخليج من مدينة مصر ويمر بالقاهرة ويدور بها أمام قصر السلطان ، وقد شيد على رأسه قصران أولهما قصر التلوثة وثانيهما قصر الجوهرة ٥ .

وقد أطلقت أسماء مختلفة على الخليج ٦ ، فيذكر المقرئى ٥ أنه سمي خليج

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٦٣ .

(٢) يرى بتلر أن الأصح هو أن عمر ابتداء الحفر في شتاء ٦٤١-٦٤٢ م . انظر المرجع

السابق ص ٢٩٩ .

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٩٨ .

(٤) « سفر نامه » ترجمة الدكتور يحيى الحشاش ص ٥٠ .

(٥) الخطط ج ٢ ص ١٤٠ .



أمير المؤمنين وخليج مصر ثم صار يعرف بخليج القاهرة بعد بنائها على يد جوهر ، وفي أيامه هو أطلق عليه اسم الخليج الحاكمي ، وزعمت العامة أن الحاكم هو الذي حفره ، ومن العامة من يطلق عليه أيضاً خليج الأؤلوة .

وينسب المقرئزي ١ حفره قبل الإسلام إلى أحد ملوك منف اسمه طوطيس ابن مالبا ، وذلك إن إبراهيم الخليل لما حضر إلى مصر أهداه هذا الملك هاجر ، فلما تركها إبراهيم مع ابنها وحيد في الحجاز ، استغاث بالملك فحفر لها هذا الخليج ليحمل إليها فيه الطعام . وجدد حفره بعد ذلك أحد ملوك الرومان أسماه اندرومانوس . ويقول أيضاً إن فم الخليج كان في ذلك الوقت عند عين شمس حيث كان النيل يمر هناك ثم انتقل إلى موضعه عند القسطاط ، وقد أيدته في ذلك على باشا مبارك ٢ . ولكن الحقيقة أن مأخذ الخليج انتقل من بوباسطيس إلى بابليون في عهد تراجان — كما سبق القول — وعندما جدد عمرو حفر هذا الخليج جعل مخرجه من النيل شمال القسطاط ، ولا يبعد أن يكون هو نفسه المكان الذي كان يخرج منه قناة تراجان .

وقد جدد المأمون البطائحي حفر هذا الخليج ٣ سنة ٥٠٢ هـ في وزارة الأفضل شاهنشاه وزير المستعلي بالله الفاطمي ٤ وجعل حفره بأبقار البساتين التي عليه وأقام عليه والياً بمفرده ومنع الناس من أن يطرحوا فيه شيئاً .

وقد بنى عبد العزيز بن مروان قنطرة على فم هذا الخليج ، وقام ببنائها سعيد أبو عثمان سنة ٦٩ هـ وجددت أكثر من مرة كان آخرها أيام العزيز بالله الفاطمي وهي التي كانت تفتح عند وفاء النيل في زمن الفاطميين . فلما انحسر النيل عن الساحل أهملت هذه القنطرة ودثرت ، وأنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب قنطرة أخرى حيث كان النيل ينتهي وهي التي كانت تعرف بقنطرة السد ٥ .

ولكن المقدسي يذكر ٥ أن السد الذي كان على خليج أمير المؤمنين كان عند

---

(١) الخطط ج ١ ص ٧١ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ٦١٣ وما بعدها .

(٣) القلقشندي «صبح الأعشى» ج ٣ ص ٣٠٢ .

المقرئزي الخطط ج ٢ ص ١٤٤ .

السيوطي حمن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٤) المقرئزي الخطط ج ٢ ص ١٤٦ .

ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» ج ٤ ص ٤٣-٤٥ .

السيوطي المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٥) أحسن التقاسيم ص ٢٠٦ .

عين شمس وأن السلطان كان يخرج إلى هناك لقطعه . ولم يذكر مؤلف آخر — غير المقدسى — أن السد كان بعين شمس فكل الاحتفالات التي ذكرها المؤلفون العرب بوفاء النيل وكسر الخليج كانت تقام عند فمه على النيل .

ويصف على باشا مبارك ١ ، الخليج في عصره بأنه لم يعد كما كان في الماضي ، وزالت البساتين وبُنيت على جانبيه المباني . وأن فمه كان قبل القصر العيني وبحرى السبع سواقي ويصب في مصرف الشينى ، فلما حُفرت ترعة الإسماعيلية صار نهايته قبل أبى زعبل . ويذكر أنه كان عليه عشرون قطرة بالقاهرة وست بمديرية القايوية . كما ظل مهرجان جبر الخليج من أعياد القاهرة المشهورة ولذلك — كما يزوى — قلق الناس مما يقال من التفكير في ردمه بسبب ما يلحق فيه من القاذورات ، ويرى أنه لو ملئ بالماء على الدوام وشدد في منع إلقاء القاذورات به ، لبقى لأهل البلد فرحها الذى ألفته من قديم .

ولكن الخليج ردم في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٧-١٨٩٩) .

٤ — خليج أبى المنجا : وكانت العامة تسميه بحر أبى المنجا . حفزه الأفضل وزير المستعلى الخليفة الفاطمى ، بناء على نصيحة أبى المنجا بن شعيا اليهودى الذى كان مشرفاً على البلاد الشرقية التابعة لديوان الخلافة ، وذلك لأن الماء لم يكن يصل لهذه الجهات إلا من خليج السردوس وغيره من الأماكن البعيدة .

وابتدأ الحفر فيه يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ٥٠٦ هـ ، وتم في ستين . ويقال إن الأفضل ركب في النيل مع حاشيته بعد أن رمى فيه حزمة من البوص وأخذ يتبعها حتى رماها الماء في المكان الذى ابتدأ الحفر منه .

وكان هذا الخليج سبباً في ازدهار هذه البلاد التى يروىها ، وقد غلب على الخليج اسم أبى المنجا بالرغم من محاولة الأفضل تسميته باسمه ٢ .

وفى وزارة المأمون البطائحي قى عهد الأمر بالله الفاطمى ، جعل فتح هذا الخليج في احتفال كبير كاحتفال قطع خليج القاهرة ، وبني على سده منظره متسعة . وظل هذا الاحتفال معمولاً به أيام الدولتين الفاطمية والأيوبية ، ثم أهمل الاحتفال بفتحه بعد ذلك حيث يذكر المقرئى «تلاشى في زمننا أمر الاجتماع في يوم فتح سد أبى المنجا وقل الاحتفال به لشغل الناس بهم المعيشة» ٣ .

(١) الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ١٢٣ .

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٨٧ .

(٣) » » ج ١ ص ٤٨٨ .

وذكر المقرئى ج ١ ص ٦٠ عن القاضى الفاضل أن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين

كسر بحر أبى المنجا في شوال سنة ٥٩٢ هـ ..

ويقع ابن لباس في خطأ كبير ، إذ يعتقد أن الذي حفر الخليج هو الأفضل أمير  
الخيوش بدر الجمالي بن خماروية بن أحمد بن طولون ١ .

ويذكر علي باشا مبارك ٢ أن مبدأ الخليج الذي يطلق عليه أيضاً اسم بحر الطينة  
كان عند قرية بسوس . كما أورد ٣ ضمن الترع الموجودة في عصره « ترعة أبي  
المنجا » وتخرج من النيل شمال دمنهور ( قليوبية ) وتصب في ترعة القرطامية النيلية  
بالقليوبية .

ويصف عمر طوسون ٤ مجرى هذا الخليج بأنه كان يحتل مجرى الفرع البيلوزي  
حتى شبين القناطر ( قناة الشرقاوية الحالية ) ثم يتجه شرقاً إلى بليس متبعاً قناة شبين  
الحالية .

وهناك خلجان وترع أخرى ذكرها البعض وأهمها آخرون ومنها :

٥ - خليج الذكر : ذكره المقرئزي ، وينسب حفره إلى كافور الإخشيدي ،  
وأنه كان يروي بستان المقسى . فلما حول هذا البستان في أيام الخليفة الظاهر الفاطمي  
إلى بركة أمام قصر اللؤلؤة كان الماء يصل إليها من هذا الخليج .

وكان الخليج يستمد ماءه من خليج قم الخور ، حتى حفر الخليج الناصري بعد  
ذلك فصار الماء يدخل إليه من تحت قنطرة الدكة ( بين الأزبكية وباب الحديد ) .

وفي سنة ٧٢٤ هـ أوصله الناصر محمد بن قلاوون بخليج أمير المؤمنين فكادت القاهرة  
تغرق .

وقد فقد هذا الخليج أهميته قبيل زمن المقرئزي حيث يقول « وأنا أدركت آثاره  
هية يثبت القصب المسمى بالفارسي ، وأخبرني الشيخ المعمر حسام الدين حسين بن عمر  
الشهرزوري أنه يعرف خليج الذكر هذا وفيه الماء ، وسبح فيه غير مرة وآرائه آثاره ،  
وكان الماء يدخل إليه من تحت قنطرة الدكة ٥ » .

أما الاسم الذي عرف به الخليج وهو « الذكر » فينسب إلى أحد أمراء الظاهر  
بيبرس اسمه شمس الدين الذكر الكركي « كان له فيه أثر من حفره فعرف به ٦ » .

(١) «بدائع الزهور» المطبعة الأميرية ص ٤١ . والظاهر أنه خلط بينه وبين أبي الساكر

جيش ابن خماروية تولى سنة ٢٨٢ هـ .

(٢) الخبط التوفيقية ج ١٦ ص ٣

(٣) المرجع السابق ج ١٩ ص ٤٣ .

(٤) op. cit. T.I. p. 195

(٥) الخبط ج ٢ ص ١٤٤-١٤٥ .

(٦) المقرئزي : الخبط ج ٢ ص ١٤٥

٦ - الخليج الناصري : لما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه بسرياقوس (مركز الخانكة) أمر بحفر هذا الخليج سنة ٧٢٥ هـ لتوصيل الماء إليها ، وحفر في مدة شهرين ١ وقيل في أربعة أشهر ٢ .

ويصف المقرئى مجراه بأنه « يتدى من النيل عند موردة البلاط من أراضي بستان الحشاب إلى الميدان الظاهري الذي أنشأه الملك الناصر بستاناً ، ويمر من البستان إلى بركة قرموط حتى ينتهي إلى ظاهر باب البحر ويمر من هناك على أرض الطباقة ليصب في الخليج الكبير (خليج أمير المؤمنين) » . أى أن مجراه يتدى عند قرب قنطرة السد (شمال مصر العتيقة) ويتجه إلى ميدان التحرير وأبى العلا وبولاق ثم يتلاقى مع الخليج الكبير بقرب جامع الظاهر ٣ . ويذكر على باشا مبارك أن جزءاً منه ظل باقياً إلى عهده ٣ .

٧ - ترعة بلقينة : ذكرها المسعودى ٤ على أنها من أمهات الترع التي بالبلاد وأنها تفتح إذا كان الماء زائداً في عيد الصليب في الرابع عشر من توت . ولكنه لم يذكر لنا مكانها أو يصف مجراها .

والإدريسي هو الوحيد الذي وصفها ، بأنها تخرج من خليج المحلة عند بلقينة وتتجه غرباً في خط مستقيم إلى صخا (سبخا) مارة على دار البقر والمعتمدية ومتبول حتى تنتهي عند صخا في البرية ٥ .

ويذكر ابن مماتي ٦ تاريخاً لفتح هذه التربة يخالف التاريخ الذي ذكره المسعودى في حيث أورد أنها تفتح في عاشر بابة .

٨ - ترعة ذات الساحل : لم يذكرها إلا المسعودى ٧ على أنها أيضاً من أمهات الترع ولكنه لم يذكر لنا ما يفيد مكان خروجها أو مجراها .

---

(١) السيوطي المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٢) أبو المروار البكرى الصديق .. الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة من مخطوط مصور بمكتبة بلدية الإسكندرية ص ١٢٨ .

(٣) على مبارك الخطط التوفيقية ج ١ ص ٣٣ .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٥) الإدريسي : «صفة المغرب» ص ١٥٨ وبلقينة كما ذكرها ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٧٢٩ قرية من حوف مصر من كورة بنا يقال لها البواب أيضاً . ويذكر ابن الجيعان ، التحفة السنية ص ٧٣ أنها من الأعمال الغربية وكانت قرية من سمود .

(٦) قوانين الدواوين ص ٢١٨ .

(٧) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٣ .



٩ - خليج المحلة : وصفه الإدريسي ١ بأنه يخرج من فرع مليج ( قسم من فرع دمياط ) عند طنطى ٢ ، ويصب في فرع دمياط عند شرمساح .

١٠ - خليج شانشا : يخرج من فرع دمياط عند منية بلر ( ميت بلر حلاوة ) ويتجه شرقاً إلى مدينة شنشا والبوهات وسفناس حيث يصب في بحيرة الزار المتصلة ببحيرة تنيس قرب القرما ٣ .

١١ - خليج دمياط : ذكر ابن عبد الحكم خليج دمياط ، ولعل ابن عبد الحكم يقصد بذلك فرع دمياط . أما ياقوت ٤ فيذكر أنه كان يخرج من النيل عند دمياط خليج يصفه بقوله : « ومن قبلها ( أى دمياط ) خليج يأخذ من بحرهما سمت القبلة إلى تنيس » ثم يقول « ومن طريف أمر دمياط في قبلها على الخليج مستعمل فيه غرف تعرف بالمعامل يستأجرها الحاكة لعمل الثياب الشرب فلا تكاد تنجب إلا بها : الخ » : إلى غير ذلك من الترع الكثيرة التي ذكر ابن ممتى ٥ عدداً كبيراً منها ومواعيد فتحها يقصر المجال عن ذكرها ٥

ثانياً - الجسور :

أما الجسور فهي لضمان رى الأراضى في الوقت المناسب وبالقدر المناسب أيضاً : فتعمل في مناطق معينة تضم مساحات خاصة من الأرض حتى لا يركبها النيل إلا في موعد محدد تفتح السدود فيه فيروى هذا الجزء ، حتى إذا استكمل ريه قطعت الجسور في مناطق معينة معروفة وفي أوقات محددة كذلك حتى ينصرف الماء إلى ما يليها من جهات علاوة على ما يأتيها من ماء آخر ، وهكذا يتناوب فتح الجسور حتى تستكمل أرض البلاد كلها ريه .

ويقول المقرئى ٦ وأراضى مصر أقسام كثيرة منها عال لا يصل إليه الماء إلا من زيادة كبيرة ومنها منخفض يروى من يسير الزيادة . والأراضى متفاوتة في الارتفاع والانخفاض تفاوتاً كثيراً . ولذلك احتيج في بلاد الصعيد إلى حفر الترع وفي أسفل الأرض إلى عمل الجسور حتى يجتسب الماء ليروى أهل النواحي على قدر حاجتهم إليه عند الاحتياج ٦ .

(١) انظر الهامش ٥ في الصفحة السابقة .

(٢) ذكر الإدريسي بلدين على هذا الفرع هما طنطة وطلطى . ولا نعلم بالضبط هل يقصد - بالمكان الذى يخرج عنده الخليج طنطة أو طلطى . وإن كان عمر طوسون يذكر أنها طنطة

انظر : Tousson ; Op. Cit. TI p. 229

(٣) الإدريسي : صفة المغرب ص ١٥٤ .

(٤) معجم البلدان ج ٢ ص ٦٠٢-٦٠٣ .

(٥) قوانين الدواوين ص ٢٠٥ .

(٦) الخطط ج ١ ص ٥٥ .

كما يذكر ما للترع والجسور من فوائد لو أحسن صيانتها فيقول ١ :  
« لولا إتقان ما هنالك من الجسور وحفر الترع والحلجان لقل الانتفاع بماء النيل ،  
كما قد جرى في زماننا هذا . وقد حكى أنه كان يرصد لعمارة جسور أراضي مصر في كل  
سنة ثلث الخراج لعنايتهم في القديم بها من أجل أنه يترتب على عملها رى البلاد الذي به  
مصالح العباد » .

وليس أدل على أهمية الجسور ، ما وصلت إليه حال البلاد من سوء نظراً لإهمال  
جسورها . فالقلقشندى يعلق على ما ذكره المسعودى من أن النيل إذا بلغ سبعة عشر ذراعاً  
عم جميع البلاد بقوله : « هذا ما كان عليه الحال في زمانه وما قبله وكان الحال جارياً  
على ما ذكره في غالب السنين إلى ما بعد السبعمئة » .

« أما في زماننا فقد علت الأرض مما يرسب عليها من الطين المحمول مع الماء في كل  
سنة وضعفت الجسور . وصار النيل بحكمة الله تعالى إلى ثلاثة أقسام : متقاصرة وهي  
ست عشرة ذراعاً فما حولها ، ومتوسطة وهي سبع عشر ذراعاً إلى ثمان عشرة ذراعاً  
فما حولها وعالية وهي ما فوق الثمان عشرة وربما زادت على العشرين » ٢ .

بل وزادت الحالة سوءاً في زمن المقرئ فيقول ٣ : « قال ( القاضي الفاضل )  
وفي تاسع عشرة يعنى شوال سنة ٥٩٢ كسر بحر أبي المنجا .... وزاد النيل فيه إصباعاً وهي  
الإصبع الثامنة عشرة من ثمان عشرة ذراعاً ، وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى  
فانظر كيف يسمى القاضي الفاضل هذا القدر اللجة الكبرى ، وأنه والعياذ بالله لو بلغ  
ماء النيل في سنة هذا القدر فقط لحل بالبلاد غلاء يخاف منه أن يهلك فيه الناس ، وما ذاك  
إلا لما أهمل من عمل الجسور » .

ويقول أيضاً ٤ : « وأدركت الناس يقولون نعوذ بالله من إصبع من عشرين وكنا  
نعهد الماء إذا بلغ أصابع من عشرين ذراعاً فاض ماء النيل وغرق الضياع والبساتين وفارت  
البلايع وما نحن في زمن منذ كانت الحوادث بعد سنة ٨٠٦ إذا بلغ الماء في سنة إصباعاً  
من عشرين لا يعم الأرض كلها لما قد فسد من الجسور » .

وللجسور عمل آخر علاوة على تنظيم الرى ، هو ضمان ربط البلاد المختلفة بعضها  
ببعض فكانت تستخدم كطرق زراعية ساعدت على سهولة المواصلات وأصبحت وسيلة  
للانتقال ونقل البضائع إلى جانب المواصلات النهرية في النيل . وكانت الجسور التي تحف

(١) الخطط ج ١ ص ٦١ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٠ .

(٣) الخطط ج ١ ص ٦٠-٦١ .

(٤) خطط ج ١ ص ٥٩-٦٠ .

مجرى النيل من الجانبين طرقاً رئيسية للمواصلات تعنى الدولة بها مثل الطريق بين العاصمة وأسوان والذي كان يستعمله التجار والحجاج على السواء كذلك الطريق بين العاصمة والإسكندرية ١ .

والجسور نوعان : جسور عامة وجسور بلدية .

١ - جسور عامة : وهذه تسمى الجسور السلطانية ، وتضم بلاداً كثيرة وتكون صيانتها والاهتمام بأمرها على نفقة ولى الأمر أى الديوان السلطانى . ويشبهها ابن ممتى ٢ بسور المدينة التى يجب على السلطان الاهتمام بعمارته والنظر فى مصلحته وكفاية العامة أمر الفكرة فيه .

ولهذه الجسور جراريث ومحاريث وأبقار مرتبة على البلدان المستفيدة منها . ويرتب على كل ناحية إما تقديم ما يقرر عليها من مؤنة وعلوفة وأتبان وحشيش أو دفع عشرة دنانير عن كل قطعة . ويذكر ابن ممتى ٣ . ومضت الأيام على ذلك حتى صار لازماً للفلاحين كأنه من بعض الخراج ويجرى فيما بينهم بنسبة ما يزرعه كل منهم ٤ .

وكان لكل عمل من الأعمال أمير ينظر فى عمارة جسوره يسمى « كاشف الجسور بالعمل القلاى » ، وقد يضاف النظر فى أمر الجسور إلى والى المنطقة . وتحت إمرة كاشف الجسور المهندسون والخولة يقومون بعمارتها .

كما كان لها كاتب خاص فى الديوان السلطانى ليكتب المرسلات السلطانية لكشاف الجسور ويعرف بما على كل بلد من الجراريف والأبقار . ٥

٢ - الجسور البلدية : وهى جسور خاصة لا تدخل فى المنافع العامة . وهذه يتولى أمر العناية بها أصحاب الإقطاعات من أموال إقطاعاتهم ، فإذا ما أنفق شيئاً من المال فى صيانة هذه الجسور فى سنة ما وخرج الإقطاع من يده لغيره فى هذه السنة جاز له استرداد ما أنفق من المقطع الجديد ٥ .

ويشبهها ابن ممتى ٥ بالدور والمساكن داخل سور المدينة ، كل صاحب دار منها ينظر فى مصلحتها ويلتزم تدير أمره فيها .

---

(١) انظر « كتاب فى مصر الإسلامية » مقالة المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى صفحات ٤٣ ، ٤٨

(٢) قوانين الدواوين ص ٢٢٢

(٣) « ص ٣٤٢ .

(٤) القلقشنلى صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٩ - ٤٥٠

(٥) ابن ممتى قوانين الدواوين ص ٢٢٣ .

كما يقرر أيضاً ١ أن الديوان كان يعنى بالجسور التي في أعمال الغربية وجزيرة قويسنا والشرقية فقط ، وما عدا ذلك يتولاه المقطعون والمزارعون .

ويروى المقرئ عن ابن عبد الحكم ٢ أنه قبل الإسلام كان مقررًا لحفر الترع وعمارة الجسور مائة وعشرون ألف رجل معهم المساحي والطوريات ، يعملون طول العام ، وأن ربع خراج البلد كان يخصص لذلك .

ولكن انتهى الأمر في العهد الإسلامي خصوصاً في عصر متأخر - نتيجة لنظام الإقطاع - أن أهملت الجسور البلدية وترك عمارة أكثرها لضمن أصحاب الإقطاعات يبذل المال في سبيل صيانتها ، واقتصر الأمر على العناية بالجسور السلطانية ، وحتى هذه لم يعد يعن العناية بها الكافية . وفي ذلك يقول القلقشندي ٣ : « وقد أهمل الاهتمام بأمر الجسور في زماننا وترك عمارة أكثر الجسور البلدية واقتصر في عمارة الجسور السلطانية على الشيء اليسير الذي لا يحصل به كبير نفع ، ولولا ما من الله تعالى به على العباد من كثير الزيادة في النيل من حيث إنه صار يجاوز تسع عشرة ذراعاً فما فوقها إلى ما جاوز العشرين ، لفات رى أكثر البلاد وتعطلت زراعتها . »

أما طريقة الانتفاع بالحلجان والترع والجسور فيجملها المقرئ ٤ بأنه عند ما يرتفع النيل وتخلو الأرض من الزرع ، ويكون ذلك غالباً أثناء شهر مسرى ، تفتح سدود الحلجان حتى يجري الماء في كل خليج إلى حد معلوم بحجز الماء عنده حتى يروى ما مر عليه من أراض ، ثم يفتح هذا الحد في يوم النوروز حتى يجري إلى حد آخر يقف عنده ليروى ما تحت هذا الحد الثاني من الأراضي . ثم يفتح هذا الحد في يوم عيد الصليب بعد النوروز بسبعة عشر يوماً حتى يجري الماء ويقف على حد ثالث حتى يروى ما تحت هذا الحد من الأراضي ، ثم يفتح هذا الحد فيجري الماء ويروى ما هنالك من الأراضي ويصب في البحر .

إلى جانب هذه الجسور التي من عملها تنظيم رى البلاد ، ذكر المقرئ ٥ بعض الجسور التي عملت لحماية مدينة القاهرة منها .

---

(١) ابن ماقى قوانين الدواوين ص ٢٤٢

(٢) انظر المقرئ الخطط ج ١ ص ٧٤ .

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ .

(٤) الخطط ج ١ ص ٥٥ .

(٥) الخطط ج ٢ ص ١٦٦-١٦٧ .



( أ ) جسر بين بولاق ومنية الشيرج :

أقامه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ هـ ، إذ أن النيل في هذه السنة أغرق نواحي بستان الخشاب ١ ، وبولاق وباب اللوق ووصل إلى منية الشيرج ٢ .

وامتد الجسر بين بولاق ومنية الشيرج ، وتم في عشرين يوماً ، وكان ارتفاعه أربع تصبات في عرض ثمانى قصبات .

( ب ) الجسر بوسط النيل :

ويعتمد بين بولاق وناحية أنبوبة ( امبابة ) ، وقد أمر ببنائه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ ، وجلب له المهندسين من دمشق وحلب والبلاد القراتية علاوة على مهندسى مصر .

وسبب إنشائه أن تيار النيل كان شديداً على ساحل بولاق حتى هدم أجزاء منه . فأول عمل هذا الجسر ليرد قوة التيار عن البر الشرقى إلى البر الغربى . وأشرف على العمل الأمير أقبغا عبد الواحد والأمير برصبغا الحاجب ، وبدئ فيه في العاشر من ذى القعدة وتم في منتصف ذى الحجة . كما حفر خليج في الجزيرة ليمر الماء فيه أيام الفيضان فلا يتأثر الجسر من قوة التيار .

( ج ) الجسر بين الجزيرة والروضة :

لما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون الجسر بين بولاق وأنبوبة ابتعد النيل عن ساحل القاهرة وانكشفت أراضي كثيرة وصار الماء يخاض من بر مصر إلى المقياس ولقى الناس مشقة لبعد الماء عن القاهرة .

فلما شكوا الناس إلى الأمير أرغون العلأى وإلى السلطان الملك الكامل شعبان بن الملك الناصر ، ابتدأ في عمل جسر بين الجزيرة وجزيرة الروضة ولكنه لم يتم وهدمه النيل . ولم يتم عمله إلا في عهد الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٤٩ هـ بعد أن لقى الناس مشقة عظيمة في إقامته .

وحفر خليج يجرى الماء فيه عند زيادة النيل لتضعف قوة التيار عن الجسر ، وذلك من رأس موردة الحلفاء إلى بولاق .

---

(١) كان بستان الخشاب واقعاً في المنطقة المحدودة الآن بشوارع قصر العيني ومجلس الأمة وعمر بن العزيز والخليج المصرى . انظر «النجوم الزاهرة» لابن تغرى بردى ج٤ ص ٤٥ .  
الحاشية .

(٢) جاء في معجم البلدان لياقوت عن منية الشيرج : «بلدة ذات سوق بينها وبين القاهرة فرسخ أو أكثر قليلاً على طريق القاصد إلى الإسكندرية» .

## الباب الثالث

# الفيضان والنظم الاقتصادية

— الفيضان

— النظم الاقتصادية



## الفصل الأول

### الفيضان

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن فيضان النيل هو الذى أوجد لنا هذا الوطن الذى نعيش فيه ، أو على الأقل جزءاً كبيراً منه . فالغرين الذى يحمله فى فيضانه كان سلاحه القوى فى صراعه الأبدى مع البحر والذى مكنته من أن يكتسب لمصر رقعة كبيرة من الأرض هى الدلتا . ونظرة سريعة إلى خريطة مصر ترينا مقدار اتساع الدلتا بالنسبة لأرض الوادى .

وقد كان لفيضان النيل — ولا زال — أثره فى حياة المصريين ونظمهم الاقتصادية ، فمساحة الرقعة الزراعية وكمية المحصول تتوقف على مدى ما يغمره ماء الفيضان من الأرض وعند ما يغمر الماء البلاد تصبح أشبه ببحر تبلو فوقه المدن والقرى ١ كالجزائر وتكون وسيلة الاتصال الرئيسية بينها المراكب ٢ . وقد وصف العرب مصر فى هذا الوقت بأنها تكون كاللؤلؤة البيضاء .

وقد استرعى الفيضان الأنظار وتعجب الناس من أن النيل — كما يقولون — يفيض فى وقت يختلف عن فيضان غيره من الأنهار . فيقول ديودور الصقلى ٣ إن فيضان النيل « ظاهرة غريبة للذين يرونها رأى العين » ، وغير معقولة لمن تصله عن طريق السماع فقط فبينما تبدأ كل الأنهار العالم فى الهبوط فى الانقلاب الصيفى يبدأ نهر النيل وحده فى الارتفاع فى ذلك الوقت .

ويقول ابن ماقى ٤ : « وليس فى الدنيا نهر يجرى فى أشد ما يكون من الحر غير

---

(١) شبه هيرودوت قرى مصر ومدنها فى ذلك الوقت بجزر بحر إيجه — أنظر هيرودوت

فى مصر ص ٨٢ .

(٢) ابن حوقل « صورة الأرض » ص ١٣٧ .

(٣) ديودور الصقل فى مصر ص ٨٠ .

(٤) قوانين الدواوين ص ٧٣ .



النيل وليس في الدنيا نهر يزيد ويتقص على ترتيب إلا النيل ، وليس في الدنيا نهر يجرى إذا نقصت مياه الدنيا إلا النيل » .

أولاً - أسباب الفيضان :

أما عن أسباب الفيضان فقد اختلفت فيه الناس وساقوا لذلك تعليلات كثيرة ، ولكن الذى لا شك فيه أن الجغرافيين قبل الإسلام عرفوا تماماً أن فيضان النيل نتيجة أمطار تسقط على بلاد أثيوبيا صيفاً .

ولما جاء العرب مصر ورأوا أن النهر يفيض في وقت يحترق فيه غيره من الأنهار وتجف فيه الينابيع ، ربطوا بين الظاهرتين وقالوا إنما فيضان النيل نتيجة لما تمده به الأنهار الأخرى والينابيع مع ماؤها .

فيروى ابن عبد الحكم ١ عن عبد الله بن عمرو بن العاص « نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمدده ، فأمدته الأنهار وفجر الله له الأرض عيوناً . فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره . » و يروى أيضاً ١ « أن معاوية ابن أبى سفيان سأل كعب الأحبار هل تجد لهذا النيل في كتاب الله خيراً قال أى والذي فلق البحر لموسى إني لأجده في كتاب الله أن الله يوحى إليه في كل عام مرتين ، يوحى إليه عند جريه أن الله يأمرك أن تجرى فيجرى ما كتب الله له ثم يوحى إليه بعد ذلك يا نيل غر حميداً » .

ولكن منذ القرن الثالث على الأقل عرف العرب أن فيضان النيل نتيجة أمطار تسقط في الصيف ٢ ، وأن هذه الأمطار تقع في الجتوب وخاصة بلاد الحبشة .

وبالرغم من أن هذه الحقيقة أصبحت معروفة إلا أن قلة من المؤلفين العرب أوردوا أسباباً أخرى بعيدة عن الواقع .

فالقضاعي ٣ والقزويني ٤ وابن الوردي ٥ يرون أن الفيضان يكون نتيجة هبوب رياح شمالية تهيج البحر الملح فيقف أمام النيل كالسد فيزيد ماؤه . ولهذا الرأي

(١) فتوح مصر ص ١٤٩ .

(٢) يعقوبي « كتاب البلدان » ص ١٢٨ .

(٣) ياقوت معجم البلدان ج ٨ ص ٣٦١ - والقضاعي من القرن الخامس الهجرى .

(٤) عجائب المخلوقات ص ١٦٤ والقزويني من القرن السابع الهجرى

(٥) خريدة المعجائب ص ١٤٢ وابن الوردي من القرن التاسع الهجرى

أصل قديم إذ أن تاليس الجغرافي اليوناني من القرن السادس قبل الميلاد أول من قال ذلك ١ .

والتيفاشي ٢ يربط بين هذين السببين - أي سقوط الأمطار في الجنوب ووقوف البحر في وجه النيل - ويرجعهما إلى سبب واحد ، فيقول ٣ : « إن سبب زيادة النيل هبوب ريح يسمى الملتن وذلك لأنها أولاً تحمل السحاب الماطر خلف الاستواء فتطر ببلاد الحبشة والنوبة وثانياً أنها تأتي في وجه البحر الملح فيقف ماؤه في وجه النيل فيتراجع حتى يروى البلاد » .

ويقول البعض إن الفيضان سببه ذوبان الثلوج في الصيف ٤ .

ومن الغريب أن يأتي الغزولي ٥ في القرن الثامن الهجري ( ١٤ م ) ليذكر أن هنالك من يعتقد أن سبب الفيضان مجهول لا يعلمه أحد .

هذا ولم يفت المؤلفون العرب ما يحدث لماء النيل قبيل الفيضان من تغير في لونه وطعمه ورائحته ويسمون ذلك « توحم النيل » وأن الشرب منه وقتئذ مضر . ويعللون سبب هذا التغير أن البطيحات التي يخرج منها النيل يتغير ماؤها في ذلك الوقت لقلته وكثرة ما يردّها من وحوش ، فإذا نزلت الأمطار دفعت أمامها هذه المياه المتغيرة ، ثم يعقبها الماء الأحمر الحامل للطمي ٦ .

وموسم الفيضان يزيد قليلاً عن ثلاثة أشهر هي أيب ( يوليو ) ومصري ( أغسطس ) وتوت ( سبتمبر ) وأيام من بابه ( أكتوبر ) وتنتهي زيادته في ٨ بابه ويظل على هذا المستوى حتى ٢٠ منه ثم يأخذ في النقصان تدريجياً بعد ذلك ٧ .

(١) Ball ; op. cit. p. 8 - وانظر هيرودوت في مصر ص ٢٥ وما بعدها وقد رفض هيرودوت هذا الرأي وقال إن الرياح الموسمية كثيراً ما تكون ساكنة ومع ذلك لا يتأثر فيضان النيل .

(٢) شرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشي ٦٥١ هـ - ١٢٥٢ م

(٣) السيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٥ .

(٤) النويري « نهاية الأرب » ج ١ ص ٢٦٣ - ولهذا الرأي أصل قديم نادى به المؤلفون القدماء انظر « هيرودوت في مصر » ص ٣٥ وما بعدها .

(٥) مطالع البدور في منازل السرور ج ٢ ص ٧٤ .

(٦) البغدادي الإفادة والاعتبار ص ٤٥ وما بعدها - ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٣٦٢ ،

المقرئزي الخطط ج ١ ص ٥٥

(٧) ذكر هيرودوت من قبل ما يؤيد ذلك إذ قال إن الفيضان مائة يوم - انظر هيرودوت

في مصر ص ٣٥ .

ويصف القلقشندي تطور الزيادة منذ ابتدائها فيقول ١ « وقد جرت عادته ( أى النيل ) أنه من حين ابتداء النداء بزيادته في السابع والعشرين من بؤنه إلى آخر أيب تكون زيادته خفيفة ما بين إصبعين فما حولهما إلى نحو العشرة وربما زاد على ذلك . فإذا دخلت مسرى اشتدت زيادته وقويت فيزيد العشرة فما فوقها وربما زاد دون ذلك . وأعظم ما تكون زيادته على القرب من الوفاء حتى ربما بلغ سبعين إصبعا . ومن العجيب أنه يزيد في يوم الوفاء سبعين إصبعا مثلاً ثم يزيد في صبيحة يوم الوفاء إصبعين فما حولهما ، ويتم على ذلك . وله في آخر بابه زيادة قليلة يعبر عنها بصبة بابه لما ينصب إلى النيل من ماء الإملاق ٢ .

ثانياً — التنبؤ بالفيضان :

ولما كانت اقتصاديات البلاد مرتبطة بالفيضان ، حاول المصريون أن يسبقوا الحوادث ويتنبأوا بما سيكون عليه الفيضان قبل حلوله ، وهم إن اختلفوا في طرق تنبئهم إلا أن غايتهم جميعاً الاطمئنان على مقدار الزيادة في الماء .  
كذلك لم يقتصر اهتمامهم على عصر دون عصر بل ظل هذا الاهتمام قوياً في كل وقت وحين ٣ .

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٤ .

(٢) يذكر الأستاذ Popper أنه يمكن الخروج من قوائم زيادات النيل فيما بين سنتي ١٢٨١ ، ١٥٢٢ م أن النيل يزيد في مدة ٤٥ يوماً من ٣٠ يونيو إلى ١٥ أغسطس وهو تاريخ الوفاء ١٩٧٧ بوصة ثم يزيد مرة أخرى مقدار ٥٧ بوصة في ٤٦ يوماً من ١٥ أغسطس إلى ٣٠ سبتمبر وأن القلقشندي ذكر قوله المذكور حوالي سنة ١٤١٥ م كما حدد الإصبع  $\frac{3}{4}$  بوصة

Popper ; The Cairo Nilometer, p. 228

(٣) ذكر ديودور الصقلي واسترابون ما يدل على أن المصريين منذ القدم كانوا يحاولون استنتاج مقدار ارتفاع النيل فيقول ديودور الصقلي : ويعرف سلفاً مقدار المحصول القادم بالضبط وذلك بأن المصريين يحتفظون بسجلات أثبتت فيها ملاحظاتهم في ذلك الأمر مدى حقب طويلة انظر ديودور الصقلي في مصر ص ٨٢ — ويذكر استرابون «أنهم (المصريين) يستتجون من هذه العلامات (علامات القياس) ومن حساب الأيام الارتفاع القادم قبل مياده بكثير ويعلنونه» . انظر استرابون في مصر ص ١١٦ — ويذكر التويرى وغيره قصة وإن تكن خرافية إلا أنها تشير إلى اهتمام المصريين بالتنبؤ بالفيضان فيقول : إن المصريين القدماء كانوا يعرفون مقدماً ما سيكون عليه حال الفيضان وذلك إن أحد ملوكهم قبل الطوفان ويدعى خصيلم بنى بيتاً في وسطه بركة من نحاس بها ماء مقدر وعلى حافتها تمثالاً عقابين ذكر وأنثى ، وفي وقت معين يدخل الكهان في هذا المكان ويتلون تعاويذ خاصة حتى يصفر أحد العقابين فإذا صفر الذكر كان الماء زائداً وإن صفرت الأنثى كان المكس فاتخلوا أهبتهم لذلك . انظر نهاية الأرب ج ١٥ ص ١١ .

وبنى المصريون تنبؤهم إما على الظواهر الفلكية أو على تجارب عملية أو يعتمدون على ظواهر ومشاهدات يستنتجون منها بطول التجربة ما سيكون عليه الفيضان .

ففي مخطوط ابن رضوان<sup>١</sup> نراه يقرن حال النيل بالكواكب ومنازلها فيقول مثلاً إذا كان المريخ في سيره الأكبر عند الانتقال الصيبي يكون النيل تلك السنة عالياً ، وإن كان في سيره الأوسط كان متوسطاً ، وإن كان في سيره الأصغر كان مخترقاً . وإذا قارن المريخ عطارد في أيام الزيادة فذلك يدل على نقص الفيضان<sup>٢</sup> .

ويذكر أن كواكب الأمطار ثلاثة ، القمر والزهرة وعطارد . وبروج الأمطار خمسة : السرطان والعقرب والحوت والأسد والدالي . وخسوف القمر في أحد هذه البروج في أيام الزيادة خصوصاً في مسرى يدل على نقص النيل . وإن اتصال القمر بالزهرة من بيت عطارد دليل على زيادة النيل حيثئذ .

وذكر المقرئ<sup>٣</sup> : « إنه عند حلول الشمس برج السرطان ، ينظر إلى الزهرة وعطارد ، والقمر فإن كانت في سيرها الأكبر فالفيضان مرتفع ، وإلا فالفيضان مقصر أو متوسط بحسب حالها » .

ويذكر المنوفى في مخطوطه<sup>٤</sup> نقلاً عن صاحب الأصل<sup>٥</sup> : « إنه عند نزول الشمس برج الحمل ينظر إلى القمر فإن كان نازلاً في برج الحمل أو الأسد أو القوس دل على قلة الماء ، وإن كان القمر في برج الثور أو السنبلة أو الجدى كان النيل متوسطاً . وإن نزل القمر في برج السرطان أو العقرب أو الحوت كان النيل عالياً ويخشى على البلاد من خطر الاستبحار ، وإن كان القمر في برج الجوزاء أو الميزان أو الدالي فيكون النيل كثير المنافع<sup>٦</sup> » .

---

(١) انظر ما ذكر عنه في الفصل الخاص بالمخطوطات .

(٢) علق ناسخ هذه النسخة من مخطوط ابن رضوان على ذلك القول بما يلي « وقد خرق الله تعالى العادة في قران المريخ وعطارد في سنة ١١٤٨ وزاد النيل زيادة إلى الغاية ولم يحصل توقف بإذن الله تعالى » .

(٣) الخطط ج ١ ص ٦٨ .

(٤) « الفيض الجديد » نسخة الإسكندرية ص ٣٠-٣١ .

(٥) زين الدين أبو محمد عبد الرحمن الرشيدى - انظر الفصل الخاص بالمخطوطات .

(٦) يرد المنوفى على ذلك بقوله إنه من قبيل الخوض في المغيبات التى لا يعلمه إلا الله سبحانه إذ حساب الأفلاك في ذلك غير معتمد شرعاً وقد يتعكس الأمر فيما قاله كما شوهد في كثير من السنين .



وفي مخطوط لؤاف مجهول ١ يقرن فيضان النيل بوقت نزول النقطة فإذا نزلت ليلة الأحد كان النيل في هذا العام عشرين ذراعاً وأصابع ، وإذا نزلت ليلة الاثنين كان النيل ٢٢ ذراعاً وبعض أصابع بالقرء ، فإذا نزلت ليلة الثلاثاء كان ١٩ ذراعاً ونصف ، وفي نزولها ليلة الأربعاء معناه أن النيل متوسط حيث يكون ١٨ ذراعاً ونصف وثمان ذراع، فإن وافق نزول النقطة ليلة الخميس يكون النيل ٢٢ ذراعاً وبعض الأصابع أما نزولها ليلة الجمعة داليل على أن النيل يكون على ١٨ ذراعاً وبعض أصابع. فإذا نزلت ليلة السبت يزيد النيل إلى ٢٣ ذراعاً إلا أصابع .

وقد وجد العرب أن القبط يستعينون على معرفة ما سيكون عايه الفيضان بطين يكون قد مر عليه ماء النيل يزونه ليلة الثاني عشر من بؤنه ثم يعاد وزنه عند طلوع شمس الغد فمقدار الزيادة من الحراريب يكون مقدار ما سيزيده النيل من الأذرع ، ويذكر المقرئزي أنه جرب ذلك بنفسه ووجده صحيحاً ٢ .

ومن المشاهدات التي بنوا عليها تنبؤاتهم أنه إذا كان الماء في اثني عشر يوماً من مسرى اثني عشرة ذراعاً فهي سنة ماء ، وإلا فالماء ناقص ٣ .

ويقول المسعودي ٤ « والفرس الذي يكون في نيل مصر إذا خرج من الماء وانتهى وطؤه إلى بعض المواضع من الأرض عام أهل مصر أن النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه ولا يختلف ذلك عندهم لطول العادات والتجارب » .

إلى غير ذلك من التكنهات ٥ الكثيرة التي تدل على مقدار اهتمام الناس بأمر الفيضان وتلفهم على معرفة ما سيكون عليه من زيادة أو نقص وحتى تطمئن قلوبهم على مصدر رزقهم ٦ .

---

(١) مخطوط بمكتبة البلدية بالإسكندرية - انظر الفصل الخاص بالمخطوطات .

(٢) الخطط ج ١ ص ٦٧ .

(٣) المقرئزي الخطط ج ١ ص ٥٩ .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٣ .

(٥) انظر المقرئزي الخطط ج ١ ص ٦٨ .

(٦) ذكر ابن خلكان في «وفيات الأعيان» ج ١ ص ٣٥-٣٦ في ترجمة لأحمد بن

إسماعيل النحاس النحوي المصري المتوفى سنة ٣٣٨ هـ عن سبب وفاته أن شخصاً رآه جالساً على سلم المقياس يقرض شعراً ، فظنه يسحر للنيل حتى لايزيد فدفعه في النيل فغرق - وترينا هذه الحادثة مقدار الملح الذي يصيب المصريين لكل ما يظنونونه متعلقاً بنقص الفيضان حتى يصل الأمر إلى حد القتل على الشبهة .

### ثالثاً - المقاييس :

عنى المصريون منذ أقدم العصور بإقامة المقاييس فى مختلف أنحاء البلاد ليراقبوا مقدار ارتفاع النيل لما فى ذلك من علاقة برى الأرض وتحصيل الخراج .

وعندما جاء العرب إلى مصر وجدوا مقياساً فى منف وهو من أقدم المقاييس المصرية ١ ، وينسب ابن عبد الحكم هذا المقياس إلى يوسف الصديق . كما ذكر أن دلوكة العجوز أنشأت مقياسين أحدهما فى أنصنا والآخر بأخميم ٢ .

وبنى الرومان مقياساً عند حصن بابليون بقيسارية الأكسية ، ويذكر القضاعى أنه ظل حتى ابنتى المسلمون أبنيتهما بين الحصن والبحر ٣ . وكان لهم أيضاً مقياس داخل القصر ظلت آثاره إلى عهد متأخر ٤ .

وعرف العرب ماهذه المقاييس من أهمية فظلوا يستعملونها واعتنوا بها إلى أن أنشأوا مقياسهم المعروفة ، بل لقد ظلوا يستعملون مقياس منف إلى جانب المقاييس الإسلامية حتى أواخر القرن الثانى الهجرى على الأقل . فيقول ابن عبد الحكم ٢ : « حدثنا يحيى بن بكير قال : أدركت القياس بقيس فى مقياس منف ويدخل بزيادته الفسطاط » وإن بكير هذا توفى سنة ( ٢٣١ هـ - ٨٤٦ م ) ٥ ٦ .

أما عن المقاييس الإسلامية فيذكر القضاعى أن عمرو بن العاص بعد فتحه مصر ابنتى مقياساً بأسوان وآخر بدندره ، ثم بنى معاوية مقياساً بأنصنا ٧ . كما ينسب إلى عمرو

---

(١) يقول ديودور الصقلى عنه ما يلى « ولقد كان ما يعلق على ارتفاع النيل من أهمية حافزاً للملوك على إقامة مقياس للنيل فى منف ، وعهد فى إدارته إلى خبراء يقيسون ارتفاعه بالضبط ٥٠١ » ديودور الصقلى ص ٨٠ .

(٢) فتوح مصر ص ١٦ .

(٣) ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٦١١ .

(٤) المقرئى الخطط ج ١ ص ٥٧ - ابن تفرى بردى النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢١٠

(٥) أمين باشا سائى : تقويم النيل المقدمة ج ١ ص ٤٣ -

(٦) بل ويعتقد أمين باشا سائى ( المرجع السابق ص ٩٢-٩٣ ) أن مقياس منف ظل مستعملاً حتى منتصف القرن الثامن الهجرى . وهو اعتقاد لا تؤيده المراجع العربية بل إن ابن تفرى بردى يؤكد ( النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣١١ ) أنه بعد المقياس الهاشمى أبطل استعمال جميع المقاييس الموجودة بمصر سواء فى الوجه القبلى أو البحرى .

(٧) ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٦١١ - القلقشنذى صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨٩ -

المقرئى الخطط ج ١ ص ٥٧ .

أيضاً إنشاء مقياس في جاون ١ .

ومن المحتمل أن عمراً ومعاوية أعادا إصلاح المقياس القديمة في هذه الجهات ليس إلا . فمن المعروف أنه كان هناك مقياس بأسوان ذكره استرابون ٢ . كما ذكر الكتاب العرب وجود مقياس بأنصنا قبل الفتح ٣ . علاوة على أن ابن عبد الحكم - وهو أقدم مرجع عربي يعتنى بذكر المقياس - لم يذكر قيام عمرو أو معاوية بإنشاء مقياس جديدة .

ولكن الذى لا شك فيه أن أول مقياس عمل في الإسلام - وذلك بإجماع الكتاب العرب - أنشأه عبد العزيز بن مروان بجلوان عندما اتخذ منها مقراً له في ولايته على مصر (٦٥-٨٦ هـ - ٦٨٥-٧٠٥ م) وهو مقياس صغير ٤ .

ثم أنشأ أسامة بن زيد التنوخى عامل الخراج مقياساً في جزيرة الصناعة (الروضة) . وقد اختلف المؤرخون العرب في عهد من أنشئ هذا المقياس . فالبعض كابن عبد الحكم ٥ يقول بإنشائه في عهد الوليد والبعض الآخر كالمسعودى ٥ يرى أنه بنى في عهد سليمان ابن عبد الملك .

ويظهر أن الاختلاف جاء نتيجة لبناء هذا المقياس مرتين على يد أسامة . المرة الأولى سنة (٩٢ هـ - ٧١١ م) ٦ في عهد الوليد . ثم لما تولى سليمان الخلافة بعد أخيه الوليد كتب إليه أسامة يبطلان هذا المقياس فأمره (أى سليمان) بأن يبنى مقياساً آخر فبناه سنة (٩٧ هـ - ٧١٥ م) ٧ .

ويصف الشهاب الحجازى المقياس بقوله ٨ : « ثم عمل أسامة بن زيد التنوخى عامل خراج مصر في خلافة سليمان بن عبد الملك مقياساً بالجزيرة ، وقد ذكر أن المقياس المذكور

---

(١) المقرئى الخطط ج ١ ص ٥٩ .

(٢) استرابون في مصر ص ١١٦ .

(٣) ذكر ابن دقاق « الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٥ ص ١٧ أن الآثار مقياس انصنا كان موجوداً في عصره .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ١٦ .

(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٦) E.I. ; art. Al Nil .

(٧) ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٦١١ - قلقشنلى «صبح الأعشى» ج ٣ ص ٢٩٨ -

المقرئى الخطط ج ١ ص ٥٧ - ابن تفرى بردى «النجوم» ج ٢ ص ٣١٠ .

(٨) مخطوط «نيل الرائد في النيل الزائد» نسخة مصورة عن مخطوط بلدية الإسكندرية

وهذه النسخة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم بلدان تيمور ١٨٨ - ص ٥ أ ، ٥ ب .

كان في مكان القراييص الظاهرة من البحر بالجزيرة الآن . وذكر في كتاب أخبار مصر وعجائبها : « أن أسامة بن زيد التنوخي وضع مقياساً في الجزيرة وهو أكبرها ولما بعد الماء في أيام اليازوري ظهر هذا المقياس على الحجر الذي تقول العامة أنه حائط العجوز ، وحمل عموده وفيه الأذرع والأصابع وهو عمود مدور وعمل أسفل تحت حائط المقياس الذي عمله المتوكل وهو باق إلى الآن » .

وينسب للمأمون بناء مقياس عند ما حضر إلى مصر سنة ( ٢١٧ هـ - ٨٣٢ م ) .

وفي سنة ( ٢٤٧ هـ - ٨٦١ م ) أمر المتوكل على الله العباسي بإنشاء المقياس المعروف بالهاشمي ، وهو أشهر المقاييس الإسلامية على الإطلاق إذ صار الاعتماد عليه بعد ذلك وأبطل العمل بالمقاييس الأخرى ٢ .

ولم يذكر ابن عبد الحكم هذا المقياس مع أنه أنشئ قبل وفاته بحوالي عشرة سنوات ، وربما يرجع السبب في ذلك أن مؤلف ابن عبد الحكم قد تم في الغالب قبل بناء المقياس .

أما المسعودي فيذكر ٣ خطأ أن المقياس الذي أقامه أسامة بن زيد هو الذي ظل العمل عليه حتى سنة ٣٣٢ هـ وهي السنة التي ألف فيها كتابه مروج الذهب . وقد اتبع جلال الدين المحلى ، المسعودي في خطأه فيقول ٤ : « والمقياس اتخذ أسامة بن زيد التنوخي لسليمان بن عبد الملك بالجزيرة بين القسوط والجزيرة والعمل عليه إلى وقتنا هذا » .

كذلك أخطأ بعض الكتاب المتأخرين في نسبة هذا المقياس للمأمون . فالقلقشندي ٥ يقول : « ثم بنى المأمون مقياساً أسفل الأرض بالجزيرة المذكورة ( الروضة ) في سنة ٢٤٧ هـ في ولاية يزيد بن عبد الملك » . والخطأ الذي وقع فيه القلقشندي ظاهر ، إذ إن سنة ٢٤٧ هـ تقع في خلافة المتوكل وأن المأمون قد توفي سنة ٢١٨ هـ .

---

(١) المقرئ الخطط ج ١ ص ٥٩ ويذكر أن المأمون بنى مقياسه في البروزات - أما ابن أبيك « در التيجان ص ٩٩ » يذكر أن المقياس أنشئ في الشروزات في حين أن على باشا مبارك الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ٦ يقول « إن المأمون عمل مقياسين أحدهما بقرب بلد في محل يعرف باسم صورات وعمل الثاني في اخميم » .

(لم أستطع تحديد مواقع البروزات أو الشروزات أو الصورات ) .

(٢) يقول ابن تنرى بردى في « النجوم الزاهرة » ج ٢ ص ٣١١ عن هذا المقياس « وبطل بعمارتها كل مقياس كان بنى قبله من الوجه القبلي والبحري بأعمال الديار المصرية » .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٤) مبدأ النيل على التحرير ص ٤ .

(٥) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٨ .



وينقل السيوطي ١ عن صاحب «مرآة الزمان» ٢ : «المقياس الظاهر الآن بناءه المأمون ، وقيل إنما بناه أسامة بن زيد التنوخي في خلافة سليمان بن عبد الملك ودثر فجده المأمون .»

وينقل أيضاً ١ (أى السيوطي) عن التيفاشي : «ثم هدم المأمون مقياس الجزيرة وأسسها ولم يتم فآتم المتوكل بناءه وهو الموجود الآن .»

أما ابن تغري بردي ٢ فيذكر : «إن المأمون عمر المقياس وجسراً آخر بالجزيرة تجاه القسطنطينية .»

ويقال إن الذى بنى المقياس الهاشمي مهندس عراقي استقدم خصيصاً لهذا الغرض اسمه محمد بن كثير الفرغاني ٥ وذلك في ولاية يزيد بن عبد الملك التركي وبإشراف أحمد بن محمد الحاسب ٦ . وقد اختير لبنائه الطرف الجنوبي الشرقي لجزيرة الروضة تجاه مصر القديمة .

وقد كانت النصارى حتى ذلك الوقت تحتكر الإشراف على المقياس ولكن ورد

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٧ .

(٢) من القرن ٦ هـ - ١٢ م Popper ; op. cit. p. 18

(٣) النجوم ج ٢ ص ٢١٦ :

(٤) ويقول كلوت بك أيضاً ؛ لحة عامة إلى مصر ج ١ ص ٢٠١ «إن مقياس الروضة أنشئ في أيام سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ هـ وجدده في سنة ١٩٠ هـ المأمون الخليفة العباسي ونقش في عموده ما يشير إلى ذلك وأمر بتزيينه من بعده المستنصر بالله العباسي - وهو بذلك لم ينسب للمتوكل أى عمل بالمقياس . ويرى الأستاذ Popper أن هذا الخطأ له علاقة بما ذكره الكندي ص ١٩٢ في قوله «وركب أمير المؤمنين (المأمون سنة ٢١٧ هـ) فنظر إلى المقياس وأمر بإقامة جسر آخر فعمل له هذا الجسر القائم بالقسطنطينية وترك القديم» وأن الكتاب ربما نقلوا عن الكندي أو من مصدر آخر نقل عنه وأضافوا بناء المقياس إلى المأمون . كما يرى (أى Popper)

أن المأمون لم يقم بأى عمل أو تجديد في المقياس .

(٥) ابن أبيك «درر التيجان» ص ٩٩ - ابن تغري بردي النجوم ج ٢ ص ٢١١ ولكن الشك والغموض يحيطان هذا المهندس وحقيقة وجوده - انظر

Popper ; op. cit. p. 24

Ghalib ; Le Milyas p. 12 et Seq.

(٦) يرى الأستاذ بوير (Popper ; op. cit. p. 22/24) أن أحمد بن محمد الحاسب هو أحمد بن محمد بن المدير وأن ابن المدير بدأ عمله في مصر خلال سنة ٢٤٧ هـ وهي السنة التي نقش فيها ابن الحاسب المقياس ، لذلك فهو يربط بين الاثنين ويحتمل أنهما شخصاً واحداً .

أمر المتوكل بعزلهم وتعيين مسلم للقيام بذلك ، فاختير عبد الله بن عبد السلام بن الرداد ، وبقي هذا العمل في ذريته من بعده ١ . فيقول الكندي ٢ : « وورد كتاب المتوكل بابتناء المقياس الهاشمي للنيل ، وب عزل النصاري عن قياسه . فجعل يزيد عليها أبا الرداد المعلم وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب الخراج ٣ سبعة دنانير وذلك في سنة ٢٤٧ هـ .

ولكن ابن عبد السلام المتوفى ٤ يذكر : « أن القاضي بكار هو الذي كاتب المتوكل في ذلك وأنه لا ينبغي أن يتولاه إلا من يوحد الله تعالى . فكتب إليه افعل ما شئت ، وول من أردت فولاه عبد السلام الرداد ٥٠١ هـ .

ومقياس المتوكل من أهم الآثار الإسلامية التي احتفظت إلى الآن بكثير من معالمها وحظيت بعناية المهتمين بدراسة التاريخ والآثار الإسلامية من شرقيين وغربيين . وقد تناولته يد الإصلاح والتجديد طوال العصور المختلفة ، وكان أول هذه الإصلاحات على يد أحمد بن طولون سنة ( ٢٥٩ هـ - ٨٧٩ م ) وآخرها على يد المهندس كامل عثمان غالب وكيل وزارة الأشغال السابق الذي ألف كتاباً عن المقياس يعتبر أوفى مرجع عنه ٦ .

وقد اختلفت الآراء بخصوص عمود هذا المقياس وعمود مقياس أسامة ، فالبعض مثل

---

= ولكن المقرئ في الخط ج ١ ص ١٠٣ يذكر أن ابن المدبر ولي الخراج بمدينة ٢٥٠ هـ . وابن إياس يحدد سنة تولي ابن المدبر سنة ٢٥٤ هـ ( ابن إياس بدائع الزهور طبعة المطبعة الأميرية ص ٣٦ ) .

(١) ينقل الأستاذ بوبر عن Vansleb ( Popper ; op cit. p. 58 ) أن الكتاب المسلمين لم يذكروا سبب جعل النظر في المقياس وراثي في أسرة ابن الرداد ولكن حسب رأى الأقباط المتأخرين أن الرداد هذا كان قسيساً قبطياً يدعى رداد Raddat أسلم فكوفى على إسلامه بأن جعل أمر المقياس خاصاً بذريته وهو قول ظاهر الخطأ فالكتاب العرب أجمعوا على أن ابن الرداد كان فقيهاً من البصرة وكان مسلماً تقياً . وربما كان أمر المقياس من قبل وراثياً في أسرة قبطية ، فجعل وراثياً في أسرة ابن الرداد ، وربما كانت قراءة المقياس تحتاج إلى خبرة يتوارثها الخلف عن السلف مما جعل من الأوفق حصرها في أسرة واحدة .

(٢) الولاة والقضاة ص ٢٠٣ .

(٣) يذكر ناصر خسرو - سفرنامه ص ٤٢ - أن عامل المقياس كان راتبه ألف دينار وهو قول ظاهر المبالغة .

(٤) الفيض المديد ص ٦٧-٦٨ .

(٥) ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٦١١ وانظر على مبارك الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ١٥ وما بعدها عن التجديدات التي حدثت في العهود المختلفة .

(٦) Le Mikyas ou le Nilometre du l'Ile de Rodah

على باشا مبارك<sup>١</sup> يرى أن عمود مقياس الروضة هو نفسه عمود مقياس أسامة<sup>٢</sup> ، في حين أن الأستاذ بوبر Popper<sup>٣</sup> يشك في أن عمود المقياسين واحد .

أما عمر طوسون فيظهر أنه يعتقد أن مقياس أسامة هو نفسه مقياس المتوكل فيقول<sup>٤</sup> عن أسامة : « وهذا العامل هو الذي أقام في عهد هذا الخليفة (سليمان بن عبد الملك) بناء مقياس النيل الذي بالروضة الآن . »

ولكننا أوردنا عند الكلام عن مقياس أسامة ما ذكره الشهاب الحجازي من أن عمود مقياس أسامة مدور في حين أن عمود مقياس المتوكل مثنى .

وكان في واجهة بناية المقياس الشرقية المطلة على القسطة شبك كبير يعلق عليه ستر عند وفاء النيل . وكان هذا الستر يختلف في لونه من عهد لآخر فهو أسود في عهد العباسيين<sup>٥</sup> ، وأصفر في العهد المملوكي<sup>٦</sup> ثم من الأخضر والأصفر في عهد العثمانيين<sup>٧</sup> .

ولقد بنيت مقاييس أخرى بعد هذا المقياس الهاشمي وإن ظل الاعتماد الكلي عليه . ومن هذه المقاييس مقياس أحمد بن طولون بجزيرة الروضة ، وذكر المسعودي<sup>٨</sup> أنه كان يستعمل « عند كثرة الماء وترادف الرياح » كما ينسب السيوطي<sup>٩</sup> لابن طولون بناء مقياس آخر في قوص .

وجاء في معجم البلدان لياقوت<sup>١٠</sup> نقلاً عن القضاعي « وبني الخازن في الصناعة مقياساً وأثره باق لا يعتمد عليه » .

وقد نقل المقرئ<sup>١١</sup> وابن تغري بردي<sup>١٢</sup> هذه الحملة أيضاً عن القضاعي مع إحلال اسم الحارث بدلاً من الخازن .

---

(١) على مبارك الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ١٥ .

(٢) op. cit. p. 16

(٣) عمر طوسون مالية مصر ص ٤٨

(٤) المقرئ الخطط ج ٢ ص ١٨٥ .

(٥) ابن دقماق - الانتصار ج ٤ ص ١١٤ .

(٦) ابن أبي السزور البكري - الكواكب السائرة ص ١٣٩

(٧) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٨) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٧ .

(٩) ج ٤ ص ٦١١ .

(١٠) الخطط ج ١ ص ٥٧ .

(١١) النجوم ج ٢ ص ٢١١ .

ولما كان الثلاثة ينقلون عن القضاعى فأرجح أن الذى بنى هذا المقياس هو الخازن .

أولاً - لأن ياقوت أقرب إلى عصر القضاعى من المقرئى وابن تغرى بردى .

ثانياً - لم يذكر أى مرجع أن الحارث بنى مقياساً ، فى حين يذكر ابن دقماق ١ أن الخازن بنى مقياساً بالأهراء على ساحل القسطنطينية ٢ .

أما عن طريقة القياس ووقته وكيفية النداء على الزيادة فقد اختلفت من عصر لآخر . ففى أول الأمر كان ينادى على زيادة النيل كل يوم وذلك منذ أواخر بؤنة ( أوائل يوليو ) ويرجع أن الإعلان اليومى كان يذاع فى المسجد الجامع ٣ .

ولما كان فى إباحة الإعلان عن الزيادة دفع لبعض الناس - إذا توقف النيل عن الزيادة أو كانت زيادته قليلة - إلى احتكار الأقوات أو تخزينها مما يسبب الغلاء ، فإن المعز لدين الله الفاطمى أمر فى شوال سنة ( ٣٦٢هـ - ٩٧٢ م ) بإبطال النداء والاكتفاء بكتابة رقعة للخليفة وأخرى للوزير بزيادة النيل اليومية حتى إذا تمت زيادته ستة عشر ذراعاً أبيع النداء ٤ .

ولا نعلم تماماً هل ظل هذا التقليد سارياً طيلة الدولة الفاطمية ، إذ بينما يرى القلقشندى أن الخلفاء الفاطميين اتبعوا هذه السياسة ، فإن ناصر خسرو وقد أقام بمصر فى المدة من ٤٣٩-٤٤٢ هـ ( ١٠٤٧-١٠٥٠ م ) يقول ٥ : إنه ، منذ أول يوم للفيضان يطوف منادون فى المدينة بأن الله تعالى قد زاد النيل كذا إصبعاً ويذكرون مقدار زيادته كل يوم . وحين تبلغ الزيادة ذراعاً كاملاً تضرب البشائر ويفرح الناس ٥٠١ .

كما ذكر ابن ممتى ٦ أن النيل يقاس فى الخامس والعشرين منه ( بؤنة ) وينادى

---

(١) الانتصار ج ٤ ص ٩٩ .

(٢) الخازن هو محمد بن عبد الله الخازن المتوفى سنة ٣٥٨ هـ . ويذكر الأستاذ بوبر أنه لما كان مقياس الروضة مستعملاً فى ذلك الوقت فإن الغرض من إنشاء مقياس الخازن هو احتياج صناعة بناء السفن لمعرفة ارتفاع النهر فى أى وقت من العام . كما يحتمل استعماله لمقارنة ومراجعة ما يذكره حراس مقياس الروضة خصوصاً وأن الاثنين من ٣٥٢-٣٥٦ هـ ( ٩٦٢-٩٦٧ م ) كان النيل فيها ناقصاً والحاجة تخيم على البلاد . Popper ; op. cit. p. 11 & 15 .

(٣) انظر ابن رسته الأعلام النفسى ص ١١٦ .

(٤) القلقشندى - صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٦ .

المقرئى الخطط ج ١ ص ٦١ .

(٥) سفر نامه ص ٤٢ .

(٦) قرانين الدواوين ص ٧٥ .



به . ولما كان ناصر خسرو يعتبر شاهد عيان لما يروى وابن لمثاني رجل مستول من رجال الدولة الأيوبية وأنه على علم بما كان يتبع في هذا الشأن ، فإننا نرجح أن تقليد المعز لم يدم طويلاً بعده وأن النداء العلني أبيح بعد ذلك .

أما عن كيفية ووقت القياس في العصر المملوكي فنعتمد على رواية القلقشندي إذ باعتباره من كتاب الإنشاء الذين يلمون بمثل هذه الأمور بحكم عملهم ، يمكن أن نتقبل كلامهم بثقة ، وقد ذكر القلقشندي ١ أنه ابتداء من عصر يوم ٢٦ بؤنه ٢ يؤخذ قاع البحر وتقاس عليه قاعدة المقياس التي تبنى عليها الزيادة ، وفي السابع والعشرين ينادى عليه بالزيادة . أي أن متولى المقياس يعرف الزيادة عصر كل يوم ويعلن عنها في اليوم التالي .

والإعلان عن الزيادة على ضربين ، إعلان عام لعامة الشعب لا يصرح فيه إلا بمقدار الزيادة من الأصابع من غير تصريح بمقدار الأذرع . وفي الوقت نفسه تكتب رقاع يومية لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام كأرباب الوظائف من الأمراء وقضاة القضاة من المذاهب الأربعة وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش والمحتسب ومن في معناهم ، فيذكر زيادته في ذلك اليوم من الشهر العربي وموافقه من القبطي من الأصابع وما صار إليه من الأذرع ، ويذكر بعد ذلك ما كانت زيادته في العام الماضي في ذلك اليوم من الأصابع وما صار إليه من الأذرع والبعادة ( الفرق ) بينهما بزيادة أو نقص ، ولا يطلع على ذلك عوام الناس ورعايهم . فإذا وفي ستة عشر ذراعاً صرح في المناداة في كل يوم بما زاد من الأصابع وما صار إليه من الأذرع ، ويصير ذلك مشاعاً عند كل أحد .

#### رابعاً - أعياد النيل :

من الطبيعي وقد رأينا اهتمام المصريين بنهر النيل وفيضانه ، وارتباط حياتهم به ، أن يقيموا الأعياد المختلفة في مواسم معينة من السنة ، بعضها لاعتقادهم أنها تجلب فيضاناً مناسباً ، والبعض الآخر احتفالاً بالوفاء وتمام الزيادة المطلوبة .

وقد ذكر المؤلفون العرب أربعة من هذه الأعياد هي :

- ١ - حفل عروس النيل : روى أغلب المؤلفين العرب وعلى رأسهم ابن عبد الحكم ٢ أن عمرو بن العاص عندما فتح مصر ، أتاه أهلها وأخبروه أن من عادتهم تهيئة فتاة محسنة بأفخر لباس وأجمل زينة لإلقائها في النيل في الثاني عشر من بؤنة

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٣ ، ص ٢٩٧ .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ١٥٠ .

نجلباً لرضاه وتوقعاً لقيضان مناسب . فابن عمرو عليهم ذلك وأيده عمر بن الخطاب .  
ويقال إن النيل ظل شهري أبيب ومسرى وهو متوقف عن الزيادة حتى هم الناس  
بالمهجرة فأرسل عمر بن الخطاب كتاباً لإلقائه في النيل ، فأصبح الناس يوم الصليب  
وقد بلغ النيل في ذلك اليوم ستة عشر ذراعاً . ومن هذا التاريخ أبطلت هذه العادة السيئة .  
ولقد اختلفت الآراء في مدى صحة هذه القصة ، فالبعض يؤيدها وآخرون  
يرفضونها .

فدائرة المعارف الإسلامية تؤيد هذه القصة ، وتقول إنه من الممكن تتبعها خلال  
العهد المسيحي اليوناني إلى عهود قديمة جداً ، وأنه بعد إبطال عمرو لهذه العادة ظل  
المصريون يلقون في النيل دمية تمثل عروساً في عيد الصليب ١ .

ويقول على باشا مبارك ٢ : ذكر المؤرخون أنه كان للمصريين عوائد كثيرة  
يجرونها عند الوفاء ، فمن ضمنها تغريق بنتاً بكراً .... وبقيت هذه العادة إلى زمن  
قسطنطين الذي أمر بإبطالها وأصدر أوامره بذلك لأجل ألا تعاد ، ومع ذلك يظهر  
أن هذه العادة غلبت على أوامر هذا القيصر لأن مؤرخي العرب قالوا بأن هذه العادة  
ظلت جارية حتى منعها عمرو ٣ .

أما الأستاذ بوبر فيذكر ٤ أنه كان يقام أمام سد خليج القاهرة عمود أو تل  
صغير من التراب ، والغرض من هذا العمود - الذي كانوا يطلقون عليه اسم العروسة  
والذي كان يكتسحه تيار النيل قبل قطع السد بأسبوعين - معرفة قوة التيار ، وكانت  
العامة تعتقد أنه رمز لعروس النيل التي كان المصريون يلقونها في النيل من قبل .

ولكن معظم المؤرخين المحدثين ٥ يرفضون هذه القصة ويرون أنه من المحتمل  
أن هذه العادة كانت متبعة في أيام الفراعنة ، ولكن من الخطأ أن يتهم المسيحيون باتباع  
هذه العادة الشنيعة التي تحرمها ديانتهم .

ويرى الدكتور بتلر ٦ . أن لهذه القصة أساساً من الحقيقة التاريخية كما يلوح ،

---

E.I. art. Al Nil (١)

وجدير بالذكر أن عيد الصليب كان يقام عادة بعد الوفاء أي في ١٧ توت في حين أن  
الأسطورة تقول إن إلقاء العروس كان في ١٢ بثونه فليس هناك ارتباط بين التاريخين .

(٢) الخبط التوفيقية ج ١٨ ص ٣٠ .

op. cit. p. 84/85 (٣)

(٤) الدكتور بتلر « فتح العرب لمصر » ص ٢٧٩-٢٨٥

الدكتور الشيال « مقالة الاحتفال بوفاء النيل في مصر الإسلامية » مجلة الثقافة العدد ١٤٠

٢ من سبتمبر سنة ١٩٤١ .

فقد كان من عادة أهل السودان حقيقة في أقصى أنحائه الجنوبية أن ترمى قبائله الهمج في النهر بفتاة عذراء في زينة الزفاف ، ولعل عادة كهذه كانت متبعة في بعض جهات الهمج من بلاد النوبة التي فتحها الإسلام في أول أمره .

واعتقد أن هذه العادة لم تكن متبعة لا في العصر المسيحي ولا في العصر الفرعوني فلم يعرف عن المصريين أنهم كانوا يضحون بالقرايين البشرية ، كما أن المؤرخين اليونان والرومان أمثال هيرودوت وديودور واسترابون الذين زاروا مصر وأقاموا بها مدة من الزمن وتعرضوا لعادات المصريين ونظمهم واحتفالاتهم الدينية ووصفوا الفيضان ، لم يذكروا إلى مثل هذه العادة التي لو كانت متبعة لآثارت انتباه هؤلاء المؤرخين . بل إن هيرودوت كذب ما اتهم به المصريون من التضحية بالإنسان تكديماً قاطعاً فيقول : « كيف يجوز لقوم لا تحل لهم التضحية بالحيوان إلا الخنازير والثيران والعجول ما كان منها طاهراً والأوز أن يضحوا بآدميين » .

وإذا كان المصريون في العهد الفرعوني لم يقرّفوا مثل هذا العمل ، فإنه من باب أولى ألا يقرّفه الأقباط ولهم دينهم السماوي الذي يعصمهم من مثل هذا الجرم .

٢ - ليلة الغطاس : ولو أن هذا الاحتفال مرتبط بالعقيدة المسيحية ، إلا أننا أشرنا إليه حيث كان من الاحتفالات الكبيرة التي تقام على شاطئ النيل ومن تقاليدها أن من يغطس في ماء النيل ليلتدّ أمن من المرض .

ولا شك أنه عيد قديم سابق على الفتح الإسلامي وكان يقام - ولا يزال - ليلة ١١ من طوبة وأول إشارة لهذا الاحتفال في المراجع العربية ما ذكره المسعودي ٢ من أنه حضر سنة ٣٣٠ هـ ليلة الغطاس بمصر وكان محمد بن طنج الإخشيد في داره المعروفة بالمختار في الجزيرة ، وقد أمر فأسرجت المشاعل على شاطئ الجزيرة ومصر غير ما أخرج الناس . وقد حضر هذا الاحتفال مائة ألف شخص من مسلمين ونصارى بعضهم في النيل والبعض الآخر في الدور أو على الشاطئ « كل بما يمكنه من المأكّل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والقصف » ويصفها بأنها « أحسن

(١) هيرودوت في مصر ص ٥٤ - ولو أن ديودور الصقلي يذكر ( ص ١٤٦ ) « أن القحط حصر المصريين مرة فصاروا في عوزهم يأكلون بعضهم بعضاً » ولكن ذلك لا يقدم دليلاً على التضحية بالقرايين البشرية ، وأن الجوع هو الذي دفع المصريين إلى ذلك ، ولقد حدث ذلك في مصر الإسلامية نفعها ولم يقل أحد أن الإسلام يوافق على هذا العمل المنكر .

(٢) مروج الذهب نشر الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد ج ١ ص ٢٩١

ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل  
ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة من اللواء .

وقد احتفل الخلفاء الفاطميون بهذه الليلة إلا في بعض السنين في خلافة الحاكم  
إذ أمر بإبطاله كما حدث سنة ٤٠١ هـ .

ويقول ابن المأمون : « كان من رسوم الدولة أن يفرق على سائر الدولة ليلة  
الغطاس الترنج والتارنج والليمون وأطنان القصب والسلك البورى برسوم مقررة لكل  
واحد من أرباب السيوف والأقلام » ٢ .

وقد أبطل هذا الحفل في عهد المماليك الشراكسة ( البرجية ) ٣ وإن لم يذكر  
تاريخاً لذلك ، ولعله أبطل في السنة التي أبطل فيها الاحتفال بعيد الشهيد .

٣ - عيد الشهيد : ٤ لا نعلم على وجه التحقيق هل كان هذا الاحتفال يقام  
قبل الفتح العربى ، أم اتبع بعده ، ومتى كان ذلك ، فلم يذكر ابن عبد الحكم شيئاً  
عن هذا الاحتفال ، كما لم يشر إليه المسعودى مع أنه وصف عيد الغطاس وصفاً دقيقاً .

ويقول على مبارك ٥ : « إنه يظن أن عيد الشهيد هو العادة التي أبطلها عمرو بن  
العاص أيام فتح مصر بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » : أى أن عيد الشهيد هو  
تطور للاحتفال بعروس النيل .

ويشير إليه ابن فضل الله العنبرى بقوله ٦ : « إنه إذا كان أوان تحرك النيل  
يخرج تابوت يقال إن فيه إصبع الشهيد ، ويرمى به في البحر . وذلك لوقت معلوم  
يسمونه عيد الشهيد ويكون الذى يرميه بعض أعزاء كهراء القبط ، عادة كنت أسمعها  
لا تتغير . ويظن القبط أن رمى الإصبع سبب الزيادة . وإنما هو بمشيئة الله وقدرته » .

ويصف المقرئى ٧ هذا الاحتفال بأنه كان من أنزه فرح مصر ، وكان يقام  
في الثامن من شنس بشبرى . ويظهر أن هذا العيد فقد مدلوله الدينى وانقلب إلى معرض

---

(١) أبو السرور البكرى « قطف الأزهار » ص ٤٣ ب

(٢) المقرئى - الخطط ج ١ ص ٤٩٥

(٣) أبو السرور البكرى - المرجع السابق ص ٤٤ أ

(٤) الشهيد هو مار جرجس ٢٨٠-٣٠٣ م - انظر بتلر المرجع السابق ص ٣٨٠ الهامش

(٥) الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ٣١

(٦) مسالك الأبصار ص ٣٦١

(٧) الخطط ج ١ ص ٦٨-٦٩



لكل أنواع الفجور ، حتى كان اعتماد فلاحى شبرى فى وفاء الحراج على ما يبيعونه من خمر فى هذا العيد .

وقد أبطل هذا العيد نهائياً سنة ( ٨٧٥٥ - ١٣٥٤ م ) وأحرق التابوت الذى به الإصبع وذرى رماده فى النيل .

ويروى ابن عبد السلام المنوفى ١ أن النيل زاد فى السنة التى أبطل فيها العيد زيادة لم يعهد مثلها فى تاريخ الإسلام إذ جاوز العشرين ذراعاً .

٤ - أعياد الوفاء : ذكر أنه منذ ابتداء موسم الفيضان كان متولو المقياس يعنون بمراقبة زيادة النيل يومياً وإبلاغ أولى الأمر لترقب اليوم الذى يتم فيه النيل ويبلغ حد الوفاء . كما كانوا يترقبون هذه الزيادة فى الصعيد ، فإذا أوفى هناك الستة عشر ذراعاً خرج البشير - ويعرف ، بالمفرد - من قوص قاصداً القاهرة ليزف البشرى ، فيتها القوم لانتظار بلوغ الوفاء بالقاهرة بعد ثلاثة أيام ٢ .

وقد أجمع الكتاب على أن وفاء النيل هو بلوغه نهاية الذراع السادس عشر ٣ ويعرف بماء السلطان الذى يجب فيه الحراج . وعندئذ تبدأ أعياد الوفاء .

ويمكننا ملاحظة أمرين :

الأول : هو أن هذا التقليد ظل متبعاً حتى بعد أن أصبحت الستة عشر ذراعاً لائقى بحاجات البلاد ، وصار الأمر يتطلب بلوغ ارتفاع النيل أكثر من عشرين ذراعاً . وفى ذلك يقول المقرئى ٤ : « ويحصل لأهل مصر بوفاء النيل ست عشرة ذراعاً فرح عظيم فإن ذلك كان قانون الرى فى القديم ، واستمر ذلك إلى يومنا هذا » .

والأمر الثانى : أنه ليس هناك تاريخ محدد يصل فيه النيل إلى حد الوفاء ، بل يتوقف ذلك على كمية الماء الوارد علاوة على الماء القديم ، وبذلك يختلف يوم الوفاء من عام لآخر . والاحتفال بوفاء النيل تقليد قديم سابق على الفتح العربى ٥ ، فلما فتح العرب

---

(١) الفيض الجديد - نسخة الإسكندرية ص ٦٧

(٢) المقرئى - الخطط ج ١ ص ٥٥

(٣) يذكر ياقوت أن كسر الخليج يكون إذا بلغ الماء ١٥ ذراعاً وزاد من السادس عشر أصبغاً واحداً - معجم البلدان ج ٤ ص ٨٦٥-٨٦٦ .

(٤) الخطط ج ١ ص ٦١

(٥) يذكر المؤلفون العرب أن يوم الوفاء هو يوم الزينة الذى وعد فيه فرعون موسى بالاجتماع .

مصر احتفظوا بهذا التقليد بعد إدخال التعديل الذي يوافق الدين الجديد ١ .

ولقد اختلفت طريقة الاحتفال بالوفاء في العصر العربي من وقت لآخر . ومن المعلومات التي يمكن استخلاصها من المراجع العربية نستطيع إلى حد ما أن نذكر فيما يلي المراحل التي مر بها ..

في الفترة التي أعقبت الفتح كان الاحتفال بسيطاً يتفق مع بساطة الدين الجديد . وابن رسته هو الكاتب العربي الوحيد الذي يعطينا صورة لهذا الاحتفال قبل العصر الفاطمي فيقول ٢ : « وقد اتخذت علامات تعرف بها زيادة الماء ونقصانه ، ووكل به جماعة يتعهدونه ويثبتونه ، فإذا زاد نظروا إلى بعض تلك العلامات فوقفوا على مقدار الزيادة في الخراج على حسب الزيادة في الماء . فيضير هؤلاء الموكلون إلى المسجد الجامع بأيديهم الرياحين ويقفون على حلقة حلقة ويرمون بما معهم من الرياحين إليهم وينادون أن الله عز وجل قد زاد في النيل كذا وكذا فيستبشر الناس ويكثرون حمد الله والشكر له » .

ويظهر أن الاحتفال بهذه الصورة استمر إلى وقت الفتح الفاطمي ، إذ إن المسعودي الذي يصف عيد الغطاس في عهد الإخشيديين ، وصفاً يدل على عنايتهم به ، لا يتعرض للاحتفال بوفاء النيل ولا يشير إليه . ولعل ذلك يعود إلى بساطة الحفل وتواضعه بالرغم مما يذكره ابن عبد السلام المنوفي ٣ من أن الدولة الإخشيدية كانت تعني بكسر الخليج وهو قول نتقباه بحذر لعدم وزوده في المراجع السابقة له .

فلما دخل الفاطميون مصر طرأ عامل جديد وهو الاحتفال بكسر سد خليج أمير المؤمنين وأول تاريخ يذكر عن قطع السد هو ذو القعدة سنة ٣٦٢ هـ ( أغسطس سنة ٩٧٣ م - مسرى سنة ٦٨٩ قبطية ) . فقد نقل المقرئ ٤ عن ابن زولاق : « وفي ذي القعدة يعني سنة ٣٦٢ وهي السنة التي قدم فيها الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة من بلاد المغرب ، ركب المعز لدين الله عليه السلام لكسر خليج القنطرة فكسر بين يديه ٥٠١ » .

وقد ذكر المقدسي ٥ أن مكان السد في عين شمس ، وأن تاريخ قطعه هو يوم

---

(١) الدكتور الشيال - المرجع السابق

(٢) الأعلام النفسية ص ١١٦

(٣) الفيض المديد ص ٤٤

(٤) الخطط ج ١ ص ٤٧٠

(٥) أحسن التقاسيم ص ٢٠٦

عيد الصليب كذلك قال المسعودى ١ إن هذا الخليج وغيره من أمهات الترع تفتح  
« إذا كان الماء زائداً في عيد الصليب وهو الأربع عشرة تخلو من توت وهو أيلول » .

فأما عن موقع السد فلا شك أنه كان عند القنطرة التي بناها عبد العزيز بن مروان  
على قم الخليج عند خروجه من النيل وليس في عين شمس . أما عن تاريخ كسره  
فيمكننا القول إنه بعد أن كان هناك تاريخ محدد لفتح هذا الخليج وهو عيد الصليب ،  
فمن المحتمل أن يكون المعز قد رأى كسر سده عند وفاء النيل ، إذ إنه ( أى المعز )  
قطع السد في ذى القعدة الموافق لشهر مسرى أى قبل عيد الصليب بمدة ليست قصيرة .

وعلى كل فقد اتبع هذا التقليد بعد ذلك وصار الخليفة الفاطمى يخرج بنفسه لقطع  
السد . فيذكر المقرئى نقلاً عن المسيحي ٢ ركوب العزيز والحاكم والظاهر كل  
سنة لفتح الخليج . أما عن تاريخ هذا الاحتفال فعند بلوغ النيل حد الوفاء أى ١٦  
ذراعاً ٣ ، ولو أن ناصر خسرو ٤ بالغ كثيراً إذ يرى أن السد يكسر عند ما يبلغ  
ارتفاع الماء « عشرين ذراعاً عن مستواه في الشتاء » .

ووصف ناصر خسرو ٥ - الذى يعتبر شاهد عيان - لهذا العيد الذى يسميه  
« عيد ركوب فتح الخليج » يدل على الفخامة والعظمة التي بالغ الفاطميون في إظهارها  
في كافة أعيادهم .. بل لقد أولوا هذا العيد من العناية ما لم يولوه غيره من الأعياد ،  
وفي ذلك يقول المقرئى ٦ : « ولوفاة النيل عندهم قدر عظيم ويبتهجون به ابتهاجاً  
زائداً وذلك لأنه عمارة الديار وبه التأم الخلق على فضل الله فيحسن عند الخليفة موقعه  
ويهتم بأمره اهتماماً عظيماً أكثر من كل المواسم » .

ولعل اهتمام الفاطميين بكسر سد الخليج يرجع إلى أن الأراضى التي على جانبيه  
ملك خاص للخليفة ٧ ، وقد يؤيد ذلك أنه عند ما حفر خليج أبو المنجا الذى يروى  
الأراضى الداخلة في ديوان الخليفة صاروا يحتفلون بكسر سده هو الآخر .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) هو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرائى مات سنة ٤٢٠ هـ .

(٣) كان السد في بعض السنين يقطع والنيل دون ١٦ ذراعاً - انظر السنيوطى ج ٢ ص ١٥٥ -

١٦٢ - المقرئى إغاثة الأمة ص ١٤ .

(٤) سفر نامه ص ٥١ .

(٥) » » ص ٥٢-٥٤ .

(٦) الخطط ج ١ ص ٤٧٦ .

(٧) انظر ناصر خسرو سفر نامه ص ٥١ .

وفى تاريخ لا يمكن تحديده بالضبط بعد سنة (٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م) أدخل تعديل آخر على الاحتفال وهو موكب تخليق المقياس الذى كان يقام قبل الاحتفال بكسر السد . فقد وصف ابن الطوير ( قرن ٧ هـ - ١٣ م ) ونقل عنه المقرئى ١ حفلات الوفاء فى عهد الفاطميين وذكر أن قراء الحضرة وغيرهم يجتمعون فى جامع المقياس ليلة الوفاء حيث يهتمون القرآن . وفى الصباح يحضر الخليفة لتخليق المقياس . ولم يحدد ابن الطوير سنة معينة ، ولكن لما كان جامع المقياس قد بنى حوالى سنة ٤٨٠ هـ ٢ فيكون الاحتفال بالتخليق بعد هذه السنة . وعلى أى حال فإن ناصر خسرو - وقد ظل بمصر حتى سنة ٤٤٢ هـ - لم يشر إلى تخليق المقياس .

وأول من ذكر تاريخاً محدداً لاحتفالات التخليق ، ابن المأمون الذى نقل عنه المقرئى فيصف موسم الوفاء فى سنة ٥١٦ بقوله : « وفى صبيحة هذا الموسم خلع على ابن الرداد وعلى رؤساء المراكب وغيرهم وحمل إلى المقياس يرسم المبيت وركوب الخليفة بتجمله ومواكبه إلى السكره ما فصله وبينه مما يطول ذكره ٣ » كما يؤكد تخليق المقياس سنة ٥١٧ هـ على يد الخليفة الأمر وبحضور المأمون البطائحي فيقول ٤ : « فلما وفى النيل ستة عشر ذراعاً ركب الخليفة والوزير إلى الصناعة بمصر ورميت العشاريات بين أيديهما ثم عديا فى إحداها إلى المقياس وصليا ونزل الثقة صدقة بن أبى الرداد مترلته وخلق العمود ٥٠١ » .

وفى رجب سنة ٥١٨ هـ قام المأمون البطائحي بتخليق المقياس ، فى حين أن الأمر هو الذى رأس احتفال كسر السد فى هذا العام ٥ .

يدل على أن الخلفاء كانوا يهتمون بكسر السد أكثر من اهتمامهم بتخليق المقياس ، كما يتبين مما ذكره ناصر خسرو والمقرئى أن الاحتفال بقطع السد أفخم وأروع من الاحتفال بتخليق المقياس ، حيث يحضره العامة والخاصة وينال الشعب فيها من بر الخليفة الكثير .

---

(١) الخطط ج ١ ص ٤٧٦

(٢) على مبارك الخطط التوفيقية ج ٥ ص ١٢٢

ويرى الأستاذ بوبر Popper أنه بنى سنة ٤٨٥ هـ ١٠٩٢ م op. cit. p. 73 ويذكر

ابن دقماق « الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١١٥ عن مسجد المقياس » وعمره الأفضل ابن أمير الجيوش بدر « ولكن سنة انشائه غير مذكورة ومكانها بياض فى الأصل .

(٣) المقرئى الخطط ج ١ ص ٤٧٠

(٤) » الخطط ج ١ ص ٤٧١-٤٧٢

(٥) » الخطط ج ١ ص ٤٧٣-٤٧٤



ومنذ ذلك الحين حتى آخر عهد الفاطميين على الأقل ، صار الاحتفال بموسم الوفاء على النحو الآتى :

فى ليلة الوفاء يجتمع قراء الحضرة والمتصلرون بجوامع القاهرة ومصر فى جامع المقياس حيث يختمون القرآن . وفى صبيحة يوم الوفاء يخرج الخليفة إلى المقياس لتخليقه بالمسك والزعفران .

وقد وصف المقرئى ١ عملية التخليق بقوله : « يدخل الوزير ومعه الاستاذون بين يدى الخليفة إلى الفسقية (فسقية المقياس) ، فيصلى هو والوزير ركعات كل واحد بمفرده . فإذا فرغ من صلاته أحضرت الآلة التى فيها الزعفران والمسك فيديفها بيده بآلة ويتناولها صاحب بيت المال فيناولها لابن أبى الرداد فيلقى بنفسه فى الفسقية وعليه غلالة وعمامة ، والعمود قريب من درج ، الفسقية فيتعلق به برجله ويده اليسرى ومخلقه بيده اليمنى ، وقراء الحضرة من الجانب الآخر يقرءون القرآن نوبة بنوبة ... ويكون فى البحر فى ذلك اليوم ألف قرقورة مشحونة بالعالم فرحاً بوفاء النيل . »

وفى اليوم الثانى يتوجه ابن أبى الرداد إلى القصر ليتسلم الحلقة المقررة له ، ويخرج فى موكب كبير من باب العيد شاقاً بها بين القصرين من أوله قصداً لإشاعة ذلك ، فإن ذلك من علامة وفاء النيل ، ولأهل البلاد إلى ذلك تطلع ٢ ثم يعود إلى المقياس .

وثالث يوم التخليق أو رابعه ٣ يكون الاستعداد لكسر الخليج قد تم ويخرج الخليفة فى موكبه الفخم . وقد وصف ناصر خسرو والمقرئى ما كان يجرى فى هذا الاحتفال مما يعطينا صورة للروعة والأبهة التى كان يمتاز بها ، كما كان ميداناً للشعراء لإظهار براعتهم بين يدى الخليفة .

وقد جرت العادة فى أعياد الوفاء أن يكتب إلى العمال فى الجهات المختلفة ، البشارات التى كان كتاب الإنشاء يتبارون فى تدبيجها ، فيقول القلقشندى ٤ : « وهذه المكاتب من خصائص الديار المصرية لا يشاركها فيها غيرها من الممالك . ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلم جرا يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاية الأعمال اهتماماً بشأن النيل وإظهاراً للسرور بوفاته الذى يترتب عليه الخصب المؤدى إلى العمارة وقوام المملكة وانتظام أمر الرعية . وقد كان للخلفاء الفاطميين القائمين بأمر الديار

---

(١) المقرئى الخطط ج ١ ص ٤٧٦

(٢) « الخطط ج ١ ص ٤٧٧

(٣) المقرئى الخطط ج ١ ص ٤٧٧ - القلقشندى صبح الأعشى ج ٢ ص ١٦٠

(٤) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٨

المصرية بذلك كبير العناية ووافر الاهتمام وكانت عادتهم في ذلك أنهم يكتبون بالبشارة بوفاء النيل كتباً مفردة ، ويفتح الخليج وهو المعبر عنه في زماننا بالكسر كتباً مفردة .  
وفي عهد الأمر أضيف إلى احتفالات الوفاء ، احتفال جديد بكسر سد بحر أبو المنجا ، فيقول المقرئ ١ : « ولا ولي المأمون البطائحي وزارة الأمر بأحكام الله بعد الأفضل تحدث الأمر معه في رؤية فتح هذا الخليج وأن يكون له يوم كخليج القاهرة ، فندب الأمر معه عدى الملك أبا البركات بن عثمان وكيله وأمره بأن يبنى على مكان السد منظره متسعة تكون من مجرى السد ، وشرع في عمارتها بعد كمال النيل . وما زال يوم فتح هذا البحر يوماً مشهوداً إلى أن زالت الدولة الفاطمية . »

ويذكر القلقشندي ٢ « أنه كان محمداً لقطع سد أبو المنجا يوم عيد الصليب » ، ثم استقر الحال على أن يقطع يوم النيروز في أول يوم من توت حرصاً على رى البلاد . وهو وإن لم يذكر متى تم هذا التغيير ، إلا أنه لم يحدث إلا بعد القرن السادس الهجري على الأقل فابن ممتي ٣ ( المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ) يذكر أن هذا البحر يقطع عند الصليب ، كما أن المقرئ يقول ٤ « إن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين قطع سد أبو المنجا في ١٩ من شوال سنة ٥٩٢ هـ وهو يوافق ١٧ توت أي عيد الصليب في هذا العام . »

وقد عني الأيوبيون بدورهم بهذه الاحتفالات . ومما ذكره القلقشندي والمقرئ يمكننا القول إنهم في أول الأمر كانوا — مثل الفاطميين — يقطعون سد الخليج في يوم آخر عند يوم التخليق ، وإن لم يتقيدوا بأن يكون يوم فتح السد ثالث أو رابع يوم التخليق . فالمقرئ ٥ يروي أن صلاح الدين ركب لتخليق المقياس يوم ١٧ من ربيع الأول ( ٢٧ مسرى ) وفتح الخليج في رابع ربيع الآخر . ولكن يظهر أنهم فيما بعد صاروا يخلقون المقياس ويقطعون السد في يوم واحد ، كما أنه لم يعد من المحتم ركوب السلطان لذلك بنفسه ٦ .

« كان الأيوبيون يحتفلون بكسر سد أبي المنجا بحضور السلطان نفسه ، فيقول المقرئ : « وفي تاسع عشرة يعني شوال سنة ٥٩٢ كسر بحر أبي المنجا وبأمر الملك العزيز عثمان كسره . »

---

(١) الخطط ج ١ ص ٤٨٨

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٦

(٣) قوانين الدواوين ص ٢٠٦

(٤) الخطط ج ١ ص ٦٠

(٥) السلوك ج ١ القسم الأول ص ٧٣

(٦) القلقشندي صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧

وظلت أعياد الوفاء في عهد المماليك من أكبر أعياد البلاد وأفخمها ، ولو أن السلاطين لم يهتموا كثيراً بحضور هذه الاحتفالات ، وكانوا ينيون عنهم من يحضره ، فيقول السيوطي ١ : « وقال المقرئ في سنة ٧٨٥ ركب السلطان الملك الظاهر برقوق حتى خلق المقياس وفتح الخليج بحضرته على العادة . ولم يعهد بعد الملك الظاهر بيبرس ملك ركب حتى خلق المقياس وفتح الخليج سوى الظاهر برقوق . وكذا قال الحافظ ابن حجر في - أنباء القمر - واستمر الظاهر برقوق يركب إلى المقياس وكسر الخليج في كل سنة مدة ولايته ، وركب ولده الملك الناصر فرج كذلك في سنة ٨٠٧ وفي سنة ٨١١ . وركب الملك المؤيد شيخ لذلك في سنة ٨١٦ أول ماتسلطن ثم استمر يركب إلى أن مات . ثم لم يركب له سلطان إلى سنة ٨٣٣ فركب الملك الأشرف برسبای لذلك ، ثم لم يركب له إلى أن مات ولا أحد من السلاطين بعده إلى أيام الملك الظاهر خشقدم ركب له في ولايته بعض سنين . ولم يركب له سلطان عصرنا ٢ . »

كما أصبح تخليق المقياس وكسر السديتم في يوم واحد ٣ .

أما سد بحر أبو المنجا فقد أهمل الاحتفال بكسره ، فيذكر المقرئ ٤ : « وقد تلاشي في زماننا أمر الاجتماع في يوم فتح سد بحر أبي المنجا وقل الاحتفال به لشغل الناس بهم المعيشة » .

وقد أعطانا أبو السرور البكري الصديقي صورة لحفلات الوفاء في العهد العثماني فيقول ٥ : « وأما في الدولة العثمانية أيدها الله تعالى ، فركب بكاربكي مصر من الصباح من القلعة وينزل إلى بولاق للمراكب المزينة - التي أعدت له والصناجق بمراكبها والأمراء تجاه الترسخانات فيترل هناك بها ويقلع من المراكب التي هو بها ويقلع خلفه جميع الصناجق بمراكبها والأمراء ويضربون المدافع العديدة . ولا يزال سائراً من بحر مصر القديمة إلى المقياس بالروضة وذلك حين يبقى لوفاء البحر دون عشرين إصبعا ، ويجلس بالمقياس المذكور إلى أن يبق البحر الستة عشر ذراعاً وإن رأى

---

(١) كوكب الروضة - نسخة دار الكتب رقم ٢٦٣ ص ٨٥

(٢) انظر أيضاً ابن دقماق « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ج ٤ ص ١١٥ ، السخاوي التبر المسبوك ص ١١ وما بعدها .

(٣) ابن دقماق المرجع السابق ج ٤ ص ١١٥ - قلقشندي المرجع السابق ج ٣ ص ٥١٦ ، ج ٨ ص ٣٢٨ .

(٤) الخطط ج ١ ص ٤٨٨

(٥) قطف الأزهار من الخطط والآثار ص ٨٨ ، ١٩ .

حظا جلس بعد الوفاء اليوم واليومين ويجعلون الحراقات والعرايش النفيسة ويقع من القصف واللهو مالا يحصر .

وفي يوم إرادة البكري فتح السد يحصل ممطر عليها قبل طلوع الشمس للصناجق والجاويفية والمتفرقة وغيرهم من العساكر ، ويكون عنده قاضي مصر إذ ذاك . وحين الفراغ من السمط يخلع على كاشف الجيزة وابن الخير شيخ عربان الجيزة وكذلك كاشفها وعلى صفر باشا مصر ووالى بولاق ومصر القديمة وأمين الشون وحجى باشا وأمين البحرين وأمين الخضراء وناظر الحسبة وعلى أمين الخردة . ثم ينزل هو وقاضي عسكر مصر وجميع الصناجق تضرب إلى أن يأتى السد فيتثنى ثم يصعد من السد إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً .

ولما فتح الفرنسيون مصر أرادوا أن يتألقوا الشعب فشاركوه احتفالاته وبالغوا فيها ، ويصفى ١ على باشا مبارك الاحتفال بوفاء النيل سنة (١٢١٣هـ - ١٧٩٨ م) وقد حضره نابليون ومعه قواده والكيخيا والباشا وأعضاء الديوان وتوجه إلى المقياس الساعة السادسة صباحاً حيث أطلقت المدافع وصدحت الموسيقى ثم قطع الجسر ونثر النقود على الناس . وقد ظل هذا النظام متبعاً حتى جلائهم عن مصر : ويصفى ٢ لنا أيضاً نظام هذا الاحتفال في سنة (١٢٩١ هـ - ١٨٧٤ م) أى في زمنه هو، وأنه عندما بلغ النيل في مقياس الروضة ١٥ ذراعاً وبعض أصابع حررت المحافظة ثلاث خطابات ، الأول لديوان الأشغال يعين يوم الوفاء ونظام الموكب واشتراك الطوائف المختلفة فيه . والخطاب الثانى إلى ديوان الانجرارية لترتين العقبة والثالث لشيخ المنادين لإعلان الناس بيوم الوفاء .

وفي ليلة الوفاء تتوجه العقبة والسفن التابعة لها وخلفهم ذهبيات الخلق إلى فم الخليج حيث يكون هناك خيام لجميع الدواوين والأمراء والقناصل ووجوه الناس ، ويظل الناس في احتفال حتى الصباح حيث يصدر الأمر بقطع السد ويكون ذلك بحضرة الخديوى أو من ينوب عنه .

ومن الملاحظ أن عادة تخليق المقياس لم تعد تذكر منذ عهد العثمانيين ٣ إلا أن طابع الفخامة ما زال هو السائد في احتفالات الوفاء طيلة العهود المختلفة .

(١) الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ٣٤

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ٣٤

(٣) يرى بوبر Popper أن الترك أبطلوا عادة تخليق المقياس . Op. Cit. p: 73



## الفصل الثاني

### النظم الاقتصادية

#### تمهيد

قل أن نجد أمة ارتبطت حياتها بنهرها ارتباطاً وثيقاً مثلما ارتبطت مصر بالنيل فهو لها بمثابة الروح من الجسد ، فطالما يجري بين ربوعها نجد الخصب والثناء والثروة ونجد حياة متجددة وخيراً عميماً . فإذا أعرض عنها وقصر في الفيضان انقلبت هذه الصورة المشرقة إلى أخرى كثيبة حزينة فصار الخصب جدياً والشعب جوعاً والرى عطشاً .

والنيل يجري في أكثر من بلد ولكنه يخص مصر بما لا ينحصر به غيرها فكادت أن تنفرد بكل مزاياه ، ويصف ابن فضل الله العمري فضل النيل على مصر فيقول ١ : « ساقه الله تعالى إلى مصر وأحيا به بلدة ميتا وسقاه أمة عظمى وإن لم تكن هي المتفردة بنفعه فإنها كالمنفردة به » .

ولقد كان نهر النيل خيراً وبركة على مصر في جميع نواحي حياتها فإلى جانب أنه وهبها جزءاً كبيراً من الأرض كانت من قبل تغمره مياه البحر ، وهو الدلتا ، فهو قد ربط بين أجزائها مما ساعد على قيام وحدة سياسية واجتماعية ، كما كان من الناحية الاقتصادية العامل الوحيد في ازدهار اقتصادها الذي ظل إلى اليوم يقوم على الزراعة ، وهذه بدورها تتوقف كلية على ماء النيل لندرة المطر ٢ بها . ولقد أحس المصريون بكل ذلك منذ استقروا على ضفافه واستطاعوا أن يلعبوا دورهم بنجاح في الانتفاع بما يقدم لهم من أسباب الحياة ، أو كما يقول استرابون : « أحسنوا استغلال حسن طالع بلادهم » . فقسموا الأرض إلى مساحات وحدتها الفدان ٣ وقد قدر العرب

---

(١) « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ج ١ ص ٦٧

(٢) يقول صاحب « الاستبصار في عجائب الأمصار » ص ٥٠ قيل إن مصر لم يجعل الله في أرزاق أهلها ولا في أقواتهم نصيباً مما قسم على عباده من الرحمة بالنيث الذي جعله الله عمارة البلاد .

(٣) استرابون ص ٤٦ وانظر عمر طوسون « مالية مصر » ص ١٩٧

مساحته بأربعمائة قصبة حاكية أى عشرة آلاف ذراع نجارى وقدره هيرودوت ١ بنفس المقدار من الأذرع المصرية . ثم هم شقوا الترع وأقاموا الجسور فى الجهات المختلفة لضمان رى البلاد ، فعندما يتم فيضان النيل تفتح الترع وتقطع الجسور فى أوقات محددة لكل منها وفى أماكن معلومة حتى تروى الأرض ثم يصرف الباقي إلى البحر .

ويتوقف مقدار ما يزرع من الأرض على مبلغ الزيادة وقت الفيضان . ويلاحظ أن كلام من الفيضان المقصر والفيضان المرتفع جداً مضر بالزراعة فالأول لا يروى كل الأرض الصالحة للزراعة والثانى يؤدى إلى استبحار الأراضي المنخفضة فيبقى الماء فيها حتى يفوت موعد الزراعة ، وفى كلا الحالين تنقص رقعة الأرض المترعة . وكانت الفيوم هى المنطقة الوحيدة التى لا تعتمد على مياه الفيضان بل كانت تروى طيلة العام وبذلك أمكن زراعتها أكثر من مرة .

ومياه الفيضان إلى جانب أنها تغمر الأرض فتروى ظمأها ، فإنها تجدد خصبها كل عام بما تحمله من طمي . ويعلل البغدادى سبب خصوبة أرض مصر بقوله ٢ : « إن أرضها رملية لاتصلح للزراعة لكنه يأتيها طين أسود علك (٣) فيه دسومة كثيرة يسمى الإبلز ٣ يأتيها من بلاد السودان مختلطاً بماء النيل عند مده ، فيستقر الطين وينضب الماء فيحترث ويزرع وكل سنة يأتيها طين جديد ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شيء منها كما يفعل فى العراق والشام . ولهذا العلة تكون أرض زكية كثيرة الإثاء والريع إذ كانت أقرب إلى المبدأ فيحصل فيها من هذا الطين مقدار كثير بخلاف أسفل الأرض فإنها أسافة مضوية ٣ إذ كانت رقيقة ضعيفة الطين لأنه يأتيها الماء وقد راق وصفا ٤ .

ونتيجة لهذا الترسيب السنوى للطمي الذى يحمله النيل ، ارتفع سطح الأرض عاماً بعد عام ، لذلك تغير ارتفاع النيل المناسب للرى من فترة لأخرى ، فكلما تقدم الزمن صارت الحاجة ماسة إلى فيضان أعلى ٤ .

---

(١) استرابون فى مصر ص ٤٦ الهامش .

القصبة الكاملة كما يذكر القلقشندي ج ٣ ص ٤٤٦ = ٦ أذرع بالهامشى ٥ أذرع بالبحارى ٨ أذرع بذراع اليد

ذراع اليد = ٢٤ إصبع

(٢) الإفادة والاعتبار ص ٦

(٣) الإبلز : من بلز وامرأة بلز أى ضخمة مكتنزة - علك : لرج

أسافة مضوية : أى أرض رقيقة ضعيفة لا تكاد تنبت شيئاً انظر اللسان .

(٤) فى زمن هيرودوت مثلاً كان الارتفاع المطلوب ١٤ أو ١٥ ذراع ، وكان قبل ذلك =

ويذكر القضاعى ١ أنه عند الفتح العربى لمصر كان الارتفاع المناسب للفيضان حتى تخبب الأرض وتكنى أهلها ستين هو ستة عشر ذراعاً ٢ .

ولكن بعد الفتح بثلاثة قرون يذكر المسعودى ٣ أن هذا القدر يكنى الناس وإن ترك ربع الأرض ظامئة ٤ ، وأن الزيادة النافعة هى سبعة عشر ذراعاً فى حين أن زيادة ذراع آخر ضارة لأنها تسبب استبحار بعض الأراضى فلا يمكن زراعتها .

وبعد ذلك بأقل من ثلاثة قرون أخرى نجد الأمر يستلزم بلوغ النيل ثمانية عشر ذراعاً حتى يروى جميع الأرض ٥ .

وأخذت الحالة تسوء حتى أصبحت الأرض فى أوائل القرن التاسع الهجرى (١٥ م) لا تروى إلا من الذراع العشرين . وفى ذلك يقول المقرئى ٦ : « وكنا نعهد الماء إذا بلغ أصابع من عشرين ذراعاً فاض ماء النيل وغرق الضياع والبساتين وفارت البلاليع ، وما نحن فى زمن منذ كانت الحوادث بعد سنة ٨٠٦ إذ بلغ الماء فى سنة إصبغاً من عشرين لا يعم الأرض كلها لما قد فسد من الجسور » . بل إنه فى النصف الثانى للقرن العاشر نجد قاضى المنزلة بعد ذكره كلام المقرئى المتقدم يقول ٧ : « وأنا شاهدته قد بلغ أصابع من اثنين وعشرين ذراعاً وما تضرر أحد » .

أما فى القرن الحادى عشر الهجرى أصبح الارتفاع المطلوب لرى البلاد ثلاثة وعشرين ذراعاً ٨ .

---

=بسمائة عام يكنى لرى البلاد ثمانية أذرع فى حين أن هذا القدر كان يسبب القحط فى عهد سترابون انظر هيرودوت فى مصر ص ٣١ - سترابون فى مصر ص ٤٦

(١) انظر القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٢٩٣ - المقرئى الخطط ج ١ ص ٥٩

(٢) كان هذا القدر فى القرن الخامس الميلادى يسبب خسائر فادحة - انظر أمين باشا سامى

تقويم النيل ج ١ ص ٨١ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٢

(٤) يذكر المقرئى ( إغاثة الأمة ص ١٢-١٣ ) أن من أسباب الغلاء الذى حدث فى عهد

كافور هو بلوغ النيل سنة ٣٥٤ ٨ ١٦ ذراعاً وأصابع وقال إن النيل إذا بلغ هذه الزيادة يعد قاصراً - وهذا يخالف ما ذكره المسعودى وإن كنا نرجح أقوال المسعودى لأنه أقرب أقرب عهداً .

(٥) الإدريعى « صفة المغرب » ص ١٤٤ - البغدادى « الإفادة والاعتبار » ص ٤٤

(٦) الخطط ج ١ ص ٥٩ وانظر أيضاً المنوفى « الفيض المديد » نسخة إسكندرية ص ٧٤

(٧) مخطوطه « عجائب الأخبار عن مصر الأمصار » الأزهر ص ٧٩ أ - وقاضى المنزلة

يعرف باسم القاضى معروف بن أحمد انظر فصل المخطوطات .

(٨) أبو السرور البكرى « الكواكب السائرة » نسخة بلدية إسكندرية المصورة ص ١٣٤

وفي الحقيقة لم يكن ارتفاع الأرض هو السبب الوحيد الذي أدى إلى تغير قانون  
الرى إذ إنه بطبيعة الحال كان يقابل ارتفاع الأرض الزراعية ارتفاع في مجرى النهر  
نفسه نتيجة الترسيب ١ . ومن هذه الأسباب الأخرى إهمال الجسور وعدم العناية  
بالخلجان والترع ٢ .

ومع ذلك كان خصب مصر مضرب الأمثال حتى في أسوأ عهودها وإهمال الحكام  
لها .

وقد قال عمرو بن العاص : « ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة » ٣ . وروى ٤  
عن عبد الله ابن عمرو « من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فليتنظر  
إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها » . كما سماها العرب « سلة الخبز » .  
ويذكر المقرئ ٥ عن فضائلها « إنها تميز أهل الحرمين وتوسع عليهم ، ومصر  
فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها . وأهلها يستغنون بها عن كل بلد حتى أنه  
لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد » .

وقد أطنب الكتاب العرب كثيراً في وصف ثروة مصر الزراعية ، مع أننا إذا تتبعنا  
ما ذكره نلمس ما طوأ على البلاد من انحطاط في اقتصادها نتيجة للمظالم التي تعرض لها  
الشعب والإهمال الذي أصاب مرافق البلاد . وكان العرب دائماً يقارنون بين ما كانت  
عليه مصر من ثراء قبل الفتح وما أصابها من محن بعده .

فيصف ابن عبد الحكم البلاد تحت حكم الفراعنة فيذكر ٦ : « وكانت الجنات  
بحافتي النيل من أوله إلى آخره في الجانبين جميعاً ما بين أسوان ورشيد .... وكانت أرض  
مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما قدروا ودبروا من قناطرها وخلجها وجسورها » .  
ويروى المقرئ ٧ « أنه بلغ من عمارة البلاد أن أحد الفراعنة أرسل وية قمح إلى  
أسفل الأرض والصعيد فلم توجد أرض فارغة تزرع فيها » .

---

(١) قدر Popper الارتفاع السنوي في مجرى النيل بمقدار ٩,٢٢ بوصة أي ٢٣ سم  
ويذكر أن عمر طوسون قدره ١٣ سم أي ١١,٥ بوصة - أنظر Popper Op. cit. p. 224  
(٢) يؤكد ذلك أنه في عهد محمد علي كان يكفي للرى لا سيما في الوجه البحري ١٧ ذراعاً  
وربع نظراً لكثرة الترع التي حفرها - انظر رفاعة الطهطاوى أنوار توفيق الجليل ص ٣٠

(٣) المقرئ الخطط ج ١ ص ٢٧

(٤) ابن عبد الحكم « فتوح مصر » ص ٥

(٥) الخطط ج ١ ص ٢٨

(٦) فتوح مصر ص ٦

(٧) الخطط ج ١ ص ٧٤



وعندما فتح العرب مصر ، كانت البلاد لا تزال تفيض بالثراء برغم المظالم التي عاناها أهلها تحت حكم الرومان . ولكن سرعان ما دخلت في دور انهيار اقتصادي فأخذت القرى تخرب والأرض تجذب ، حتى أن عمرو ابن العاص في كتاب له لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يشير إلى ذلك ويقارن بين عناية الفراعنة وإهمال العرب وأنهم ( أي الفراعنة ) « كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام ١ » .

ولإهمال مرافق البلاد وانهيار اقتصادها أسباب كثيرة منها :

١ - الظروف السياسية التي مرت بها مصر ، وكثرة تغير الحكام عليها ، فلم يتمكنوا لقصر مدتهم العناية بشئونهم ، بل انصرف هم أغلبهم إلى تحقيق مطامعهم الشخصية على حساب الصالح العام ٢ ، خصوصاً وأن كثيراً منهم كان نائباً عن الوالي المعين الذي أثر البقاء في دار الخلافة وإرسال من ينوب عنه في حكم البلاد (٢) .

ب - الشدائد التي تعرض لها الأقباط في بعض الأوقات ، وفي ذلك يقول المقرئ ٣ : « ولما ولي مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان اشتد على النصارى واقتدى به قرة بن شريك أيضاً في ولايته على مصر وأنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلاً ... وفي سنة ٢١٦ انتقض القبط فأوقع بهم الأفشين حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية فبيعوا وسبى أكثرهم . ومن حينئذ ذلت القبط في جميع أرض مصر » . ولا شك أن لهذه الشدائد في بعض الأوقات أثراً في انصراف المصريين عن العناية بالأرض والزراعة .

---

(١) المقرئ المراجع السابق ص ٧٨

(٢) ونظرة مريضة في كتاب « الولاة والقضاة » للكندي يتضح أن عدد الولاة الذين حكموا مصر في المدة من الفتح حتى آخر عهد الأمويين أي في حوالي مائة عام ٣٢ والياً - وفي عهد عباسيين حتى زمن ابن طولون أي في مائة سنة أخرى تولوها ٧٨ .

وفي ذلك يقول علي مبارك في كتابه « نخبة الفكر » ص ١٢ « استول المسلمون على مصر سنة ٦٤٢ م وصارت ولاية يحكمها عامل من طرف خليفة المسلمين فلم ينقلها هذا التقلب عن أحوالها وأهوالها بل سار فيها عمال المسلمين على سير عمال الرومانيين من غير أن يراعوا قواعد الشريعة الغراء الراجعة إلى العدل والإنصاف والرفق بالرعية بل تفنن كل عامل فيما يحدثه من البدع ومن قصر مدة العامل أهملت التدابير الداعية إلى نمو الأرزاق وعمار البلاد واستقل كل عامل بمنافع نفسه وحاشيته من دون أن يلتفت إلى المصالح العمومية - أنظر أيضاً « في مصر الإسلامية » إخراج الدكتور زكي محمد حسن وآخرون المقدمة ص . ح ، ص د و ص ١٠ و ص ١٢ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٩٢ .

- ج - كثرة الضرائب المختلفة التي فرضت على أهل البلاد .
- د - قصور النيل في سنين كثيرة وتعرض البلاد لمجاعات طاحنة ووباء قضى على كثير من أهلها . كما دفعت هذه المجاعات أهل الريف إلى ترك القرى والهجرة إلى المدن الكبرى بل وإلى خارج البلاد ١ . فقلت الأيدي العاملة ولم تجد الأرض من يزرعها . ويصف ابن إياس حال الأرض بعد الغلاء الذي حدث في عهد الملك العادل أبي بكر ( سنة ٥٩٧ هـ ١٢٠٠ م ) ومكث ثلاث سنوات فيقول ٢ : « كان النيل إذا طلع لم يجد من يزرع الأراضي فكانت الترك تخرج بنفسها بحرثون ويزرعون بأيديهم ويبدلون في الأرض الغلال لعدم وجود الفلاحين » .
- هـ - وازدادت الحالة سوءاً منذ قسمت البلاد إلى إقطاعات بين الأمراء والجنود وأصبح الفلاح قنأ ترتبط حرثته بالأرض التي يعمل فيها وصار صاحب الإقطاع لا هم له إلا جباية ما يستطيع جبايته دون أى اهتمام أو عنايته بالأرض وتطهير للترع وصيانتها للجسور . ويذكر القلقشندي ٣ : « وقد أهمل الاهتمام بأمر الجسور في زماننا وترك عمارة أكثر الجسور البلدية واقتصر في عمارة الجسور السلطانية على الشيء اليسير الذي لا يحصل به كبير نفع » .
- و - ويمكننا أن نضيف سبباً هاماً آخر وهو الصراع الذي نشب في عصور مختلفة بين القوى العسكرية المختلفة التي تنافست في محاولة السيطرة على الحكم من أتراك وعرب وسودانيين وغيرهم ٤ - .
- ويقارن المقرئ بين ما كانت عليه مصر عند الفتح وما صارت إليه ، فيقول ٥ : « بين مشارق الفرما من ناحية جرجير وفاقوس وبين آخر ما يشرب من خليج الإسكندرية مسيرة شهر كان عامراً كله في محلول ومبعقود إلى ما بعد الخمسين وثلاثمائة من الهجرة ( ٩٦١ م ) وقد خرب معظم ذلك » .
- كما أن مقارنة بين عدد قرى مصر في العصور المختلفة تدلنا على ما وصلت إليه البلاد من تدهور ففي العهد الأموي كان عدد القرى أكثر من عشرة آلاف قرية ٦ ثم نقص عددها حتى صار في سنة ٣٤٥ هـ ( في ولاية أنوجور بن الإخشيد ) ٢٣٩٥ قرية ،

(١) البغدادى « الإفادة والاعتبار » ص ٤٩

(٢) بدائع الزهور المطبعة الأميرية ص ٧٦

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٩

(٤) انظر « في مصر الإسلامية » ص ٢٠

(٥) الخطط ج ١ ص ١٧١

(٦) المقرئى - الخطط ج ١ ص ٧٣-٧٤ - وابن عبد الحكم المرجع السابق ص ١٥٦

وفي زمن الملك الأشرف برسباي ( ٨٢٥-٨٤١ هـ - ١٤٢٢-١٤٣٨ م ) أصبحت ٢٢٧٠ قرية ١ .

وليس معنى ذلك أن الإهمال قد أصاب مرافق البلاد في كل العصور ، ففي بعض العهود بذل أولو الأمر عنايتهم بعمارة البلاد وحفر ترعها وإقامة جسورها ، كما حدث في زمن أحمد ابن طولون الذي عم الرخاء في عهده حتى كان القمح كل عشرة أراذب بدينار ٢ .

ولا يفوتنا أن نذكر ذلك المشروع الهائل الذي فكر ابن الهيثم في إقامته في عصر الحاكم بأمر الله الفاطمي وهو إنشاء خزان جنوب أسوان أي مكان خزان أسوان الحالي تقريباً . وقد رحب الحاكم بهذا المشروع واستدعى ابن الهيثم ولكن الأخير عجز عن إتمام مشروعه ٣ .

ولقد أعجب ناصر خسرو الرحالة الفارسي بما رآه في مصر من ثراء والدكاكين المملوءة ، بالذهب والأمتعة . وقد دهش من كثرة محصولاتها وتعدد أنواعها في وقت واحد ، ويظهر أنه خشي اتهامه بالمبالغة فيقول ٤ : « وكل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التي بعضها خريني وبعضها ربيعي وبعضها صيني وبعضها شتوي لا يصدق هذا . ولكن ليس لي قصد فيما ذكرت ولم أكتب إلا ما رأيت » .

وذكر ابن مماتي ٥ والقلقشندي ٦ من محاصيل البلاد وحيواناتها ما يدل - بالرغم مما حل بها - على أنها ما زالت من أخصب بلاد الدنيا وأغناها .

كما قال فيها أحد الرحالة : « طفت أكثر المعمور من الأرض فلم أر مثل ما بمصر من ماء طوبة ولبن أمشير وخروب برمهاات وورد برمودة ونبق بشنس وتين بؤنة وعسل أييب وعنب مسرى ورطب توت وورمان بابة وموز هتور وسمك كيهك » (٦) .

---

(١) قاضي المتزلة مخطوطه « عجائب الأخبار عن مصر الأمصار » نسخة الأزهر ص ٧ ب

(٢) مقرئى خط ج ١ ص ٩٩

(٣) هو أبو على محمد ( وفي رواية أخرى الحسن ) بن الحسن بن الهيثم ( ٣٥٤ - ٤٣٠ هـ - ٩٦٥ - ١٠٣٩ م ) طبيب عربى وعالم من أعلام الرياضة والطبيعات . وقد نقل للحاكم عنه أنه قال : « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغت أنه ينحدر من موضع عال هو في طرف الإقليم المصرى » . ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٠ وانظر أيضاً E.I.

(٤) سفر نامه ص ٦٠ ، ٦٢

(٥) قوانين الدواوين ص ٢٢٤ وما بعدها (٦) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١١ وما بعدها .

## أولاً - النظم الزراعية :

ذكرنا أن الزراعة تتوقف على فيضان النيل وغمره للأرض حتى إذا تراجع وأخذت الأرض تجف بذرت البذور وينمو الزرع بدون حاجة إلى ري بعد ذلك .

ولما كان الفيضان يأتي في فصل معين من السنة ، وهذه الفصول أساسها جريان الشمس في فلكها ، فقد أنشأ المصريون القدماء التقويم الشمسي والسنة الشمسية ١ التي تتكون من ٣٦٥ يوماً وربع اليوم .

وقد جعلوا بداية سنتهم أول الحريف عندما يبلغ النيل غايته ، وقسموها إلى ثلاثة فصول هي : « الفيضان ( أخت ) والزرع ( برت ) والحصاد ( شمو ) وقسم كل فصل إلى أربعة شهور أعطيت في أول الأمر أرقاماً ثم أطلق عليها منذ العصر الفارسي ( حوالى القرن السادس ق . م ) أسماء هي التي لا زالت باقية في شهور السنة القبطية وهي : « توت وبابه وهاتور وكيهك لفصل الفيضان وطوبة وأمشير وبرمهاث وبرمودة لفصل الزرع وبشنس وبؤونة وأيبب ومسرى لفصل الحصاد ، واشتق اسم كل شهر من العيد الرئيسي الذي كان يحتفل به خلاله . وكانت عدة أيام كل شهر ثلاثين يوماً فأضافوا خمسة أيام وهي أيام النسيء ٢ » .

ولما كان هناك ارتباط وثيق بين الفصول وبين السنة الشمسية ، لذلك حرص الفلاح المصري بعد الفتح الإسلامي - وحتى اليوم - على استعمال التقويم الشمسي في معرفة مواسم الزراعة والحصاد وجباية الحراج . وقد عرف هذا التقويم بالتقويم القبطي .

ولذلك نجد أن العرب كانوا يستعملون في تأريخهم للحوادث التقويم الهجري ( أو القمري ) ولكنهم في نفس الوقت كانوا مضطرين في الشؤون المالية والزراعية إلى استعمال التقويم الشمسي ، ففي النداء على النيل مثلاً كانوا يذكرون التاريخ القبطي وما يقابله من التاريخ الهجري .

ويقول المقرئى ٣ : « ولما رأى المسلمون تداخل السنين القمرية في السنين الشمسية

---

(١) يقول المقرئى في الخطط ج ١ ص ٢٧٠ : أعلم أن المصريين القدماء اعتمدوا في تأريخهم السنة الشمسية ليصير الزمان محفوظاً وأعمالهم واقعة في أوقات معلومة من كل سنة لا يتغير وقت عمل من أعمالهم بتقديم ولا تأخير السنة .

(٢) الدكتور نجيب ميخائيل « تاريخ مصر » ص ٢٥ - وشهر النسيء في الواقع  $\frac{1}{4}$  يوم ولذلك في نهاية كل أربع سنوات يكون شهر النسيء سه أيام .

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٧٣



أسقطوا عند رأس كل اثنين وثلاثين سنة قمرية سنة ، وسموا ذلك الأزدلاق لأن لكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب .

وتبدأ السنة الزراعية والمالية في مصر بابتداء السنة القبطية أى عندما يغمر النيل الأرض بمائة ١ ويكون ذلك نهاية لموسم زراعى سابق ، وبداية لآخر جديد . وظلت السنة الزراعية في العهد الإسلامى - كما كانت من قبل - تنقسم إلى ثلاثة مواسم ، موسم الفيضان وفيه يغمر النيل الأرض لرى ظمئها وتجديد خصبها ، يعقبه موسم الزرع عندما يتراجع النيل وتجف الأرض ، وأخيراً موسم الحصاد عندما يتم نضج المحاصيل .

ويأخذ وجه الأرض في كل من هذه المواسم أو الفصول شكلاً مميزاً عما سواه ، لذلك وصفت مصر بأنها ١ ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء . فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر في شهر أبيب ومصرى وتوت يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وأما المسكة السوداء فإن في شهر بابة وهاتور وكيهك يتكشف عنها الماء وينضب عن أرضها فتصير أرضاً سوداء وفيها يقع الزراعات وللأرض رائحة طائبة تشبه روائح المسك وأما الزمردة الخضراء فإن في شهر طوبة وأمشير وبرمها تلمع بكثرة عشبها ونباتها فتصير الدنيا خضراء كالزمردة ، وأما السبيكة الحمراء فإن في شهر برمودة وبشنس وبؤونة يبيض الزرع ويتورد العشب وهو كسبيكة الذهب منظرًا ومنفعة ٢ .

وما ذكره ابن حوقل ٣ وابن ماقى ٤ عما يتم عمله في شهور السنة المختلفة يعتبر سجلًا دقيقاً للنظام الزراعى والمحاصيل المختلفة . كما ذكر ابن ماقى ٥ والقلقشندي ٦ والمقرئى ٧ ثلاثة عشر نوعاً من الأراضى الزراعية تختلف باختلاف طبيعتها ومعدنها وريها كما تختلف في طريقة زراعتها وأنواع محاصيلها وقيمتها الاقتصادية .

---

(١) يقول المقرئى الخطط ج ١ ص ٢٧٠ : وكانت عادة مصر منذ عهد فراعنتها في استخراج خراجها وجباية أموالها أنه لا يستم استيفاء الخراج من أهلها إلا عند تمام الماء واقراره على سائر أرضها ويقع تمام في شهر توت .

(٢) المسعودى « مروج الذهب » ج ٢ ص ٣٥٦

(٣) صورة الأرض ص ١٣٦

(٤) قوانين الدواوين ص ٢٣٤ وما بعدها

(٥) المرجع السابق ص ٢٠١ .

(٦) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٠

(٧) الخطط ج ١ ص ٩٩ . لم يذكر المقرئى إلا ١٢ نوعاً فقط إذ وحد بين نوعين

هما الوسخ والوسخ الغالب .

ونلاحظ مما ذكره الكتاب العرب أن النظم الزراعية ظلت خلال العصور المختلفة حتى الآن لم تتغير كثيراً لافى طريقة الزراعة ولا المحاصيل الزراعية كما أن قوة احتمال الفلاح المصرى ظلت كما هى مضرب الأمثال فى كل عصر . ويصف مؤلف « عجائب الأمصار » عن مصر الأمصار « ١ قوة احتمال الفلاح المصرى بقوله : « إننى لم أرقط منذ عقلت اختلاف أحوال البرايا ولا سمعت برعايا ما زالوا من قبل دخول الملة الإسلامية إلى هذه الديار وإلى هذه العام أعنى سنة ٩٦٢ هـ أصبر على بلاء فلاحها منهم » .

وعندما فتح العرب مصر تركوا الأرض بأيدي المصريين وظلوا هم بعيدين عن الزراعة إذ أن سياسة عمر بن الخطاب كانت تقوم على عدم صرف العرب عن الجهاد وشغلهم بأمور أخرى .

إلا أن هذه السياسة لم تدم طويلاً ، فتطلع العرب إلى الاستقرار وزراعة الأرض وكثر اندماجهم بأهل البلاد حتى غلبوهم على الأرض .

ثانياً - الضرائب :

لم يكن لدى العرب الفاتحين ، من النظم ، ما يمكن إحلاله محل النظم السائدة فى البلاد التى فتحوها ، لذلك اضطروا إلى اتباع النظم الإدارية والمالية التى كانت متبعة سابقاً فى إدارة الممتلكات الجديدة إلا فيما يتعارض مع الإسلام . بل وظلت لغة الدواوين هى لغة البلاد المفتوحة حتى عربت فى عهد عبد الملك بن مروان ٢ .

وعندما استتب لعمر بن العاص الأمر فى مصر ، فرض جزية على الرءوس إلى جانب ضريبة الأرض . وقد كانت الجزية نتيجة اتفاق بين عمرو والمصريين حتى يتم الصلح . أما الخراج أو ضريبة الأرض فقد اضطروا إلى اتباع نفس النظام الذى كان متبعاً فى عهد الرومان ٣ .

يقول ابن عبد الحكم ٤ فى فتح حصن بابليون : « واقتحم المسلمون الحصن ، فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه فحيثئذ سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو إلى ذلك » ويذكر.

---

(١) ص ١٦٤ .

(٢) يذكر المقرئى فى الخطوط ج ١ ص ٩٨ : إن اللواوين عربت فى مصر فى ولاية عبد الله ابن عبد الملك سنة ٨٧ وأنه جمل على الديوان ابن يربوع الفزارى من أهل حمص .

(٣) ابن عبد الحكم « فتوح مصر » ص ١٥٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٦٣ .

في موضع آخر ١ ، : « فكانت مصر صلحاً كلها بفريضة دينارين على كل رجل لا يزاد على أحد منهم في جزية رأسه » .

وكانت الجزية لا تجمع إلا من الرجل العاقل البالغ ، وقد أعفى منها الصبي الصغير والشيخ الفاني والمريض العاجز والعبد كما أعفى منها الرهبان والنساء .

ومع أن ابن عبد الحكم حدد الجزية على الرأس بدينارين ، وأنها كما يقول الماوردي (٢) نص أي منصوص عليها ، إلا أنه اختلف في تقديرها من وقت لآخر ، وحتى من الناحية الشرعية اختلف الفقهاء في تقديرها ، « فذهب أبو حنيفة إلى تصنيفهم ثلاثة أصناف أغنياء ٤٨ درهماً وأوساط ٢٤ درهماً وفقراء ١٢ درهماً ٢ ٣ » . أما من الناحية التاريخية فنجد اختلافها واضح من عهد لآخر ، حتى لقد اختلف في تقديرها في عهد عمر بن الخطاب نفسه إذ يذكر المقرئ ٤ : « إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أمراء الأجناد ألا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه الموسى وجزيتهم أربعون درهماً على أهل الورق وأربعة دنانير على أهل الذهب » .

ولعل أول محاولة لزيادة الجزية كانت في عهد معاوية إذ كتب إلى وردان عامل خراجة على مصر أن يزيد على كل رجل من القبط قيراطاً ، فعارضه في ذلك قائلًا : « كيف تزيد عليهم وفي عهدهم ألا يزاد عليهم شيء » ٥ .

وعبد العزيز بن مروان هو أول من فرض الجزية على الرهبان ، فقرر على كل راهب ديناراً ٦ .

ويذكر ابن ممان ٧ أن الجزية في العهد الأيوبي كانت على ثلاث طبقات « عالية ومبلغها أربعة دنانير وسدس ووسطى ومبلغها ديناران وقيراطان وسفلى ومبلغها دينار

---

(١) المرجع السابق ص ٨٢

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٢٦-١٢٨

(٣) ويقول الدكتور بتلر : وهذا أمر لا يأباه العقل ولا يرى فيه ظلماً غير أنه كان بلا شك عرضة لأن يفسد . وقد تطرق إليه الفساد فمكن الحكام أن يزيدوا مقدار الجزية ويمزقوا بذلك عهد الصلح » .

(٤) الخطط ج ١ ص ٧٦ . ويقول بتلر « فتح العرب لمصر » ص ٣٩٥ هامش (١) : ولكن يلوح أن هذا التقسيم غير مدرج .

(٥) الخطط ج ١ ص ٧٩

(٦) » » » ٢٩٢

(٧) قوانين الدواوين ص ٣٠٧

واحد وثلاث وربع وجبتين ، ويضاف إلى كل جزية درهمان وربع عن رسم المشد  
والمستخدمين .

وانخفضت في عهد المماليك حتى صار أعلاها ٢٥ درهماً وأدناها عشرة دراهم ١ .  
وكانت جزية البلاد الداخلة ضمن إقطاعات تذهب لصاحب الإقطاع ١ .

والمفروض أن الجزية تسقط عن أهل الذمة إذا اعتنقوا الإسلام ليحل محلها الزكاة ،  
ولكن بعض خلفاء بني أمية ظلوا يفرضون الجزية على من أسلم إلى أن أبطلها عمر بن عبد  
العزیز وقال قوله المشهودة : « إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جايياً » .

أما وقت تحصيل الجزية فكان في رأس كل عام هجري أى في شهر المحرم ، وإن  
حصلت في بعض العهود في ذى الحجة ٢ وفي البعض الآخر في رمضان كما حدث في  
عهد المماليك ٣ . هذا ويقول المقرئى ٤ : « إن بعض الكتاب القدامى كانوا يرون  
وجوب الجزية مشاهرة ، وفائدته فيمن أسلم أومات أثناء الحول فإنهم كانوا يلزمونه  
بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو وفاته » .

أما الخراج أو ضريبة الأرض فتختلف اختلافاً جوهرياً عن الجزية للأسباب الآتية :

- أ - أنه بينما الجزية مفروضة على الرعوس فالخراج مقرر على الأرض .
- ب - الجزية محددة في كتاب الصلح أما الخراج فيتوقف على خصب الأرض  
ونوع الزرع ، والمساحة المترعة ، كما يتحدد مقدار الخراج على ما يراه  
الحاكم نفسه .

ولذلك يقول الماوردى : « الجزية نص والخراج اجتهاد » ٥ .

---

(١) القلقشنلى . صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢-٤٦٣

(٢) ابن مائى قوانين الدواوين ص ٣٠٧

(٣) القلقشنلى المرجع السابق ج ٣ ص ٤٦٢ فيقول القلقشنلى « أما الآن فقد نقصت  
( أى الجزية ) حتى صار أعلاها ٢٥ درهماً وأدناها عشرة دراهم ولكنها صارت تستأدى معجلة  
في شهر رمضان . وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بلداتها فإن جزية أهل  
الذمة في كل بلد تكون لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره تجرى مجرى مال ذلك الإقطاع وإن كانت  
تلك البلد جارية في بعض الدواوين السلطانية كان يتحصل من الجزية من أهل الذمة بها جارية في  
ذلك الديوان .

(٤) الخطط ج ١ ص ١٠٦

(٥) الأحكام السلطانية ص ١٢٦



ج - تسقط الجزية شرعاً إذا اعتنق صاحبها الإسلام ، أما الخراج فلا يسقط عن الأرض سواء كانت في يد مسلم أو ذمي .

د - تدفع الجزية مالاً أما الخراج فيمكن سداده عيناً أو مالاً .

هـ - وتحصل الجزية في أول كل عام ، أما الخراج فيحصل على أقساط تبعاً لاختلاف المحاصيل .

ومع هذه الفروق الواضحة كان من العسير في مبدأ الأمر التفرقة بين الجزية والخراج فكانت كل من اللفظتين تؤدي معنى واحداً . فابن عبد الحكم يذكر ١ : « إن صاحب أخنا قدم على عمرو بن العاص فقال أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر لها ، فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة لو أعطيتني من الركن إلى السقف ما أخبرتك إنما أنتم خزائن لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم » . ولما كان مقدار الجزية محدداً في كتاب الصلح فالذي لاشك فيه أن صاحب أخنا يعني بالجزية هنا خراج الأرض . ولم تحدث التفرقة بين نوعي الضرائب من جزية وخراج إلا في أواخر عهد الأمويين ٢ .

ولما فتح عمرو بن العاص مصر صارت الأرض فيئاً للمسلمين وملكاً للدولة ٣ ، إلا أنهم أبقوها في يد أصحابها على أن يدفعوا خراجها على ما كان عليه الأمر في عهد الرومان ، فيروي ابن عبد الحكم ٤ : « كان عمرو بن العاص لما استوسق له الأمر أقر قبضتها على جباية الروم » .

ونهى العرب نهياً شديداً عن اتخاذ الزرع معاشاً إذ إن سياسة عمر بن الخطاب بقاء العرب في رباط لا يشغلهم شيء عن الجهاد لذلك « أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية ( إن عطاءهم قائم وإن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون ) ٥ » .

وكان في كل قرية لجنة من أهلها مهمتها توزيع الضريبة المفروضة على القرية ، فبعد أن ينحصروا جزءاً من الأرض للمنافع العامة كالكنائس والجوامع وجزءاً آخر لضيفة المسلمين ونزول السلطان ، يوزعون الضريبة المفروضة على ما بقي من الأرض وعلى الصنائع الموجودين بالقرية وعلى أي جالية إن وجدت ٤ .

---

(١) فتوح مصر ص ١٥٤

(٢) فيليب حتى « تاريخ العرب » ترجمة محمد مبروك نافع ج ٢ ص ٢١٥

(٣) ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ١٥٤ - المقاسي « أحسن التقاسيم » ص ٢١٢

(٤) المرجع السابق ص ١٥٢

(٥) ابن عبد الحكم المرجع السابق ص ١٦٢

ولكن سياسة عمر الخاصة بتحريم الزراعة على العرب لم يكتب لها البقاء طويلاً ،  
إذ إن عثمان بن عفان سمح لأبناء العرب أن يملكوا الأرض في الأقاليم المفتوحة حديثاً .  
كما وزع بعض الإقطاعات على أقاربه والمقرين إليه ١ .

وانفتح باب الإباحة للعرب بامتلاك الأرض على مصراعيه في عهد الأمويين وأخذ  
عدد العرب المقيمين في الأرياف يزداد عاماً بعد عام حتى كانت سنة ( ٢١٨ هـ - ٨٣١ م )  
عندما ثار الأقباط في عهد المأمون وإخماده لثورتهم ، غلب المسلمون الأقباط على الأرض  
وامتلكوها منهم واندمجوا مع أهلها الذين أسلموا وصاهروهم واختلطت أنسابهم ٢ .

وأمام هذا التطور الجديد ظهر نظام جديد للخراج ، فقد قسمت البلاد إلى مناطق  
أو صفقات تطرح في مزاد علني كل أربع سنوات في تاريخ معين فيتزايد عليها من يرغب  
في ذلك « من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم » ٣ .

ونذكر هنا ما يقوله المقرئ في هذا الصدد ٢ : « وكان من خير أراضي مصر  
بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشاً وكسباً وانقياد  
جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات ،  
إن متولى خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص ٤ من القسطنطينية في الوقت  
الذي تنهياً فيه قبالة الأراضي ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادي  
على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج يكتبون ما ينتهي إليه  
مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس . وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع  
سنين لأجل الظماً والاستبحار وغير ذلك ، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان  
يتقبل أرضاً وضمها إلى ناحيته فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه  
وأهله ومن يتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج في إبانته على أقساط . ويحسب له من  
مبلغ قبالة وضمائه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها  
بضرائب مقدرة في ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان

---

(١) فيليب حتى المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٢

(٢) المقرئ الخطط ج ١ ص ٨٢ ، ج ٢ ص ٢٩٢ - انظر أيضاً .. في مصر الإسلامية

ص ١١ .

(٣) ابن حوقل « صورة الأرض » ص ١٦٣ - المقرئ الخطط ج ١ ص ٨٥

(٤) نقل ديوان الخراج بعد ذلك إلى مسجد ابن طولون وظل حتى عهد العزيز بالله الفاطمي

فنقل إلى دار الوزير يعقوب ابن كلس ثم نقل إلى القصر بعد وفاة الوزير وظل حتى آخر الدولة

( المقرئ الخطط ج ١ ص ٨٢ ) .

والمقبولين ويقال لما تأخر من مال الخراج البواقي وكانت الولاة تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة ... الخ » .

وظل ذلك متبعاً في عهد الدولة الفاطمية إذ ينقل المقرئى ١ عن ابن زولاق :  
« ولست عشر بقيت من المحرم سنة ٣٦٣ قلد المعز لدين الله الخراج ووجوه الأموال وغير ذلك يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، وجلسا في هذا اليوم في دار الإمارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال وحضر الناس للقبالات ، وطلبوا البقايا من الأموال مما على المالكين والمقبولين والعمال » .

وفي وزارة الأفضل بعد أن رآك البلاد سنة ٥٠١ هـ امتدت مدة الاستغلال من أربع سنوات إلى ثلاثين سنة وأصبح أكثر الضمان من الأمراء والأجناد ٢ .

ولما خلفه المأمون البطائحي رأى أن ضامن أى أرض لا يأمن أن يزيد عليه آخر فتتزع منه قبل انقضاء مدة العقد ، فأبطل ذلك وأقر كل ضامن على أرضه إلى أن تنتهى مدة ضمانه . مادام منفذاً لتعهداته . وتشجيعاً منه لإصلاح الأراضي البور أعفى كل مستصلح لأرض من دفع خراجها لمدة أربع سنوات . ويلاحظ أنه في ذلك العهد كثرت الأراضي الخاصة التي يمكن لأصحابها التصرف فيها بالبيع والإيجار ٣ .

وعند ما قامت الدولة الأيوبية حدث تغير جوهري فيما يختص بتوزيع الأرض فظهر ما يعرف بالإقطاع الحربى إذ رأى صلاح الدين أن يخص نفسه بقسم من البلاد ويوزع الباقي بين الأمراء والجنود كإقطاعات غير وراثية ٤ .

وظل هذا النظام متبعاً فيما بعد حتى نهاية العصر المملوكى ٥ مع اختلاف فيما يخص السلطان به نفسه زيادة أو نقصاً ، إذ كان المعمول به تقسيم البلاد إلى ٢٤ قسماً أو قيراطاً منها أربعة للسلطان وعشرة للأمراء وعشرة للأجناد ، ولكن بعض السلاطين كانوا ، يزيدون في إقطاعهم كما حدث في عهد السلطان المنصور لاجين (٦٩٦-٦٩٨ هـ - ١٢٩٦-١٢٩٩ م) إذ خص نفسه بثلاثة عشر قيراطاً . ومنذ عهد الناصر محمد بن قلاوون حتى آخر عهد الظاهر برقوق على الأقل صار إقطاع السلطان عشرة قراريط .

---

(١) الخطط ج ١ ص ٨٢

(٢) المقرئى الخطط ج ١ ص ٨٢-٨٥

(٣) Poper ; op. cit. p. 74

(٤) هذا وإن ظلت الأرض تعطى كإيجار لمن يزرعها من قبل المقطعين - انظر ابن شاهين « زبدة كشف الممالك » ص ١٣٠ - القلقشندي صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٢

ويقسم المقریزی ١ أرض مصر في أيامه إلى سبعة أقسام : -

- ١ - قسم يجري في ديوان السلطان .
  - ب - قسم يقطع للأمراء والأجناد .
  - ج - قسم وقف على الجوامع والمدارس والحوادث ٢ وعلى جهات البر وذراري واقفي تلك الأراضي وعتقائهم .
  - د - قسم رابع يقال له الأقباس ، وهي أرض توقف على أشخاص معينين .
  - هـ - وهناك أراض صارت ملكاً خاصاً يتصرف فيها صاحبها كيف يشاء ، وهذه الأرض انتهت ملكيتها إلى أصحابها إما لشرائها من بيت المال أو أن تكون هبة من السلطان أو شراء من شخص وهبت له أو لأسلافه من قبل .
  - و - قسم سادس يعجز عن زراعته لسبب ما فيكون مرعى للماشية أو ينبت به الحطب .
  - ز - أما القسم السابع فهو الأرض البور مما لا يصلها ماء النيل فلا تزرع بتاتاً . وكانت بعض أراضي هذا القسم تزرع من قبل ثم خربت لإهمال أمرها .
- وفي العهد العثماني أصبح السلطان مالك الأرض وظهر نظام الالتزام والمليتم الذي حل محل أصحاب الإقطاعات وحصلي ضرائب السلطان ، فكان يشتري من الحكومة حق تحصيل الضرائب .
- ومقدار الضرائب يختلف - كما سبق القول - حسب الظروف والأحوال ومن عهد آخر بل نجد المؤلفين العرب يختلفون في تقدير خراج فترة معينة كالفترة التي أعقبت الفتح مثلاً ، فابن عبد الحكم ٣ يقدر الضريبة التي قررها عمر بن الخطاب في ولاية عمرو بنصف إردب قمح وويتين شعير لكل فدان . أما البلاذري ٤ فيذكر أنه فرض على كل ذى أرض « ثلاثة أراذب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقاً للمسلمين » ثم يقول إنه استبدل بالحنطة والزيت والخل والعسل دينارين ، ومن المشكوك فيه أن هذا القدر فرض على كل فدان من الأرض .
- ويروى اليعقوبي رواية ثالثة فيقول ٥ إن عمرا فرض على كل مائة إردب إردبين . فكان الضريبة فرضت على كمية المحصول وليست على المساحة .

(١) الخطط ج ١ ص ٩٧

(٢) الحاتك - العاجز والحوادث ملاجيء العجزة .

(٣) « فتوح مصر » ص ١٥٣

(٤) فتوح البلدان ص ٢١٦ ، ٢١٨ .

(٥) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٧٧



وإذا رجحنا تقدير ابن عبد الحكم واتخذناه أساساً لضريبة الأرض عند الفتح ، نجد أن هذه الضريبة لم تثبت فيما بعد عند حد معين بل أخذت تتغير تبعاً لما يراه الحاكم نفسه فيذكر ابن حوقل ١ أنه كان مقرراً على كل فدان قبل فتح جوهر لمصر ، حوالى ثلاثة دنانير ونصف ولو أن المقرئى ٢ يذكر أنه في عهد المأمون وغيره كان « المقبوض عن الفدان دينارين » فلما فتح جوهر مصر جعل على كل فدان سبعة دنانير ٣ .

ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ أصبح كل محصول يدفع عنه قطعة مقررة حسب نوعه ، ففدان القمح أو الشعير مثلاً كان المقرر عليه حتى نهاية الدولة الفاطمية ثلاثة أراذب ٤ .

وظل ذلك متبعاً أيضاً في الدولة الأيوبية ، وقد أورد ابن مماتي ٥ جدولاً بالخراج المقرر على كل زراعة ، ومنه يظهر أن الخراج كان يؤخذ عيناً ومالاً .

وفي عهد المماليك اتبع نفس النظام مع اختلاف يسير إذ أصبح خراج الصعيد غلات وخراج الوجه البحرى أغلبه نقود . كما أن الخراج أخذ في الزيادة المطردة بعد سنة ٦٥٧٩٠ .

وتبدأ السنة الخراجية عند وفاء النيل ، وقد جرى العرف على أن الخراج يستحق إذا بلغ النيل في مقياس الروضة ستة عشر ذراعاً وظل ذلك متبعاً حتى بعد أن أصبح ذلك القدر لا يكفي لرى الأراضى .

وكان الخراج يحصل على أقساط على مدار السنة فيذكر ابن حوقل ٧ أنه في طوبة يطالب المتقبلين بدفع ثمن الخراج المفروض على ما تحت أيديهم من الأرض وفي أمشير يستكمل دفع الربع وفي برمهاة يدفع الثمن الثالث ويتم دفع نصف الخراج في برمودة ، والربع الثالث يدفع في أبيب ، وفي مسرى يغلق الخراج .

ولكن المقرئى يذكر أن الخراج يحصل على ثلاثة أقساط متساوية كل أربعة شهور

---

(١) صورة الأرض ص ١٦٢

(٢) الخطط ج ١ ص ٩٩ - وانظر كذلك ابن حوقل المرجع السابق ص ١٣٦

(٣) ابن حوقل المرجع السابق ص ١٦٢

(٤) ابن مماتي « قوانين الدواوين » ص ٢٥٨ - كذلك المقرئى الخطط ج ١ ص ٨٣-٨٤

إذ يذكر البواقى التى سامح فيها المأمون البطائحي ومنها يتبين أن الخراج كان يفرض على كل محصول أو إنتاج .

(٥) ابن مماتي المرجع السابق ص ٢٥٨ وما بعدها .

(٦) القلقشندي صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٢ وما بعدها .

(٧) المرجع السابق ص ١٣٦

قسط وإن كان يتبقى لدى الضمان والمتقبلين جملة بواقي مما عليهم ١ .

وأجمع الكتاب العرب على أن النيل إذا لم يصل إلى الذراع السادس عشر فإن ذلك يعنى نقص خراج السلطان ، وإن ذلك مقرر فى كتاب العهد بين عمرو والمصريين إذ نص فيه « وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم ( أى المصريين ) بقدر ذلك ٢ » .

ومع ذلك لم تذكر لنا المراجع العربية ما يؤيد أن ذلك حدث فى سنة ما ٣ . إلا أنه حدث فى بعض العهود إلغاء لضرائب متأخرة كما حصل فى وزارة المأمون البطائحي ٤ . كما أجل دفع الضريبة المقررة إلى وقت آخر نتيجة قصور النيل ، فيذكر الجبرتي ٥ فى حوادث سنة ١١٠٦ هـ « وقصر مد النيل تلك السنة وهبط بسرعة فشرقت الأراضى ووقع الغلاء والفناء وفى هذه السنة وقعت مصالحات فى المال الميرى بسبب الرى والشراقي ٤ » .

ثم يقول : « وفى شوال سنة ( ١١٠٦ هـ - ١٦٩٥ م ) أرسل الباشا إلى مراد بك الدفتر دار يعمل جمعية فى بيته بسبب غلال الأنبار ، فاجتمعوا وتشاوروا فى ذلك فوقع التوافق أن البلاد الشراقي تبقى غلالها إلى العام القابل وأما الرى فيدفع ملتزموها ما عليهم » .

ولقد استحدثت الولاة مصادر أخرى للدخل غير الخراج والجزية ، ففرضوا ضرائب كثيرة مختلفة عرفت أولاً باسم المرافق والمعاون ثم عرفت فيما بعد بالمال الهلالى والمكوس ٦ . وكان أحمد ابن المدبر أول من فرض هذه الضرائب التى أخذت تزداد حيناً وتقل حيناً أو تلغى كلية فى بعض العهود كما حدث فى عهد ابن طولون وصلاح الدين .

ثالثاً - الروك ٧ : -

ذكرنا أن المصريين كانوا يقسمون الأرض إلى مساحات وحدتها الفدان . ويقول

---

(١) الخطط ج ١ ص ٨٦

(٢) الطبرى تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٢٥٨٨

٣ - يرى Popper أن الاحتمال كبير فى عدم وجود مثل هذا القانون .

Popper ; op. cit. p. 82

(٤) المقرئى الخطط ج ١ ص ٨٢-٨٣

(٥) الجبرتي تاريخ الجبرتي ج ١ ص ٢٥-٢٦

(٦) المقرئى الخطط ج ١ ص ١٠٣-١٠٦ - ويذكر أن الملك الناصر محمد بن قلاوون ألغى ١٨ ضريبة من هذه المكوس . كما يذكر أن مقدار هذه الضرائب فى أيامه هو كانت تبلغ نيفاً وسبعين ألف درهم وأن أكثرها كانت يذهب إلى جيوب الأقباط .

(٧) جاء فى قوانين الدواوين لابن عاتق - فى فهرس الاصطلاحات ص ٤٥٥ عن الروك ما يلى : كلمة من أصل قبلى يقصد بها مسح الأرض وتقدير خراجها .

استرابون ١ : « لقد قامت الحاجة إلى هذا التقسيم المضبوط الدقيق من جراء اضطراب الحدود المستمر الذى يحدثه النيل أثناء فيضانه ، إذ أنه يزيل ويضيف ويغير المظاهر الخارجية ويختفى سائر العلامات التى تحدد بها الأرض الخاصة من أرض الآخرين ، فمن الضرورى إذن أن يعاد مسح الأرض مرة بعد مرة . ومن هنا نشأ علم المساحة فيما يقولون » .

إذا استدعت الظروف إلى مسح الأرض فى فترات مختلفة ، فالنيل — كما ذكر استرابون — عند ما يغمرها يزيل الحدود ويغير المظاهر . كما أنه قد لا يغمر الأرض كلها فيبور مالم يصله الماء ، أو يظل الماء فى الأرض المنخفضة بعد نزوله فلا تزرع ، كما أنه فى بعض الحالات قد يصل ارتفاع النيل إلى حد يغمر معه أرضاً لم يكن يصلها وبذلك تدخل فى نطاق الأرض ، الزراعية . فكان من اللازم معرفة مساحة الأرض المزروعة من آن لآخر .

١ ولم يبين لنا استرابون نظام مسح الأرض ووقته ، وهل كان ذلك يحدث سنوياً أو فى فترات منتظمة أو كلما دعت الحاجة دون التقيد بوقت محدد ؟ .

أما فى العصر الإسلامى فقد ذكر المقرئى ٢ أن البلاد كانت تراك مرة كل ثلاثين عاماً لإجراء التعديل اللازم فى القيمة الإيجارية للأرض ولرفع غبن أو تقرير زيادة . وإلى جانب هذه المساحة الكلية كان هناك مساحات جزئية تم فى بشنس من كل عام ٣ :

١ وبالرغم مما لروك الأرض من أهمية فى تقدير الخراج وإعطاء صورة حقيقية لحالة البلد الاقتصادية ، فإن المراجع العربية لم تذكر إلا عدداً ضئيلاً من هذه المساحات وهى حسب تسلسلها التاريخى : —

١ — يقول ابن عبد الحكم ٤ : « لما ولى ابن رفاعه مصر خرج ليحصى عدة أهلها وينظر فى تعديل الخراج عليهم ، فأقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ومعه جماعة من الأعوان والكتاب يكفونه ذلك يجد وتشمير ، وثلاثة أشهر بأسفل الأرض ، فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يحصى منها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية » .

وابن عبد الحكم لم يحدد من الذى راك البلاد ، عبد الملك بن رفاعه أم أخوه الوليد والاثنان قد وليا مصر . كما أنه لم يحدد تاريخاً لذلك .

---

(١) « استرابون فى مصر » الدكتور وهيب كامل ص ٤٦ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٨٢ .

(٣) ابن حوقل — صورة الأرض ص ١٢٦ .

(٤) فتوح مصر ص ١٥٦ .

في حين أن المقرئ الذي ينقل عن ابن عبد الحكم ، يذكر ١ أن الوليد هو صاحب هذا الروك ولكنه لم يحدد تاريخاً هو الآخر.

فإذا رجعنا إلى كتاب « الولاة والقضاة » للكندى نراه يذكر ٢ أن عبد الملك كان والياً على مصر في المدة من جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ إلى صفر سنة ٩٩ هـ ، وكان أخوه الوليد على شرطة مصر ثم عزل سنة ٩٧ هـ .

وفي سنة ١٠٩ هـ ولي الوليد بن رفاعه مصر من قبل هشام على صلاتها وظل بها حتى توفي سنة ١١٧ هـ . وفي ولايته هذه ريكث البلاد على يد ابن الحبحاب عامل الخراج — وهو الروك الذي سنذكره فيما بعد — .

وعلى ذلك فلما أن يكون ابن عبد الحكم يقصد روك ابن الحبحاب الذي تم في ولاية الوليد . أو أن يكون عبد الملك بن رفاعه قد رآه في ولايته ويكون قد تم في المدة من سنة ٩٦ إلى سنة ٩٨ هـ .

٢ — على يد ابن الحبحاب عامل خراج مصر في عهد هشام بن عبد الملك ٤ . ولم يذكر لنا الكتاب العرب التاريخ الذي حدث فيه هذا الروك ، إلا أنه مما ذكره الكندى نرجح أن ذلك حدث حوالى سنة ١٠٦ هـ أو سنة ١٠٧ هـ ( ٧٢٤ أو ٧٢٥ م ) ، فقد ذكر الكندى ٦ : « كتب عبد الله بن الحبحاب صاحب خراجها إلى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتل الزيادة فزاد على كل دينار قيراطاً فانتقضت كورة تنو وتمى وقريط وطرايبه وعامة الخوف الشرقى .... وكان انتقاضهم في سنة ١٠٧ هـ » .

٣ — يذكر الكندى ٧ والمقرئ ٨ أنه في خلافة هارون الرشيد خرج أهل

---

(١) الخطط ج ١ ص ٧٤

(٢) صفحات ٦٦ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩

(٣) يرى عمر طوسون ، مالية مصر ص ٢١٣ أن هذا الروك تم حوالى سنة ٩٧ هـ ( ٧١٥ م )

(٤) انظر دمشق « نخبة الدهر » ص ١٠٩ — نویری « نهاية الأرب » ج ١ ص ٢٦٦ —

مقرئ الخطط ج ١ ص ٧٥ ، ٩٩ السيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٧ .

(٥) يذكر عمر طوسون « مالية مصر » ص ١٩٦ أن هذا الروك تم حوالى سنة ١١٠ هـ

( ٧٢٩ م )

(٦) الولاة والقضاة من ٧٣-٧٤ .

(٧) المرجع السابق ص ١٤٠

(٨) الخطط ج ١ ص ٨٠



الحوف على الليث بن الفضل البيودى أمير مصر فى سنة (١٨٦ هـ - ٨٠٢ م) ، وذلك لأنه بعث بمساح بمسحون عليهم أراضى زرعهم فانتقصوا من القصبة أصابع .  
وقد يكون الليث قد قام بمسح البلاد كلها فى هذا التاريخ .

٤ - على يد أحمد بن المدبر ١ .

يقول الدمشقى ٢ : « واعتبر أحمد بن المدبر ما يصلح تزرع بمصر وقت ولايته فوجده ٢٤ ألف فدان والباقي قد استبحر وتلف » .

٥ - فى ولاية أنوجور بن الإخشيد حوالى سنة (٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م) . فقد ذكر المقرئى ٣ : « وذكر من له معرفة بالخراج وأمر الديوان أنه وقف على جريدة عتيقة بخط ابن عيسى بقطر بن شفا الكاتب القبطى المعروف بالبولس متولى خراج مصر للدولة الإخشيدية يشتمل على ذكر كور مصر وقراها إلى سنة ٣٤٥ أن قرى مصر بالصعيدين وأسفل الأرض ٢٣٩٥ قرية منها بالصعيد ٩٥٦ قرية وبأسفل الأرض ١٤٣٩ قرية ، وهذا عددها فى الوقت الذى جردت فيه الجرايد المذكورة » .

٦ - فى وزارة الأفضل وزير الأمر الفاطمى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧-١١٠٨ م) إذ إنه حل جميع الإقطاعات وراك البلاد ٤ .

٧ - فى وزارة المأمون البطائنى سنة (٥١٥ هـ - ١١٢١ م) وفى خلافة الأمر أيضاً .  
فيقول المقرئى ٥ : « ووصلت (أى المأمون) المكاتب من الوالى والمشارف ومن كان ندب صحبته لكشف الأراضى والسواقى ومساحتها متضمنة ما أظهره الكشف وأوضحته المساحة على من بيده السواقى وهم عدة كثيرة » .

٨ - وفى عهد صلاح الدين الأيوبى ٦ ريكتم البلاد سنة (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م)

---

(١) يذكر المقرئى أن ابن المدبر ولى خراج مصر بعد سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) ولكن ابن إياس « بدائع الزهور » م . أميرية يذكر أن توليته كانت سنة ٢٥٤ هـ .  
(٢) نجة الدهر ص ١٠٩ . ويحدد عمر طوسون هذا الروك سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م) فى خلافة المعتز العباسى .

(٣) الخطط ج ١ ص ٧٣ - وانظر ياقوت « معجم البلدان » ج ٤ ص ٥٤٨-٥٤٩ .

(٤) الخطط ج ١ ص ٨٣

(٥) الخطط ج ١ ص ٨٤

(٦) أول من أشار إلى الروك الأفضلى والروك الصلاحى هو الدكتور جمال الدين الشيال أنظر مقالة الروك فى مجلة الثقافة .

فابن ممانى يقول ١ عن قطيعة خراج القمع : « كان يوجب عن ذلك إلى آخر سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) عن كل فدان واحد ثلاثة أراذب ، ثم تقرر عند المساحة في سنة ٥٧٢ هـ أردبين ونصف » .

٩ - الروك الحسامى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) في سلطنة المنصور حسام الدين لاجين وجاء في الخطط للمقريزى ٢ وتاريخ ابن إياس ٣ أن هذا السلطان رآه البلاد وخص الأمراء وأبلجند بأحد عشر قسماً وأفرد لنفسه الثلاث عشرة الباقية .

١٠ - الروك الناصرى . وقد تناوله المقريزى بشيء من التفصيل ، فيذكر ٢ أن الملك الناصر محمد بن قلاوون رأى في سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) أن إقطاعات الممالك البرجية كثيرة ، ففكر هو والقاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش أن يروك البلاد وتقسمها إلى إقطاعات . فقسم البلاد إلى مناطق أرسل إلى كل منطقة منها أميرين ومعهما كاتب من كتاب الديوان ومستوفين وقيامين ليتولوا مسحها ومعرفة ما تحويه من أرض مترعة وبور ومستبحرة وعبرة كل ناحية . وانتهى روك البلاد في مدة ٧٥ يوماً وقدمت الكشوف « بحال جميع ضبايع أرض مصر ومساحتها وعبرة أراضيها وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة وصنف » .

وقد خص السلطان نفسه بعشرة قراريط ووزع الأربعة عشر الباقية على الأمراء والأجناد في المحرم سنة (٧١٦ هـ - ١٣١٦ م) ، ثم قرر للمتقدمين في السن والعجزة من الجند رواتب بدلاً من الإقطاعات .

١١ - روك الملك الأشرف شعبان ٤ في شوال سنة (٧٧٧ هـ مارس ١٣٧٦ م) وقد أفرد له ابن الجيعان كتاباً خاصاً أسماه « التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية » ذكر فيه أقاليم مصر وما بها من بلدان مرتبة على حروف المعجم وعبرة كل بلد .

وقد اختلفت الآراء بالنسبة لهذا الروك ، فالبعض ٥ يؤكد أنه تم فعلاً في عهد

---

(١) قوانين الدواوين ص ٢٥٨ وانظر القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٥٢ - المقريزى الخطط ج ١ ص ١٠١ .

(٢) ج ١ ص ٨٨ .

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ .

(٤) بويج بالسلطنة في شعبان سنة ٨٧٦٤ وقتل في ثالث ذى القعدة سنة ٧٧٨ هـ ابن إياس

بدائع الزهور ج ١ ص ٢١٢ ، ٢٣٤ .

(٥) أمين باشا سامى « تقويم النيل المقدمة » ج ١ ص ١٢٦ .

الملك الأشرف ، بينما يرى آخرون ١ أن هذا الروك هو الروك الناصري وخجثهم ما ذكره المقرئى ٢ من أن الروك الناصري ظل العمل به إلى ما بعد سنة ( ٧٨٤ هـ - ١٣٨٣ م ) .

وعلى كل فليس هناك ما يننى أو يؤكد نسبة هذا الروك للسلطان شعبان ، ولكن لما كان ابن الجيعان مستوفياً لديوان الجيش فلا يبعد أن عثر بين الأوراق الرسمية ما يفيد بأن الأشرف شعبان قام بروك البلاد .

١٢ - فى عهد الملك الأشرف برسبى ( ٨٢٥ - ٨٤١ هـ - ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م ) فيذكر قاضى المترلة مؤلف كتاب « عجائب الأخبار عن مصر الأمصار ٣ » . أمر الملك الأشرف برسبى كتاب الدواوين والجيش المصرية بضبط وإحصاء قرى مصر كلها قبلها وبحريها فكانت ألفين ومائتين وسبعين قرية .

١٣ - وفى العصر العثمانى ريكـت البلاد سنة ( ٩٣٣ هـ - ١٥٢٧ م ) فى خلافة السلطان سليمان ، إذ ذكر الإسحاق ٤ عند ذكر ولاية سليمان باشا الخادم « وفى سنة ٩٣٣ عين الأمير كيوان لمساحة قرى مصر وضبط أراضيها كل إقليم على حدته من الأتبان السلطانية والرزق والأوقاف والإقطاعات وغير ذلك ، وكتب بذلك دفاتر محررة ووضعت بديوان مصر المحروسة وهى معمول عليها الآن وشار إليها وتسمى دفاتر تـرايـع سنة ٩٣٣ » .

أى أن هذا الروك ظل معمولاً به حتى سنة ١٥٣٣ هـ على الأقل وهى سنة ٥ تأليف الإسحاقى لكتابه .

وبدراسة هذه المساحات على قلتها نخرج بما يلى :

- أ - أن اثنتين من هذه المساحات تمت فى عهد الأمويين وأربعة فى عهد العباسيين واثنتين فى العهد الفاطمى وأربعاً فى زمن المماليك وواحدة فى العصر العثمانى .
- ب - أنه لم يكن هناك فترة محددة بين كل روكين ، وأن فترة الثلاثين عاماً التى ذكرها

---

(١) عمر طوسون مالية مصر ص ٢٥٠ الأستاذ موريتز Moritz ناشر كتاب ابن الجيعان وذكر ذلك فى المقدمة الفرنسية للكتاب .

(٢) المخطوط ج ١ ص ٩١

(٣) نسخة الأزهر ص ٧ أ-٧ ب

(٤) « أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ص ١٦٥

(٥) مركيس معجم المطبوعات العربية ج ٣ ص ٤٣١

المقریزی لم یؤخذ بها . فالمدّة بین الدوکیّن الأول والثانی حوالی ۱۳ عاماً والفترة بین الروکین الأفضلی والمأمونی ۱۴ سنة و بین الروک الحسامی والروک الناصری ۱۸ سنة هذا مع فرض عدم مسح الأرض فی هذه الفترات .

إلى جانب ذلك یذكر المقریزی أن روک الملك الناصر ظل العمل به إلى ما بعد سنة ۷۸۴ هـ ، أى أن البلاد ظلت أكثر من ۶۹ عاماً بدون أن تراك . كما ذکر الإسحاق أن روک سنة ۹۳۳ هـ ظل العمل به إلى زمنه أى سنة ۱۰۳۳ هـ أى مائة عام لم تمسح فیها البلاد .

(ح) بعض هذه المساحات أعطتنا صورة للمظالم التي كان يتعرض لها أهل البلاد من وقت لآخر . فالروک الناصری یبین لنا كثيراً من المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على الشعب وألغاهما الناصر محمد بن قلاوون وقد عدد منها المقریزی ۱ أكثر من ۱۸ ضريبة كما یتضح أيضاً أن إقطاعات الأمراء كانت ملجأ للصوص وقطاع الطرق یجدون فیها الأمن مقابل فرض سطوتهم على الأهالی لصالح صاحب الإقطاع .

(د) یمکن أن نتابع الحالة الاقتصادية وتدهورها بمصر ، فأحمد بن المدبر وجد أن كثيراً من أرض مصر لم یعد صالحاً للزراعة .

كما أنه بالمقارنة بین روک ابن رفاعه والروک الذي تم فی عهد الإخشیدیین وروک الملك الأشرف برسبای یمظهر أن عدد القرى قد نقص من عشرة آلاف أو أكثر إلى ۲۳۹۵ ثم إلى ۲۲۷۰ قرية . وحتى لو أخذنا هذه الأرقام بحذر إلا أنها تدل على خراب كثير من القرى التي كانت عامرة .

رابعاً - المجاعات :

یقول المقدسی عن مصر « هذا إقليم إذا أقبل فلا تسأل عن خصبه ورخصه وإذا أجذب فنعوذ بالله من قحطه بمد سبع سنين حتی يأكلون الكلاب ویقع فیهم الوباء » ۲ .

وهی صورة صادقة لما تكون علیه فی الحالین ، فی خصبها تكون أشبه بالجنة والفردوس فإذا أصابها القحط فالمجاعة والوباء حتی لیاكل بعضهم البعض بعد ألا یجدوا ما يأكلونه . والسبب الأساسي فی حدوث المجاعات التي تعرضت لها البلاد هو قصور النيل وعدم بلوغه الزیادة اللازمة لری الأرض وغمرها بالماء .

ولكن إلى جانب ذلك كانت هناك عوامل مساعدة أدت إلى توالی المجاعات

(۱) الخطط ج ۱ ص ۸۸-۸۹

(۲) أحسن للتقاسیم ص ۲۰۲



وتعددها في أوقات متقاربة ، منها ، إهمال مرافق البلاد كالترع والجسور والمظالم التي استحدثها الحكام والمغارم التي تعرض لها الشعب وزيادة الضرائب على الأرض ، كما احتكرت الدولة الأقوات وعرضتها على الناس بأعلى الأثمان . سبب آخر هو الرشوة والمحسوبية في الوصول إلى مناصب الدولة الدينية والإدارية « فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة » ١ .

وفي ذلك يقول المقرئزي : « إن ما بالناس سوى تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد » .

وأول مجاعة تعرضت لها مصر بعد الفتح العربي كانت سنة ( ٨٨٧ - ٧٠٦ م ) في ولاية عبد الله بن مروان<sup>٢</sup> ويقول الكندي<sup>٣</sup> : « وفي ولايته غلت الأسعار بمصر وترعت فتشائم المصريون وهي أول شدة رأوها وزعموا أنه ارتشى وكثروا عليه القول وسموه مكيسا . وفيه قال زرعة بن سعد الله بن أبي زمزمة الحشني عندما قدم عبد الله إلى أخيه الوليد سنة ٨٨ .

إذا سار عبد الله من مصر خارجا فلا رجعت تلك البغال الخوارج

أتى مصر والمكيال واف مغربل فما سار حتى سار والمذ فالج

ثم أخذت المجاعات تتوالى متتابعة بعد وفاة رأس الأسرة الإخشيدية . محمد بن طغج وأخذ الغلاء يمتد السنين الطوال . ولعل الدولة الفاطمية هي التي ضربت الرقم القياسي في عدد ما حدث فيها من مجاعات . كذلك تعرضت البلاد في العهد المملوكي لغلاء متتابع حتى يثس الناس واستسلموا لهذه المحن على أنها قضاء حتم خصوا به ، فيقول المقرئزي<sup>٤</sup> : « فإنه لما طال أمد هذا البلاء الممين وحل فيه بالخلق أنواع العذاب الممين ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ولا مر في زمن شبيهها وتجاوزوا الحد فقالوا لا يمكن زوالها » .

وعلى كثرة ما حدث من مجاعات ، لم يهتم المؤرخون إلا بوصف آثار الغلاءين اللذين حدثا في عهد المستنصر بالله الفاطمي والملك العادل أبي بكر بن أيوب .

أما غلاء المستنصر فقد اختلف المؤرخون في بدايته فالمقرئزي<sup>٥</sup> يبتدؤه من سنة ( ٤٥٧ هـ

---

(١) المقرئزي إغاثة الأمة ص ٤٣-٤٧

(٢) المقرئزي إغاثة الأمة ص ١١

(٣) الولاة والقضاة ص ٥٩

(٤) إغاثة الأمة ص ٣-٤

(٥) » » ص ٢٤

— ١٠٦٤ م) والسيوطي ١ سنة (٤٦٠ هـ ١٠٦٧ م) أما ابن إياس ٢ فيجعل بدايته سنة (٤٥١ هـ — ١٠٥٩ م) .

ولكن الجميع اتفقوا على تسمية هذه المجاعة « الشدة العظمى » وأنها امتدت سبع سنين ، ويصفها السيوطي ١ بقوله : « وفي سنة ٤٦٠ كان ابتداء الغلاء العظيم بمصر الذي لم يسمح بمثله في الدهور من عهد يوسف الصديق ، واشتد القحط والوباء سبع سنين متوالية بحيث أكلوا الجيف والميتات ، وأفنيت الدواب وبيع الكلب بخمسة دنانير والهر بثلاثة دنانير ونزل الوزير يوماً عن بغلته فغفل الغلام عنها لضعفه من الجوع فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها فأخذوا فصلبوا فأصبحوا وقد أكلهم الناس ٥٠١٠ . »

واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه ، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه في كل يوم بعقب من فتيت ، ولم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به إليه وهو مرة واحدة في اليوم والليلة ٣ .

والغلاء الثاني الذي وقع في عهد الملك العادل وكانت بدايته سنة (٥٩٦ هـ — ١١٩٩ م) فقد كان نتيجة انخفاض النيل الذي بلغت أقصى زيادته اثني عشر ذراعاً وإحدى وعشرين إصباعاً .

ويصف البغدادي — وكان شاهد عيان — هذه المحنة بقوله ٤ : « دخلت سنة سبع (أي ٥٩٧ هـ) مفترسة أسباب الحياة وقد يثس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع ، وانضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا في البلاد أيادي سباً واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا النبات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم تعدوا ذلك إلى أكل صغار بني آدم . »

ويقول ابن إياس ٥ : « تنهى سعر القمح في السنة الثالثة إلى مائة دينار كل إردب ولا يوجد ، ثم جاء غقيب ذلك فناء عظيم حتى مات من أهل مصر نحو الثلاثين . » وكان لهذه المحن التي تعرضت لها البلاد أثرها في الانخفاض الكبير في عدد السكان .

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٤

(٢) ابن إياس « تاريخ مصر المشهور ببداية الزهور » طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ ج ١ ص ٦٠

(٣) المقرئ — إغاثة الأمة ص ٢٥

(٤) « الإفادة والاعتبار » ص ٤٩

(٥) بدائع الزهور ج ١ ص ٧٦ .

فقد كان عددهم عند الفتح حوالى ثمانية عشر مليوناً ١ بينما أصبح عددهم فى القرن التاسع عشر الميلادى ، أى بعد اثنى عشر قرناً من الفتح ، حوالى الثلاثة ملايين ٢ . ولما كان المصرى بطبعه ملتصقاً بالأرض لا ينجذ الهجرة ، فإنه يمكن القول إن هذه النتيجة جاءت لما ابتلى به الناس من مجاعات طاحنة قضت عليهم ٣ .

خامساً : الملاحة : —

لعبت الملاحة دوراً هاماً فى نظام البلاد الاقتصادى . فمصر بلد زراعى ومحاصيلها متنوعة . والأمر يستدعى نقل هذه المحاصيل من مكان لآخر حسب الحاجة سواء داخل البلاد نفسها أو إلى الموانئ لتصديرها للخارج .

ولما كان مجرى النيل بمصر صالحاً للملاحة ، أصبح هو الطريق الرئيسى لنقل البضائع ٤ والمسافرين ، حيث إن نظام القوافل علاوة على مشاقه ومتاعبه غير عملى من الناحية الاقتصادية ٤ .

وفى زمن الفيضان عندما يغمر الماء الأرض كان الانتقال بين القرى غير ميسر إلا عن طريق القوارب وخفاف المراكب .

علاوة على أن الاتصال بين شاطئى النيل كان يتم — كما هو الحال اليوم — إما عن طريق سفن خاصة تعبر بين شاطئيه ، أو الكبارى التى لم تكن فى ذلك الحين إلا سفناً متراصة بجانب بعضها ٥ .

لذلك كان من الطبيعى أن يهتم المصريون بالملاحة وبناء السفن المختلفة ، فأنشئت على ساحل النيل بمصر ثلاث دور للصناعة تبنى فيها السفن البحرية والنيلية كما أنشئت صناعات أخرى فى الإسكندرية ودمياط ٦ . والصالحية ٧ وغيرها من المدن .

وأول صناعة أنشئت فى مصر بعد الفتح ، صناعة الروضة سنة (٥٤ هـ — ٦٧٣ م) ،

---

(١) انظر عمر طرسون « مالة مصر » ص ٢٠٩

(٢) كلوت بك « لمحة عامة إلى مصر » ج ١ ص ٣٧٧

(٣) انظر أيضاً كلوت بك المرجع السابق ج ٢ ص ٣٧٩ وما بعدها .

(٤) انظر « فى مصر الإسلامية » مقالة المواصلات فى مصر ص ٣٤ ، ص ٣٥ ، ص ٣٦

(٥) انظر المقرئى الخطط ج ١ ص ٦١

(٦) المقرئى الخطط ج ١ ص ٤٨٣ — وانظر ابن عماتى قوانين النواوين ص ٣٤٠

(٧) يقول ناصر خسرو ، سارت السفينة حتى بلغنا مدينة تسمى الصالحية وهى مدينة كثيرة

النعم والخيرات وتصنع بها سفن كثيرة حمولة كل منها مائتا خروار ( حمل حمار ) سفر نامة ص ٤١

ثم أنشأ محمد بن طغج الإخشيد صناعة القسطاط سنة (٨٣٢٥ - ٩٣٦ م ) ، أما الصناعة الثالثة فقد أنشأها المعز لدين الله أو ابنه العزيز بالمقسي ١ ٢ .

وبما ذكره ابن دقماق ٣ والمقریزی ٤ يمكن القول إن صناعة الجزيرة ظلت تعمل حتى أنشأ ابن طغج صناعة القسطاط ، فحولها إلى بستان يسمى المختار ، ولكنها أعيدت مرة أخرى في عهد الفاطميين حيث تخصصت في صناعة سفن الأسطول ، إذ يروى المقریزی ٤ نقلاً عن ابن المأمون « وكانت جميع مراكب الأساطيل ما تنشأ إلا بالصناعة التي بالجزيرة فأنكر الوزير المأمون ذلك وأمر بأن يكون إنشاء الشواني وغيرها من المراكب النيلية الديوانية بالصناعة بمصر ..... وأن يكون ما ينشأ من الحراق والشنديات في الصناعة بالجزيرة » .

كما أنه من المحتمل أن صناعة القسطاط قد لحقها الإهمال هي أيضاً ، — وربما كان لوجود صناعة المقسي يد في ذلك — ، حتى أعاد تنظيمها المأمون ابن البطاحي في خلافة الأمر ، إذ يذكر المقریزی عند التحدث عن منظرة الصناعة وأنشأ هذه المنظرة والصناعة التي هي فيها الوزير المأمون ٤ .

وقد ظلت هذه الصناعة حتى أواخر القرن السابع الهجري ، ثم حل محلها بستان ابن كيسان الذي صار يعرف في أيام المقریزی باسم بستان الطواشي ٤ .

ولاشك أنه كانت توجد صناعات غير حكومية لبناء السفن الأهلية ، وقد ساعدت الحراج الموجودة في أماكن مختلفة على توفير الأخشاب اللازمة لبناء السفن الحكومية والأهلية ٥ . التي ربطت بين أجزاء مصر المختلفة كما ربطتها بالعالم الخارجي أيضاً .

---

(١) المقریزی الخطط ج ٢ ص ١٩٥ .

(٢) وقد ظلت هذه الصناعة بالمقسي قرب الأزبكية الحالية حتى غير النيل مجراه وظهرت بولاق

Lave Poole ; The Story of Cairo p. 132

(٣) الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١٢

(٤) الخطط ج ١ ص ٤٨٢ ، ج ٢ ص ١٩٧ وانظر كذلك السيوطي « كوكب الروضة »

(٥) ذكر ابن عثاق في قوانين اللواوين ص ٣٤٤ بعض الحراج الموجودة في البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص .



ولم يعق السفن المصرية من التوغل في النيل جنوباً إلى بلاد النوبة إلا وجود الجنادل التي وقفت عقبة في سبيلها وأصبحت حداً تقف عنده كل من سفن مصر والنوبة .

وما ذكره الكتاب العرب في العصور المختلفة يعطينا صورة صادقة لما كانت عليه الملاحة في مصر من تقدم وازدهار وكثرة السفن وضخامتها .

فالمقدسي في زيارته لمصر يعبر عن دهشته لكثرة المراكب بساحل القسوط فيقول « وكنت يوماً أمشي على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة ، فقال لي رجل منهم من أين أنت ؟ قلت من بيت المقدس ، قال بلد كبير ، أعلمك يا سيدي أعزك الله أن على هذا الساحل وما قد أقطع منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهب إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال كان هاهنا مدينة ١ .

ويذكر ابن بطوطة ٢ : « إن بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق ٣ .

أما المقرئ فيصف ضخامة السفن التي في النيل بأن الواحدة منها تحمل ما يحمله خمسمائة بعير ٤ . وينقل عن ابن سعيد عند وصفه لساحل القسوط أنه « كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار الأرض والنيل ، ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني أقول حقاً ٥ .

كما يذكر المقرئ عند وصفه ميدان القمح خارج باب القنطرة أنه « يصير عند باب القنطرة في أيام النيل من مراكب الغلة وغيرها ما يستر الساحل كله ٥ . ويقول أيضاً إن المعز أنشأ في صناعة المقسي ستمائة مركب لم ير مثلها في البحر على مينا ٦ .

ويروى ابن شاهين ٧ « أنه ضبط في أيام الفخر الوزير ما بساحلها ( أى مصر القديمة ) من المراكب فكانت تنيف عن ألف وثمانمائة مركب ٨ .

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٩٨ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٩

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٦

(٤) الخطط ج ١ ص ٣٤٢

(٥) الخطط ج ٢ ص ١٣٤

(٦) الخطط ج ٢ ص ١٩٥

(٧) زبده كشف الممالك ص ٢٧

ولا أدل على كثرة السفن التي كانت تتجمع على ساحل مصر وبولاق ما ذكره ١  
السيوطي من غرق ثلثمائة مركب عند ساحل بولاق في أحد أيام شهر ربيع الآخر  
سنة ٧٥٧ هـ .

وقد أخذ عدد السفن يقل تبعاً لتدهور الحالة الاقتصادية حتى صار عددها في زمن  
الحملة الفرنسية لا يتجاوز الألف والستمائة ، ثم زادت في عهد محمد علي حتى بلغت  
ثلاثة آلاف وثلثمائة سفينة منها ثمانمائة تملكها الحكومة ٢ .

ولقد كانت السفن التي تجرى في النيل مختلفة الأنواع والأحجام والأشكال تبعاً  
للغرض المهيأة له سواء أكانت لحمل البضائع أم لنقل المسافرين أم للترهة واستعمال كبار  
الشخصيات في الدولة أو كانت سفناً حربية .

وسنذكر بعض أنواع السفن المختلفة الأسماء والأغراض التي استعملها المصريون  
وذكرتها المراجع العربية ، منذ الفتح العربي حتى عصر محمد علي مرتبة ترتيباً هجائياً ٣ :

١ - أرباع الكيل : يقول ابن ممانى ٤ : « وهذه مراكب تعمر من الحراج  
فإذا وصلت إلى ساحل السنط قومت أو نودى عليها ، فمهما بلغت طولب مالكتها بحق  
الربع من القيمة عما أخذه من خشب العمل » .

٢ - الأشكيف : وصفها كلوت بك ٥ بقوله : « هذه القوارب أقل حجماً  
من قوارب ، المعاش وهي وإن تكن مخصصة مثل قوارب المعاش لحمل البضائع  
لا تسير إلا في فرعى النيل ، وقد تخرج إلى بحر الإسكندرية وتذهب إلى ثغرى دمياط  
ورشيد وأحياناً إلى بلاد الشام وقبرص » .

ولعل هذه التسمية مأخوذة من الكلمة الإنجليزية Skiff أى قارب صغير

٣ - الأعزازى : سفينة تتبع الشينى وتحمل فيها الأزواد ٦

---

(١) السيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦١ وانظر أيضاً ج ٢ ص ١٥٨ إذ يذكر غرق ٢٠٠  
مركب سنة ٦٦٧ في يوم واحد من ذى الحجة .

(٢) كلوت بك « لمحة عامة إلى مصر » ج ٢ ص ٦٧٣

(٣) اعتمدت كثيراً في ترتيب هذه السفن ومعرفة كثير من أسمائها من « معجم السفن العربية »  
وضع الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال خاص بأسماء وأنواع السفن وهو مخطوطه لم تطبع بعد .

(٤) قوانين الدواوين ص ٣٤٨ .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٦٧٤

(٦) ابن ممانى المرجع السابق ص ٣٤٠

٤ - الجرم : جاء في محيط المحيط « الجرم الزورق بلغة أهل اليمن وعليه اصطلاح الملاحين في الشام ومصر » .

٥ - الحراقة ١ : سفينة حربية بها مرام تلقى النار على العدو ولها نحو مائة مجداف . كما أنها كانت تستعمل لركوب السلطان وكبار الشخصيات في أعياد الوفاء في العهد المملوكي وكانت تعرف في عهد الفاطميين باسم العشارى .

٦ - الحمالة : سفينة تحمل فيها الغلة كما تحمل فيها الحيوانات ٢ .

٧ - حمامة : والجمع حمام نوع من السفن ربما كانت حربية أو تستعمل للنقل يقول المقرئى ٣ عند الكلام عن حصن الجزيرة الذى بناه أحمد بن طولون : « واتخذ ( ابن طولون ) مائة مركب حربية سوى ما ينضاف إليها من العلايات والحمام والعشارية والسعنابيك ..... الخ » .

٨ - درمونة : مركب كبير لنقل الغلال برسم الأهواء السلطانية وحمولتها خمسة آلاف إردب ٤ .

٩ - الدكاسة : نوع من السفن الخاصة بكبار رجال الدولة الفاطمية ٥ وقد جاء في الخطط للمقرئى ٦ عند الكلام عن صاحب الطراز ما يلى : « وله عشارى دتماس مجرد معه وثلاثة مراكب من الدكاسات ولها رؤساء ونواتية لا يرحون ونفقاتهم جارية من مال الديوان » :

١٠ - الذهبية : يقول كلوت بك ٧ : « أما الذهبيات فمراكب كبيرة يختلف طولها من أربعين قدماً إلى خمسين وعرضها من ١٢ إلى ١٥ قدماً ، وللذهبية

---

(١) ابن ماقى المرجع السابق ص ٣٤٠ - ابن دقماق المرجع السابق ( الانتصار ) ج ٤ ص ١١٤ - قلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥١٧ ، ج ٤ ص ٤٧ - المقرئى الخطط ج ١ ص ٦٩ - السيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٣ - أبو السرور البكرى « قطف الأزهار » ص ٩ أ - الحموى تاريخ الأسطول ٧ ص ٣٥ - محيط المحيط .

(٢) ابن ماقى المرجع السابق ص ٣٣٩-٣٤٠ - ابن شاهين المرجع السابق ص ١٣٩-١٤٠-١٤٢ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٨٠

(٤) ابن شاهين المرجع السابق ص ١٢٢-١٢٣

(٥) الدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين في مصر » ص ١١٢ هامش ٧

(٦) الخطط ج ٢ ص ٣٥٢

(٧) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٦٧٤-٦٧٥

شراعان وهى تسير بالمجاديف أيضا ، ويعدل عدد نوتيتها عدد ما فيها من المجاديف فالذهبيات الكبيرة تحتوى من ثمانية عشر جدافا إلى عشرين ، وتصلح فى الأصل لنقل البضائع زمن التحريق ، وبمؤخرها غرفتان أو ثلاث غرف للمسافرين ، ولكنها لاتقبل من هؤلاء إلا من تكون الأعمال التجارية باعث سفرهم ، ويؤثرون بسببها الأمن والراحة على السرعة فى الوصول إلى الجهة المقصودة .

١١ - الزلاج : لعله نوع من القوارب الخفيفة السريعة اشتق من كلمة الزلاج بمعنى السرعة فى المشى ١ .

فيقول الكندى ٢ عند الكلام عن عبد العزيز الجروى : « ولاطف ( أى الجروى ) السرى ( ابن الحكم ) فخرج إليه فى زلاج وخرج الجروى فى مثله فالتقينا وسط النيل ٥٠١ » .

١٢ - الزورق : جاء فى محيط أنه « السفينة الصغيرة » ٣ .

١٣ - السلورة : جاء فى السلوك للمقريزى ٤ « ومضى أكرم ( كريم الدين أكرم الصغير ) وابنه فى سلورة إلى أسوان » .

والسلورة والجمع سلاير كانت من السفن المستعملة فى نهر النيل وليست من سفن البحار الكبرى ٤ .

١٤ - السماوى : سفينة صغيرة الحجم من نوع العشارى ٥ .

١٥ - سنبك أو سنبوك : جاء فى تاج العروسمى للزبيدى « السنبوك كعصفور السفينة الصغيرة » . وقد ذكره المقريزى عند وصفه لحصن الجزيرة ٦ .

وفى « سيرة أحمد بن طولون » أطلق عليها لفظ السنادبل بدل السنايلك ٧ .

١٦ - الشختور : جاء فى محيط المحيط « الشختور والشختورة سفينة صغيرة بسار واحد فى الوسط وهو من اصطلاح النوتية » .

---

(١) اللسان

(٢) الولاة والقضاة ص ١٥٧

(٣) وانظر ابن تغرى بردى « النجوم الزاهرة » ج ١ ص ٣٢

(٤) ج ٢ ص ٢٧١ وانظر أيضاً هامش - ٥ بنفس الصفحة .

(٥) المقريزى الخطط ج ١ ص ٤٧٨

(٦) المقريزى الخطط ج ٢ ص ١٨٠ وانظر « الحماة » التى ذكرت سابقاً

(٧) سيرة أحمد بن طولون للبلوى تحقيق محمد كرد على ص ٨٧ ، ص ١٠٢



وفي وصف ابن دقماق لبركة الشعبية بظاهر مصر : « وكان فجر النيل يعملها في كل سنة ويدخل إليها الشخاتير » ١ .

ويقول المقرئى ٢ عن عبد الشهيد سنة (٧٣٨ هـ - ١٣٣٨ م) : « فلما كان ذلك اليوم الذى كانت العادة بعمله فيه ركب الأمراء النيل في الشخاتير بغير حراريق » .

١٧ - الشلندى : مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره وجدافون يجدفون تحتهم . كما أن الشلندى يستعمل أيضاً لنقل البضائع والأمتعة ٣ .

١٨ - الشينى : وصفه ابن مماتى ٤ « ويسمى الغراب أيضاً فإنه يجدف بمائة وأربعين مجدافاً وفيه المقاتلة والجدافون » .

وكانت تقام فيه أبراج وقلاع للدفاع ، ويعتبر أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول في الدولة الإسلامية ٥ .

١٩ - الطرائد : سفينة حربية ٦ وذكر ابن مماتى عن الطريدة ما يلي « برسم حمل الخيل وأكثر ما يحمل منها أربعون فرساً » ٧ وقد جاء أيضاً في تاريخ الأسطول ٨ « وقال دوزى هي نوع من المراكب الحربية أكثر شبها بالبرميل الهائل من السفينة ، كانت تستعمل غالباً في حمل الخيول والفرسان وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارساً » .

٢٠ - طيارة أو الطيار : ضرب من السفن النهرية القديمة ٩ ١٠ .

٢١ - العشارى أو العشيري : يقول البغدادى ١١ في وصفه مصر : « وأغرب

---

(١) الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٥٥

(٢) الخطط ج ١ ص ٦٩

(٣) ابن مماتى « قوانين الدواوين » ص ٣٤٠ وانظر أيضاً ص ٤٥٦ - كذلك انظر الخطط المقرئية ج ١ ص ٤٨٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٤٠

(٥) انظر الخطط المقرئية ج ١ ص ٤٨٢ - ابن تفرى بردى - النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥١ هامش - ٣

(٦) المقرئى الخطط ج ٢ ص ١٩٤

(٧) قوانين الدواوين ص ٣٣٩

(٨) ص ٣٣-٣٤ .

(٩) الحموى (تاريخ الأسطول العربى) ص ٤٥

(١٠) أنظر المقرئى الخطط ج ١ ص ٣٤٢

(١١) الإفادة والاعتبار ص ٤٠-٤١

ما رأيت فيها مركب يسمونه العشيري شكله شكل شبارة ١ داخله إلا أنه أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هنداماً وشكلاً ، قد سطح بالواح من خشب ثخينة محكمة وأخرج منها أفاريز كالرواشن نحو ذراعين . وبني فوق هذا السطح بيت من خشب وعقد عليه قبة وفتح له طاقات وراوازن بابواب إلى البحر من سائر جهاته . ثم يعمل في هذا البيت خزانة مفردة ومرحاض ثم يزوق بأصناف الأصباغ ويذهب ويدهن بأحسن دهان .

وهذا يتخذ للملوك والرؤساء بحيث يكون الرئيس جالساً في وصادته وخواصه حوله والغلمان والمماليك قيام بالمناطق والسيوف على تلك الرواشن وأطعمتهم وحوائجهم في قعر المراكب . والملاحون تحت السطح أيضاً وفي باقي المركب يقذفون لا يعلمون شيئاً من أحوال الركاب ، ولا الركاب يشتغل بخواطرهم بهم كل فريق بمغزل عن الآخر ومشغول بما هو صددده .

ويصف المقرئ ٢ البيت الخاص بعشاري الخليفة الفاطمي بأنه « بيت مثنى من عاج وأبنوس عرض كل جزء ثلاثة أذرع وطوله قامة رجل تام ، فيجمع بين الأجزاء الثمانية فيصير بيتاً دوره أربعة وعشرون ذراعاً وعليه قبة من خشب محكم الصنعة ، وهو بقبة ملبس بضائع الفضة والذهب » .

وكان للفاطميين ما يزيد على « خمسين عشارياً ويليها عشرون ديماساً منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها . وبقية العشاريات الدواميس برسم ولادة ، الأعمال المميزة » . ٢ وكان من أهم هذه العشاريات ست للخليفة هي الذهبى والفضى والأحمر والأصفر واللازوردى والصقلى ٢ .

ويصف ابن الساعاتى ٣ يوم هو قضاءه في عشارية على النيل .

ولما توسطنا على النيل غدوة ظننت وقلب اليوم باللهو جذلان  
عشارية أنسانا له الماء مقلة وليس لها إلا المجاديف أجفان

٢٢ - العقبة : والكل لاشك يعرف السفينة المسماة بالعقبة التى تشترك فى احتفالات الوفاء كل عام .

وقد كانت مخصصة فى العصر العثمانى لركوب الوالى وكبار رجال الدولة وتشبه

---

(١) الشبارة . سفينة صغيرة بنهر دجلة لنقل الركاب - أنظر تاريخ الأسطول ص ٣٧

هامش-١

(٢) الخطط ج ١ ص ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢-٤٨٣

(٣) ديوان ابن الساعاتى ج ٢ ص ٢١٤

العشارى إلى حد كبير إذ يقول على مبارك باشا ١ : « نقل كتر مبر عن الجبرنى أنها مركب تنقش بأنواع الألوان ويركب عليها مقعد من الخشب المصبع ، ويجعل له شبابيك وطاقات من الحرط ويصفح بالنحاس الأصفر ويزين بأنواع الزينة والستائر ويرفع عليه بيارق ملونة وشراريب ولا يركب فيه إلا الباشا ونحوه » .

أما العقبة التى كانت تشترك فى احتفالات وفاء النيل فقد وصفها على مبارك باشا بأنها سفن الغلال التى يجرى تزيينها وتهيئتها للاشتراك فى الاحتفال ٢ .

٢٣ - العلابيات : وكانت مستعملة فى مصر من مدة طويلة إذ ذكرها المقرئزى عند وصفه لحصن أحمد بن طولون بالجزيرة ٣ .

٢٤ - القوارب : سفن صغيرة تستعمل لأغراض شتى ، وكانت تستعمل بوجه خاص فى التنقل بين القرى أيام الفيضان حين يغمر الماء الأرض ٤ .

وجاء فى اللسان : « القارب السفينة الصغيرة مع أصحاب السفن الكبار البحرية كالجنايب لها تستخف لحوائجهم والجمع القوارب » ٥ .

٢٥ - القايق : وصفه كلوت بك ٦ « ويتخذ الفلاحون للملاحة فى النيل زوارق ، صغيرة ضيقة تسمى القايق وهم يتكدسون فيها من غير تدبر ولا احتياط فيحدث غالباً أن تغرق فلا ينجو منهم إلا التزر اليسير » .

٢٦ - قرقورة وقرقور : قال المقرئزى ٧ إنه فى يوم الوفاء « يكون فى البحر ألف قرقورة مشحونة بالعالم فرحاً بوفاء النيل » .

وفى اللسان « القرقور ضرب من السفن وقيل هى السفينة العظيمة أو الطويلة والقرقور من أطول السفن وجمعه قراقرير ..... وفى الحديث فإذا دخل أهل الجنة الجنة ركب شهداء البحر فى قراقرير من در » .

وعلى ذلك فالقرقورة نوع من السفن معروف للعرب من قبل الفتح . وجاء فى

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٨٢

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ٣٤

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٨٠

(٤) انظر ابن تغرى بردى « النجوم الزاهرة » ج ١ ص ٣٢

(٥) انظر أيضاً الحموى « تاريخ الأسطول » ص ٣١

(٦) المرجع السابق ج ٢ ص ٦٧٦

(٧) الخطط ج ١ ص ٤٧٦

تاريخ الأسطول ١ « وأصل اسمها بالأسبانيوليه كاراكا » . ولا شك أن الأسبان أخذوا هذا اللفظ عن العرب .

٢٧ — القنجة : سفينة كانت مستعملة في عصر محمد علي وهي من نوع الزوارق السريعة الحركة ، طولها من ثلاثين إلى أربعين قدماً وعرضها من ثمانية إلى عشرة أقدام ، ولها في العادة سارية واحدة أو ساريتان ، وتحمل شخصين ٢ .

٢٨ — القياسة : جاء في السلوك ٣ « ورسم لكل من الأمراء المقدمين بعمارة مركب يقال لها جلبة وعمارة قياسة لطيفة يقال لها قلوقة برسم حمل الأزواد وغيرها » . وكان هذا النوع يستعمل في مصر أيام التحاريق وقد وصفها كلوت بك بأنها « مراكب فرطاحة بطيئة الحركة » ٤ .

٢٩ — الككة : مركب كبير كان يستعمل في صعيد مصر وليس فيها مسبار ٥ .

٣٠ — مراكب الخطب : قال ابن مماتي ٦ عند ذكره ساحل السنط « موضع تصل إليه مراكب الخطب وتعتبر فيه وتبتاع على التجار منه » .

٣١ — مراكب المعاش : مراكب نيلية كبيرة تبلغ حمولة بعضها خمسمائة طن ولها ساريتان أو ثلاث ولا تسير في النيل إلا في زمن الفيضان وعند كثرة الماء ٧ .

٣٢ — المراكب الملوحة : وصفها ابن مماتي ٨ بقوله « هذه مراكب جارية في ذلك الديوان (ديوان الخراج) يضمونها الرؤساء لمدة معلومة بأجرة معينة ، وإذا احتاجت إلى عمارة اعتد لهم عن مدة العطلة بأجرة نظيرها من مدة العمل . وستتها ثلاثة عشر شهراً منها خمسة نيلية يجب عنها نصف الضمان ومنها سبعة أشهر يجب عليها النصف الثاني أقساط متساوية والشهر الثالث عشر عطلة لا قسط فيه » .

٣٣ — مراكب النزهة والتفرج : وهي سفن خاصة بحمل من يرغب في النزهة في النيل وخليجان مصر كالحاكمي والناصري ٩ .

---

(١) ص ٣١

(٢) كلوت بك « لمحة عامة إلى مصر » ج ٢ ص ٦٧٥-٦٧٦ ، ص ٦٧٩ .

(٣) ج ٢ ص ٣٣

(٤) لمحة عامة ج ٢ ص ٦٧٦ وانظر أيضاً السلوك ج ٢ ص ٣٣ هامش - ٢

(٥) علي بن ظافر « بدائع البداية » ص ٢٣ - القلقشندي صبح الأعشى ج ٩ ص ٢٣٥

(٦) قوانين الدواوين ص ٣٤٧

(٧) كلوت بك - المرجع السابق ج ٢ ص ٦٧٣-٦٧٤

(٨) قوانين الدواوين ص ٣٤٨-٣٤٩

(٩) المقرئزي الخطط ج ٢ ص ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥١



- ٣٤ - المركوش : وصفه ابن مماتي بأنه مركب « لطيف لنقل الماء لخفته يدخل على المواضع ويكون وسقه دون مائه إردب » ١ .
- ٣٥ - المسطح : يذكره ابن مماتي ١ بعد الشلندي ثم يقول : « وهو في معناه » أى شبيه له ٢ .
- ٣٦ - المعدية : سفينة خاصة لنقل الناس والحيوانات وغيرها بين شاطئ النيل وتسير بالمجاديف .
- ويقول المقرئى ٣ « كان يخلوان في النيل معدية من صوان يتعدى بالخليل تحمل فيها الناس وغيرهم من البر الشرق يخلوان إلى البر الغربى » .
- ويصف ابن دقماق بحيرة تنيس بأنها « قليلة العمق يسار فيها بالمعادى ٤ ولا زالت تستعمل إلى الآن بين ضفتى النيل » .
- وكانت الحكومة تحصل ضرائب مخصصة للمعديات التى تعبر النيل ٥ فى أماكن كثيرة وخاصة فى الصعيد .

---

(١) قوانين الدواوين ص ٢٤٠ .  
(٢) المقرئى الخطط ج ١ ص ٤٨٣ .  
(٣) المقرئى الخطط ج ١ ص ٢١٠ .  
(٤) الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٥ ص ٧٩ .  
(٥) فى مصر الإسلامية « مقالة المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » ص ٣٣ و ص ٥١ و ص ٥٢ .

## الباب الرابع

الخزائن



برع العرب في توضيح معلوماتهم الجغرافية وخاصة عن تقويم البلدان بالخرائط المختلفة التي لا بد منها لمساعدة دارسي الجغرافيا .

والخوارزمي هو أول من استعان بالصور في كتابه « صورة الأرض » ، ومن هذه الصور خريطة للنيل تعتبر أول رسم عربي له ، وقد استعان الإصطخرى برسم الخرائط لتوضيح ما ذكر من معلومات فيقول ١ : « فاتخذت لجميع الأرض التي يشتمل عليها البحر المحيط الذي لا يسلك صورة إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم بما ذكرناه ، واتصال بعضه ببعض ، ومقدار كل إقليم من الأرض ، حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصلاً علم موقعه من هذه الصورة ، ولم تتسع هذه الصورة التي جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم في صورته ، من مقدار الطول ، والعرض ، والاستدارة ، والتربيع ، والتثليث ، وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة ، فاكثفت ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه ، ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الإسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الإقليم ، وما يقع فيه من المدن ، وسائر ما يحتاج إلى علمه مما آتى على ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى » .

وبوضع ابن حوقل الخرائط لتوضيح الأقاليم المختلفة فيقول ٢ : « وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلاً يحكى موضع ذلك الإقليم » .

بل إن المقدسي بز غيره في عمل الخرائط الملونة فيقول ٣ عن الأقاليم التي ذكرها :

« ورسمنا حدودها وخطوطها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة ، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة ، وبحارها المالحة بالخضرة ، وأنهارها المعروفة بالزرقة ، وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف إلى الأفهام ويقف عليه الخاص والعام . »

فهو قد استعمل الألوان في تلوين خرائطه الجغرافية بمثل ما تستعمل في الخرائط الحديثة .

أما الإدريسي فيعتبر بلا جدال من أعظم راسمي الخرائط الجغرافية في العصور الوسطى .

---

(١) مسالك الممالك ص ٣

(٢) صورة الأرض ص ٣٠

(٣) أحسن التقاسيم ص ٩







ويرى الأستاذ عباس محمود العقاد : أنه « من الخرائط المرسومة والآراء النظرية التي نقلت عن العرب تلتى كولومبس صورته عن الكرة الأرضية » ويخرج من ذلك أن العرب لهم الفضل الأكبر في اكتشاف أمريكا ١ . هذا وإن لم يكونوا - كما يرى البعض - قد اكتشفوها قبل كولومبس ٢ .

ولكن مما يؤسف له : أن أغلب الخرائط التي وضعها الجغرافيون العرب قد فقدت : وحتى التي وصلتنا ليست الخرائط الأصلية التي وضعها المؤلفون ، بل هي من نقل النساخ الذين نسخوا مؤلفات هؤلاء الكتاب ؛ فمثلاً كتاب الخوارزمي « صورة الأرض » الذي بين أيدينا منقول عن نسخة كتبت في شهر رمضان سنة ٤٢٨ هـ ٣ ، وينطبق ذلك أيضاً على المؤلفات الأخرى ، فإنها لم تصل إلينا إلا وقد نسخت أكثر من مرة . ووجه الخطورة هنا : أن يكون الناسخ غير خبير برسم الخرائط فيأتي الرسم مغايراً لما رسمه المؤلف ، كما أننا لا يمكننا أن نرجع - ونحن واثقون - أي خطأ في الرسم أو عدم مراعاة لمقاييس الرسم إلى المؤلف الأصلي ، مادامنا لا نستطيع أن نبرئ الناسخ ، وعلى كل فإن هذه الخرائط مهما نالها من تغيير فإنها تعكس روح المؤلف الأصلي ، والخرائط التي رسمها المؤلفون العرب لنهر النيل والتي وصلت إلينا تنقسم إلى قسمين ، خرائط تصور النهر كله من منبعه إلى مصبه ، وخرائط أخرى تختص برسم مجراه في مصر فقط ، والخرائط الكاملة للنيل التي ستعرض لها هي خرائط الخوارزمي ، وابن سيرايبون والإدريسي ، وعز الدين ابن جماعة ، والسيوطي .

وخريطة الخوارزمي ( الشكل ١ ) هي أقدم هذه الخرائط جميعها ، ولكن لما كانت خريطة ابن سيرايبون ( الشكل ٢ ) تكاد تكون صورة طبق الأصل لخريطة الخوارزمي فيما عدا بعض الاختلاف ، فإننا سندرسهما معاً ذاكرين الخلاف بينهما ، وفي الخريطين يظهر جبل القمر الذي منه منابع النيل ، والأنهار العشرة التي تخرج منه لتصب كل خمسة منها في بطيحة وراء خط الاستواء ، ونلاحظ أنه بينما لم يظهر في رسم الخوارزمي إلا أربعة أنهار فقط تصب في البطيحة الأولى ، وخمسة تصب في البطيحة الثانية ، فإن ابن سيرايبون قد بين الأنهار العشرة ، ويخرج من كل بطيحة أربعة أنهار لتصب كلها في بطيحة ثلاثة أصغر شمال خط الاستواء ، ويظهر في كلا الرسمين اتصال النهر الثاني بالنهر الثالث في كل مجموعة ليكونا نهراً واحداً قبل وصولهما للبطيحة الثالثة ، ومن هذه البحيرة

---

(١) أثر العرب في الحضارة الأوربية ص ٤٧

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٤٦

(٣) صورة الأرض ص ١٦٢ وانظر الصورة الفوتوغرافية رقم ٥ بنفس الكتاب





الأخيرة يخرج نهر النيل ماراً بالسودان ، وعلوة ، وزغاوة ، وفزان والنوبة ، وعند دنقلة يتصل بالنيل نهر قادم من الجنوبي الشرقى ينبع من بحيرة على خط الاستواء .

وقد وضع ابن سيرايبون السودان في مكانها الصحيح على الخريطة ، في حين لم يبينها الخوارزمي في خريطته . كذلك نجد النوبة في خريطة ابن سيرايبون في موضعها الصحيح بينما تظهر في خريطة الخوارزمي بين النيل ورافده ، وإلى الجنوب كثيراً من مكانها الصحيح . نلاحظ أيضاً الاختلاف في وضع فزان ، وعلوة ، وزغاوة ، فالخوارزمي يضعها على الرافد الشرقى في حين يضعها ابن سيرايبون على المجرى الرئيسى للنيل ، وهو في ذلك أقرب إلى الصحة من الخوارزمي ، وإن كان الاثنان قد أخطأ في بيان مكان علوة إذ أنها - بناء على وصف ابن سليم الأسواني - تقع عند اتصال النيل الأزرق بالنيل الأبيض ، أى مكان الخرطوم الحالية ، وهى بذلك تكون على الشاطئ الشرقى لعمود النيل .

ويهمنا أن نذكر : أن الخوارزمي ، وابن سيرايبون قد وضحا في رسميهما انحناء النيل الكبرى في السودان بطريقة قريبة إلى الدقة ، ووضعاً دنقلة في موضعها الصحيح ، وإن أخطأ في بيان مكان اتصال النيل برافده الشرقى .

وبعد دنقلة يتجه النهر إلى الشمال ليدخل مصر ماراً بأسوان ، وقوص وإخميم ، وأسيوط والأشمونين ، وهذه المدن لم يذكرها إلا الخوارزمي ، في حين لم يضع ابن سيرايبون إلا مدينة ملوى فقط ، ويظهر جبل المقطم أو جبل فتوقا - كما يذكر ابن سيرايبون - وقد اقترب النيل منه كثيراً حتى يصل إلى القسقاط ، وقد وضع الخوارزمي القسقاط إلى الجنوب من مكان تفرع النيل بكثير ، في حين وضعها ابن سيرايبون عند مكان تفرع النيل مباشرة ، وسماها مدينة مصر .

أما عن فروع النيل في الدلتا : فبالرغم من أن الاثنین يذكران سبعة أفرع للنيل فإنهما لم يوضحا في الرسم إلا ستة من هذه الفروع فقط ، وجعلاً مصباتها بين دمياط . والإسكندرية أما خريطة الإدريسي ( الشكل ٣ ) التى رسمها للعالم ، فقد أظهر فيها مجرى النيل ومنابعه العشرة من جبل القمر ، وإلى تصب في بحيرتين جنوبي خط الاستواء . ويخرج من كل بطيخة ثلاثة أنهار لا أربعة تصب كلها في بطيخة كبيرة تقع على نفس خط الاستواء ، وليس شماله كما ظهر في الرسمين السابقين ، ويخرج من هذه البحيرة نهران يتجه أحدهما إلى الغرب ليصب في المحيط ، أما النهر الآخر فهو نيل مصر ، ويخرج من النيل بعد تركه البحيرة بقليل نهر يتجه إلى الشرق لعله النهر أو الخليج الذى ذكره المسعودى من قبل ، فإذا اتبعنا رأى القائل : أن البطيخة الثالثة تقابلها الآن بحيرة نو ، يكون هذا النهر هو السوياط ، ويكون النهر الغربى بحر الغزال .





وقد وضع الإدريسي الحبشة في مكانها الصحيح شرق النيل ، ولكنه لم يوضح انحناء النيل الكبرى ، كذلك لم يبين في الرسم النهر الذي ذكره في وصفه ، ويأتي من الشرق محترقاً الحبشة ليتصل بالنيل عند بلاق .

وفي سنة ( ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م ) أرفق ناسخ كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل رسماً للنيل لا يختلف كثيراً عن رسم الخوارزمي ، وقد أوضح به جبال القمر ، وأنهاره العشرة وبطيحاته الثلاث ، ولكن بينما في رسم الخوارزمي ، ووصفه يلتقي النهران الثاني والثالث في كل مجموعة . من الأنهار الثمانية التي تخرج من البطيحتين الكبيرتين ، إلا أنها ظهرت في هذا الرسم منفصلة عن بعضها ، ولكل منها مصب منفرد ، كما أن هذا الرسم لم يوضح انحناء النيل في السودان ، وبعد دخول النيل مصر نجد : أن الرسم يظهر مجراه وقد اتجه بعد أسوان إلى الغرب مسافة طويلة ، ثم إلى الشمال ، فالشمال الشرقي ، حتى يصل إلى القسوط ، كما أنه لم يوضح - بدقة - فروع النيل في الدلتا ( الشكل ٤ ) .

وفي القرن التاسع الهجري نجد رسمين للنيل ، أحدهما لعز الدين بن جماعة ، والآخر للسيوطي ، والاثنان ليسا من الجغرافيين ، فالأول فقيه ، والثاني مؤرخ ، لذلك جاء رسمهما وقد خلا من الدقة كما لم تراع فيهما مقاييس الرسم .

وقد وردت خريطة ، ابن جماعة في مخطوط الحجازي « نيل الرائد » والموجودة نسخة في دار الكتب برقم ١٣٠ بلدان تيمور ، كما أرفقت ضمن رسالة في « منبع النيل » الموجودة ضمن مجموعة خطية بمكتبة بلدية إسكندرية رقمها ١٦٢٧ ب ، وهذه الخريطة الأخيرة وإن لم يذكر اسم صاحبها إلا أن مطابقة الرسم والوصف الذي ذكر معها لما جاء في مخطوط الحجازي منسوباً لابن جماعة يدل بما لا يدع مجالاً للشك أن الرسم له .

ولا يتفق رسم ابن جماعة ( الشكل ٥ ) مع غيره من الخرائط السابقة إلا في بيان جبل القمر ، والبطيحات الثلاث ، والأنهار التي تصب فيها ، كذلك رسم النهر الآتي من الشرق . أما مجرى النيل في النوبة ومصر ، فبعيد كل البعد عما جاء في هذه الخرائط ، فنلاحظ : أن السودان والنوبة لم يظهر في هذا الرسم ، بل جعل أسوان إلى الشمال بقليل من البحيرة الثالثة ، إلا أنه أظهر تفرع النيل عند شطونوف إلى فرعين : الأول يتجه إلى الغرب ولم يذكر اسمه على الرسم ، والآخر هو الفرع الشرقي ، وقد ظهر متجهاً إلى الشمال حتى يصل إلى المنصورة فيتحرف إلى الشمال الشرقي ليصب في بحيرة لعله يقصد به بحيرة تنيس ، ويكون بذلك قد أغفل الفرع الذي يصب عند دمياط .

وهذا الرسم على كل حال خير من رسم السيوطي ( الشكل ٦ ) الذي وإن يبين في









رسمه جبال القمر والأهوار العشرة التي تخرج منه لتصب في بحيرتين ، إلا أنه اختلف مع الخوارزمي في أنه لم يظهر إلا نهرين فقط يخرجان من كل بحيرة الثالثة ، كما أنه جعل مصب النهر الآتي من الشرق في هذه البحيرة ، وليس في النيل عند النوبة .

والسيوطي في رسمه مثل ابن جماعة ، لم يبين النوبة فقد جعل أسوان إلى الشمال مباشرة من البحيرة الثالثة ، كما جعل موضع المنصورة ودمياط شمال أسوان ، ورشيد شمال الإسكندرية وجعل اتجاه خليج الإسكندرية بعد خروجه من فرع رشيد إلى الشرق ، وليس إلى الشمال الغربي كما هو الواقع ، كذلك جعل مخرج فرع دمياط من فرع رشيد قرب مصبه .

ورسم السيوطي لا يمثل حتى ولا رأى السيوطي الذي ذكره عند وصفه للنهر .

نخرج من ذلك : أن فن رسم الخرائط عند العرب ، والذي بلغ أوجه في زمن الإدريسي قد بلغ من الضعف والتدهور حداً لم يعد يراعى فيه دقة النقل ولا مراعاة لمقاييس الرسم .

فإذا انتقلنا إلى الخرائط التي رسمت لمجرى النيل في مصر فقط ، نجد لدينا ثلاثاً رسمها الإصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي ، وجميعهم من رجال القرن الرابع الهجري .

وقد وردت خريطة الإصطخري ( الشكل ٧ ) والمقدسي ( الشكل ٨ ) ضمن مؤلف يوسف كمال « Monumenta, T. III. Epoque arabe »<sup>١</sup> ولكنهما لم تردا في مؤلفيهما المطبوعين ، والرسمان متشابهان إلى حد كبير ، ويرجح أنهما مأخوذان عن أصل واحد ، وقد ظهر في الرسمين مجرى النيل في الصعيد يحدّه من الجانبين الهضبتان الشرقية والغربية ، وقد ظهرت الفيوم على مجرى النيل نفسه ، وإن ظهرت في خريطة المقدسي إلى الجنوب من القسطاط على الشاطئ الغربي ، في حين وضعها الإصطخري أمام القسطاط ، ولم يبين كلا الرسمين خليج المنهى .

وقد ظهرت الدلتا وفي وسطها دمياط وتيس ، وعلى جانبيها الإسكندرية والقروما ، ولكنهما لم يبينا فروع النيل فيها .

أما خريطة ابن حوقل ( الشكل ٩ ) فتختلف كل الاختلاف عن خريطة الإصطخري والمقدسي ، فهي توضح — بكل دقة — مجرى النيل كما كان معروفاً وقتئذ ، فإذا تتبعنا النيل عند دخوله مصر عند أسوان يتجه شمالاً تحده الهضبتان الشرقية والغربية ، ويمر بكثير من المدن مثل إدفو وإسنا ، وأرمنت ، والبلينا ، وأبو تيج ، وأسيوط والأشمونين ، وغيرها ، ولكنه لم يراع المسافات بين هذه المدن فجعلها لصق بعضها .





ويخرج من النيل عند الأشمونين خليج يتجه إلى الفيوم هو بلا شك المنهى ، وإن لم يذكر اسمه ، ويمر هذا الخليج على اللاهون والفيوم ، ويصب في بحيرة أطلق عليها اسم بحيرة أفني وتنهت ، ويخرج من النيل أمام اتفيح ( اطفيح ) خليج آخر يتصل بهذا الخليج عند اللاهون . وهو بذلك يجعل للمنهى مخرجين من النيل عند الأشمونين واطفيح ، وينطبق رسم الخليج - بهذا الوضع - على وصف ابن عبد الحكم لخليج المنهى ، وكيف أن النبي يوسف حفر ثلاثة خلجان ، أحدهما يخرج من النيل في أعلى الصعيد إلى الفيوم ، والثاني يتجه من الفيوم شرقاً إلى النيل ، والثالث يتجه غرباً عند تنهت .

كما أنه مر بنا فيما سبق في وصف الإدريسي خروج هذا الخليج من النيل عند بلدة صول ، وهو قد أخطأ في تحديد مكان صول هذه ، فجعلها إلى الجنوب عند سوهاج الحالية ، ولكن صول في الحقيقة تقع عند أطفيح ، فكان ابن حوقل يتفق مع الإدريسي في : أن خليج المنهى - أو على الأقل - خليج آخر يتصل به يخرج عند صول ، ولكنه وضع صول في مكانها الصحيح وإن لم يذكرها بالتحديد.

وعند شطنوف يتفرع النيل إلى فرعي رشيد ودمياط ، وقد وضع الرسم الفروع الصغيرة التي تتفرع من هذين الفرعين والتي عني هو والإدريسي بوضعها ١ . فنجد فرع رشيد وقد خرج منه عند مدينة أبو يمنس فرع يتجه شمالاً بشرق ثم ينعطف غرباً ليتصل بالفرع الرئيسي عند بيج ، كما أن خليج الإسكندرية يخرج من فرع رشيد إلى الشمال من شابور . وعند بيج أيضاً ينقسم هذا الفرع مرة أخرى إلى فرعين يتجهان شمالاً ويعاودا الاتصال عند بلهيب ، ( العطف ) وفوة ، والفرع الغربي منهما والذي يسميه فرع فرنوه يمر على فرنوه ومحلة مسروق ومحلة أبي خراشة ، وفيشة وسنليس إلى أن ينتهي إلى بلهيب ، والفرع الشرقي الذي يخرج من بيج يمر على صا ويعرف بفرع صا .

أما فرع دمياط فيتفرع منه أكثر من فرع وخليج ، فعند انتهى يتفرع إلى فرعين : - ذكرهما الإدريسي ٢ - وهذان الفرعان يلتقيان عند دميس ، وقد اختلف ابن حوقل والإدريسي في ذكر أسماء البلاد التي تقع على الفرع الغربي ، فمدينة بيج مثلاً ذكر الإدريسي أنها على هذا الفرع في حين أن ابن حوقل وضعها على فرع آخر إلى الشمال منه . وفي الشمال الشرقي من بنها يخرج من فرع دمياط خليج مردوس . وقرب المصب يتفرع هذا الفرع مرة أخرى إلى فرعين يتجه أحدهما إلى بحيرة تنيس ، ويظل

---

(١) أرجو الرجوع إلى الفصلين الخاصين بالمصب والخلجان .

(٢) انظر الفصل الخاص بالخلجان والمصب .



الآخر متجهاً إلى الشمال ليصب عند دمياط . وقد ظهر بالرسم خليج يخرج من النيل جنوب مدينة دمياط ، ويتجه إلى الشمال الشرقى ليصب في بحيرة تنيس ، ولا شك أن هذا الخليج هو خليج دمياط الذى ذكره ياقوت ١ .

إلى جانب مجرى النيل نرى ابن حوقل يبين خليج القلزم ، والبحر الأحمر ، وفي نهايته من الشمال مدينة القلزم وهى السويس الحالية ، ونلاحظ أن موقع القلزم بالنسبة للقسطنطينية قد جاء مطابقاً لموقع السويس بالنسبة للقاهرة ، فكلاهما يقع على خط عرض واحد (خط عرض ٣٠° شمالاً) ، كما يظهر بالرسم ديار البجة بين البحر الأحمر وسلسلة الجبال الشرقية .

والذى لا شك فيه : أن خريطة ابن حوقل هى أدق الخرائط العربية على الإطلاق وتعتبر أوفى ما رسم عن مجرى النيل فى ذلك الوقت .

الباب الخامس

المخطوطات العَرَبِيَّة  
الَّتِي تَكَلَّمَتْ عَنِ النَّيْلِ





إلى جانب المؤلفات العربية التي تعرضت للدراسة النيل ضمن موضوعات جغرافية أخرى ، قام البعض بوضع مؤلفات اختصت بدراسة النيل كموضوع قائم بذاته أو على الأقل كموضوع أساسي إلى جانب بعض الموضوعات الثانوية .

ونلاحظ على هذه المؤلفات :

أ - أن أغلبها ما زال مخطوطاً .

ب - أنه بالرغم من تخصصها في موضوع واحد ، فإنها بوجه عام لم تأت بجديد ، وكل ما حوته من معلومات مستمد من المؤلفات الأخرى مع تفاوت في الإطالة والاختصار والتقدم والتأخير .

ج - إن أكثرية هذه المؤلفات ابتداء ظهورها منذ أواخر القرن الثامن الهجري وهي الفترة التي نشط فيها إنتاج المدرسة التاريخية المصرية والتي اهتمت بوجه خاص بكل ما يتعلق بمصر ونيلها .

وفيما يلي عرض موجز للمخطوطات التي تيسر لي الاطلاع عليها ، مصنفة تاريخياً تبعاً للمؤلفين .

#### ١ - ابن رضوان

علي بن رضوان بن علي بن جعفر المصري ولد وعاش في القاهرة في عصر الخليفة الحاكم ، وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية في ترجمتها لابن بطلان ، أنهما تقابلا في مصر سنة ( ٤٤٠ هـ - ١٠٤٩ م ) وقامت بينهما مساجلات عنيفة . وتوفي ابن رضوان سنة ( ٤٦٠ هـ - ١٠٦٨ م ) ( ب ) .

ولابن رضوان هذا مخطوط بعنوان « فوائد شتى في زيادة النيل ونقصه على الدوام » توجد منه نسخة بمكتبة الجامعة بالإسكندرية وتحب رقم ٢٥ مخطوطات ، وقد نقلت هذه النسخة سنة ١٩٢٦ م عن نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٣ مجاميع والتي يزجج تاريخ نسخها على ما يرجح إلى ما بعد سنة ١١٤٨ هـ .

---

(١) استندنا في تحديد هذا التاريخ إلى جملة جاءت في هامش ص ٣ نسخة إسكندرية حيث ذكرت فيضان النيل سنة ١١٤٨ هـ . وهي جملة أضافها الناسخ .

( ١ ) الخليفة الحاكم من ٣٨٦ - ٤١١ هـ

( ب ) بروكلمان

وقد نقل المقرئ عن ابن رضوان عند الكلام عن الفيضان وكيفية التنبؤ بمقداره ،  
وأطلق على مؤلف ابن رضوان اسم « شرح الأربعة » ١ .

وهذا المخطوط يبحث في أمر العلاقة بين حالة الفيضان من زيادة أو نقص وبين  
المتزلة التي تكون فيها بعض الكواكب في زمن الفيضان كالمرج وعطارد والزهرة والقمر ،  
وهو ينقل عما أسماه « المقالات الأربعة لبطليموس » ومن كتاب أبي معشر ٢ في  
الأمطار .

ونكتفي بما ذكرناه بصدده عند الكلام عن التنبؤ بحالة الفيضان في الفصل الأول من  
الباب الثالث .

## ٢ - الأقفهي المتوفى سنة ٨٠٨ هـ

أحمد بن عماد بن يوسف بن عبد النبي الشهاب أبو العباس الأقفهي ثم القاهري  
الشافعي ، ويعرف بابن العماد . أحد أئمة الفقهاء الشافعية كثير الاطلاع والتصانيف دمث  
الأخلاق ، أخذ عن الجمال الأسنوي ، وحضر مجلس السراج البلقيني ، وسمع على  
عجليل بن طرقاتي الدوادار الزيني كتبنا صحيح البخاري ، وحضر مجالس كثير من  
العلماء ، وتقدم في الفقه كما برع في الشعر . وقيل فيه .

إمام يحب ناشئ متصدق مصل وباك خائف سطوة الياس  
يظلمهم الرحمن في ظل عرشه . إذا كان يوم الحشر لا ظل للناس ٣  
وقد ألف الأقفهي كتاباً عن النيل يوجد فيه أكثر من نسخة خطية بعناوين مختلفة  
نتيجة لتعدد النسخ . ومن هذه النسخ :

١ - « نيل مصر وأهرامها » ، وهي رسالة ضمن مجموعة بمكتبة بلدية الإسكندرية  
تحت رقم ١٦٢٣ ب ، وقد تم الفراغ منها في رمضان سنة ٧٨٠ هـ أي في حياة  
المؤلف نفسه .

ب - رسالة بعنوان « هذا كتاب يذكر فيه خبر النيل من أين يخرج من الأرض ، وفي  
أي مكان يذهب ، وسبب تكرره ، وخضرته في أيام زيادته ، وفي أي مكان

(١) المخطوط ج ١ ص ٦٧ .

(٢) أبو معشر الفلكي هو : أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي المنجم ١٨٩-٢٧٢ هـ .

٨٠٥-٨٨٥ هـ - معجم المطبوعات ج ٢ ص ٣٤٦ .

(٣) أنسجوى - النجوم اللامع ج ٢ ص ٤٧ .

تذهب زيادته إذا نقص « وذكر في نهايتها أنه فرغ من نسخها يوم الأربعاء  
ثالث عشر رجب سنة ١٠٣٨ هـ ، وهذه الرسالة ضمن مجموعة أخرى بمكتبة  
بلدية الإسكندرية رقمها ٧٥٦ د .

ج - « كتاب في ذكر بحر النيل وما يتعلق به » نسخة بمكتبة الجامع الأزهر تحت رقم  
٢٠٧ الإمباني ٤٨٨١٥ ، وقد ذكر على يسار عنوانها بالصفحة الأولى أنها  
كتبت برسم مصطفى جودجي من دمياط سنة ١١٠٩ هـ .

د - « كتاب القول المفيد في النيل السعيد » نسخة فرغ منها سنة ١٢٦٦ هـ وتوجد  
بمكتبة البلدية بالإسكندرية تحت رقم ٤٩٣٩ د .

وبدراسة هذه النسخ الأربعة يتضح أنها - بالرغم من اختلاف أسمائها - لمؤلف  
واحد ، ولما كانت النسخة الأولى قد كتبت في حياة المؤلف فيمكن اعتبارها المخطوط  
الأصلي ، ويكون العنوان الذي وضعه المؤلف لمصنفه هو « نيل مصر وأهرامها » .  
أما العناوين الأخرى فمن وضع النساخ .

وتختلف النسخة الأصلية عن النسخ الثلاث الأخرى في بعض التعديلات - التي لا أهمية  
لها في ترتيب الفصول ، وإن كان هذا الاختلاف يجعلنا نرجح : أن هذه النسخ الثلاث  
التي تتفق فيما بينها في ترتيب فصولها ، نقلت عن نسخة أخرى غير هذه النسخة الأصلية .

وقد بين الأقفهي في مقدمة كتابه ، الدافع له على تأليفه إذ يقول : « ولما كان إقليم  
مصر مشتملاً على قوائد عجيبة استخرت الله تعالى في أن أجمع فيه من نفيس الغرائب  
مالا ينبغي لذوى العلم إهمالها ، ولا لساكن مصر إغفالها ، وكيف وكلهم أو أكثرهم  
لو سئل عن نهر النيل من أين يخرج من الأرض ، وفي أي مكان يذهب ، ولو سئل عن  
طوله وعن سبب تكدره وخضرته في وقت الزيادة ، ومن أين تمده الزيادة ، وفي أي  
مكان تذهب زيادته إذا نقص لما أجاب عن ذلك ، وأنا إن شاء الله تعالى مبين لجميع ذلك  
قاصداً فيه الاختصار » .

ثم قسم موضوعه إلى فصلين ، خصص الأول منهما لرواية الآيات القرآنية ،  
والأحاديث النبوية المتصلة بالنيل ، وما روى عن فضائل النيل ومصر ، ومن نزلها من  
الأنبياء والمرسلين ، وغيرهم من عظماء الرجال ، وما فيها من مواضع مقدسة ،  
وما في النيل من أعاجيب من أنواع الحيوان . أما الفصل الثاني ، الذي قسمه بدوره إلى  
فصول أخرى فيشمل الكلام « عن المكان الذي يخرج أصل النيل منه ، والمكان الذي  
يذهب فيه ، وبيان سبب خضرته ، والمقاييس المجدولة عليه وغير ذلك » .



وقد ذكر منابع النيل من جبل القمر ومجراه في السودان حتى يصل إلى الجنادل بأسوان ، وتفرعه في الدلتا حتى يصب في البحر .

ثم يتكلم عن مقاييس النيل قبل وبعد الإسلام ، والفيضان وسببه ، ثم يختتم كلامه عن النيل بفصل في « المكان الذي يذهب فيه ماء النيل » وأنه بعد انصبابه في البحر ينتهي إلى مواضع معينة ثم يرتفع بخاراً مكوناً الغمام الذي يسوقه الله إلى حيث يريد .

وكان من المنتظر وقد ألف الأقفهسي كتابه عن النيل خاصة ، أن يأتي بمعلومات جديدة أو يعالج الموضوع بتوسع مثلما عالج المقيزي مثلاً وهو معاصر له ، ولكن كل ما أورده المؤلف من معلومات نقلها عن الكتب السابقة ، ففي الفصل الأول الخاص بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، اعتمد المؤلف على ابن عبد الحكم ، والكندي ، وابن زولاق ، وفي الفصل الثاني لم يكن أكثر من ناقل عن مروج الذهب للمسعودي .

ولم يتعرض الأقفهسي لوصف النيل في مصر ، وذكر خلجانه ، وترعه ، وما كان يقام عند وفاته من أعياد ، أو يبين أثر النيل في مصر من الناحية الاقتصادية ، والخراج ، ونظم الزراعة والملاحة ، وهي موضوعات اهتم بها مؤلفون سابقون له كابن مماتي ، والقلقشندي أو معاصرون له كالمقيزي .

وقد يرجع السبب في هذا الإيجاز الذي لجأ إليه الأقفهسي : أنه لم يكن جغرافياً ، أو مؤرخاً ، كما أنه ألف كتابه لغرض خاص ذكره في المقدمة ، هو مجرد تعريف المصريين عن أشياء لا تقع تحت أبصارهم مثل منابع النيل وفيضانه وسبب خضرته .

وقد تكلم الأقفهسي ، إلى جانب ما ذكره عن النيل ، عن الأهرام ، وحائط العجوز والأنهار الأخرى التي قيل : إنها تخرج مع النيل من الجنة . ثم يختم رسالته ببحث فقهي عن الماء الذي يجوز التطهر به وما لا يجوز .

وقد ورد في نهاية النسخة الرابعة « كتاب القول المفيد في النيل السعيد » قصيدة ، شعرية نقلاً - كما ذكر - عن السيوطي ، وسيلدي عمر الفارض ، وأن من فوائدها أنه إذا توقف النيل عن الوفاء تكتب هذه القصيدة وتوضع في أنبوبة وتلقى في النهر ، ولا شك أن هذه القصيدة من إضافات الناسخ ، إذ إن السيوطي ولد بعد وفاة الأقفهسي ، كما أن الناسخ أخطأ في اسم مؤلف القصيدة فذكر أنه عمر بن الفارض في حين أن مؤلفها هو سبطه الشيخ نور الدين علي<sup>١</sup> .

---

(١) ذكر السيوطي قصة تأليف هذه القصيدة وإن لم يذكر القصيدة نفسها في كتابه « كوكب الروضة » نسخة دار الكتب ٢٦٣ جغرافياً ص ١١٩ .

ويوجد بمكتبة البلدية بالإسكندرية ضمن المجموعة التي تحتوى رسالة « نيل مصر وأهرامها » رسالة ناقصة تقع في ورقة واحدة تتكلم عن « منبع النيل » لم يذكر اسم مؤلفها ، وإن ذكر في التعريف الوارد في فهارس المكتبة عنها جملة « ولعلها لابن العماد » استناداً إلى أن جميع رسائل المجموعة من تأليفه .

وهذه الرسالة تتكلم عن منابع النيل من جبل القمر ، وموقع هذا الجبل ، وبحيرات النيل بالنسبة لخط الاستواء ، وخطوط الطول ، وذكر البحيرة التي يخرج منها النهر الذي ذكره الخوارزمي من قبل ليلتي بالنيل في بلاد النوبة ، ثم يذكر مرور النيل ومجراه في مصر وانقسامه عند شطونوف .

وما جاء في هذه الرسالة قد ذكر بنصه في خطط المقرئى<sup>١</sup> نقلاً عن ابن سينا ، كما أنها وردت في مخطوط « نيل الرائد في النيل الزائد » للحجازى<sup>٢</sup> نقلاً عن عز الدين ابن جماعة<sup>٣</sup> ، وعلى ذلك فهناك احتمالان : إما أن يكون الأقفهسى قد نقلها بدوره عن ابن سينا ، أو أنها - وهو الأرجح - قد نقلت فيما بعد بمعرفة أحد النساخ ثم أرفقت بالمجموعة ، وقد يؤيد ذلك أن خط هذه الرسالة مخالف للخط الذى كتبت به بقية رسائل المجموعة التى ألفها الأقفهسى .

### ٣ - الشهاب الحجازى

أحمد بن محمد بن على بن حسن بن إبراهيم الزكى ثم الشهاب أبو الطيب أو أبو العباس الأنصارى الخزرجى السعدى العبادى الشافعى المقرئ سبط أخى النور الهيثمى ، ويعرف بالشهاب الحجازى . ولد سنة ٨٧٩ هـ .

لازم العز بن جماعة فى كثير مما كان يقرأ عليه والولى العراقى فى الفقه وأصول الحديث والعربية كما لازم ابن حجر .

وقد كتب بخطه الكثير لنفسه ، وغيره ، وبلغت تذكروته أزيد من خمسين مجلدة . وله كتاب فى الألغاز ، وآخر فى الحماقة رتبه على حروف المعجم ، وآخر فيما وقع فى القرآن ، وآخر فى النيل .

وتوفى ابن الحجازى فى رمضان سنة ٨٧٥ هـ وقيل سنة ٨٧٤ هـ<sup>٤</sup>

---

(١) ج ١ ص ٦٢

(٢) مخطوط دار الكتب - بلدان تيمور ١٣٠ ص ١١-١٣

(٣) عز الدين بن جماعة من ٧٥٩-٨١٩ هـ

(٤) السخاوى - الفصوة اللامع ج ٢ ص ١٤٧ وانظر أيضاً السيوطى حسن المحاضرة ج ١

والكتاب الذى ذكر السخاوى أن الحجازى ألفه فى النيل هو « نيل الرائد فى النيل الزائد » وهذا الكتاب لا زال مخطوطاً ، وقد اعتمدت على نسختين منه موجودتين بدار الكتب .

الأولى : بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم بلدان تيمور ١٣٠ ، غير مذكور تاريخ نسخها وتقع فى سبع ورقات .

والثانية : نسخة مصورة بدار الكتب أيضاً تحمل رقم بلدان تيمور ١٨٨ عن النسخة الخطية التى كانت موجودة بمكتبة بلدية الإسكندرية ١ والتى كتبت سنة ١١١٢ هـ .

وسندرس هاتين النسختين كل على حدة ، وذلك للاختلاف الظاهر بينهما ، وإن كان من المؤكد انما وهما إلى مؤلف واحد — كما سيظهر فيما بعد — وأن الاختلاف سببه النساخ .

على أنه — لكى نسهل هذه الدراسة — يمكننا أن نقسم هذا الكتاب إلى قسمين رئيسيين : القسم الأول دراسة عامة للنيل من منبعه إلى مصبه ، والقسم الثانى — وهو الأصل — فى تأليف الكتاب — يشمل دراسة سريعة للمقاييس ، ثم جداول تبين أقصى انخفاض وارتفاع للنيل فى كل سنة ابتداء من السنة الأولى للهجرة حتى سنة ٨٧٤ هـ ( ٦٢٢-١٤٧٠ م ) ، وقد انفردت إحدى النسختين بذكر القسم الأول وحده بينما اعتنت الأخرى بالقسم الثانى .

فإذا تناولنا النسخة التى تحمل رقم « بلدان تيمور ١٣٠ » ، نجد : أن عنوان الكتاب جاء كما يلى « كتاب نيل الرائد فى النيل الزائد تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة والبحر الفهامة القابس بدر الدين البلقينى ٢ تغمده الله برحمته ورضوانه والمسلمين » .

ثم يلى ذلك الجملة الآتية « بسم الله الرحمن الرحيم قال فقير رحمة ربه أحمد بن محمد ابن على الحجازى الشافعى الأنصارى .... الخ » .

والبلقينى شخص آخر غير الحجازى ، وإن كان الاثنان من عصر واحد وتلميذين لابن حجر ، وقد يكون اسم البلقينى قد ذكر هنا خطأ ، أو أنه نقل ما كتبه ابن الحجازى فنسب الكتاب إليه .

---

(١) هذه النسخة التى كانت بمكتبة بلدية الإسكندرية كانت موضوعة تحت رقم ٤٠٣١ د ولكن لما يؤسف له أنها فقدت من هذه الدار ولم أتمكن من العثور عليها رغم المجهود الكبير الذى بذلته .

(٢) هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن البدر البلقينى ٨١٩ أو ٨٢١-٨٩٠ هـ .

ويذكر الحجازي عن سبب تأليف الكتاب « سألني بعض الأصدقاء من الحذاق أن أجمع في هذه الأوراق ما اشتمل عليه بحر النيل من الزيادة في كل عام من لدن الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وإلى حين وفاتي - وليذيل بعد من له إلام - مقتصرًا من ذلك على ذكر القاعدة ومبلغ انتهائه إذ الإطالة ليس فيها مزيد فائدة ، فأجبت بالسمع والطاعة فيما التمسه مني معتمدًا في ذلك على من شرفه ينظره أن يعتذر عني إذ لست - وإن كنت مصريًا - من أهل هذه الصناعة ، وإني لمن فن التاريخ ، بل من كل فن قليل البضاعة ، وشرعت في ذلك معتضدًا بمعرفة الله مستمدًا من فضل الإله وسميته « نيل الرائد في النيل الرائد » ١ . ويذكر أيضًا : أنه افتتح مؤلفه « بمقدمة ودعاء يحتاج إليها بعض من ينظر في هذا التصنيف في فضل مصر وأخبار تتعلق بالنيل » .

وقد اقتصرنا هذه النسخة على هذه المقدمة ، وفيها ينقل عن المسعودي ، والنويري ، وعز الدين بن جماعة ، كما أنه ينقل عن ابن عبد الحكم ، وإن لم يذكر ذلك .

فعن النويري ينقل أن مصر ذكرت في القرآن الكريم في أربعة وعشرين موضعًا ، منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير ، ويورد هذه الآيات الكريمة ، كما يذكر الأحاديث النبوية الخاصة بمصر ، ودعاء آدم لها ، وأنه أول من دعا لها بالرحمة والخصب ، وأن نوحًا جعل لولده حام مصر وسواحلها ، ثم جعلها بيصر ابن حام لابنه مصر ، فسميت باسمه ، وأن القبط ولد مصر هذا ، كما ينقل عن النويري ، والمسعودي بعض فضائل مصر .

وعن ابن عبد الحكم يروي ما ذكر من أن النيل من أنهار الجنة ، وأن الله سخر له باقي الأنهار .

ثم يذكر كتاب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب في وصف مصر ، وبعض الأوصاف الأخرى التي وردت في كثير من المراجع خاصة بمصر والنيل .

وينتقل بعد ذلك إلى فيضان النيل ناقلًا عن المسعودي ، ثم قصة عروس النيل التي ذكرها ابن عبد الحكم .

ويختم هذه المقدمة بفصل خاص عن منابع النيل ومجراه ومصبه ، وينسبه إلى عز الدين بن جماعة ، وقد تعرضنا لهذا الفصل من قبل عن الكلام عن مخطوط « منبع النيل » المنسوب ، للأفقيسي ، وبيننا أنه منقول أصلاً عن ابن سينا .

أما النسخة الأخرى فقد ذكر عنوانها كما يلي : « النيل في أحوال النيل للشهاب الحجازي وهذا الكتاب من العجائب والغرائب في نيل مصر عني الله عنه آمين » .



يلي ذلك صفحات ١ ب ، ٢ أ ، بها أسماء من تملكوا الكتاب ، ثم في ص ٣ أ ورد عنوان آخر هو «كتاب نيل الرائد في النيل الزائد فهرست النيل المبارك للشيخ شهاب الدين الحجازي المسمى بنيل الرائد من النيل الزائد » .

وتشتمل هذه النسخة على القسمين السابق ذكرهما ، ونلاحظ : أن خط القسم الأول يختلف اختلافاً بيناً عن خط القسم الثاني ، مما يدل على أن هذه النسخة تولاهما أكثر من ناسخ .

والقسم الأول هو اختصار شديد لما ورد في النسخة الأولى ، ثم يلي ذلك الفصل الرئيسي في هذا المؤلف عن أقصى ارتفاع وانخفاض للنيل منذ الهجرة حتى سنة ٨٧٤ هـ : وقد ذكر في أوله ما يلي : «بسم الله الرحمن الرحيم - فهرست مبارك يشتمل على زيادة النيل من الهجرة النبوية وإلى الآن جملة وتفصيلاً » .<sup>١</sup>

وقد بدأه بنبذه عن المقاييس قبل وبعد الإسلام ، لا تخرج عما ذكره غيره ، إلا أنه يذكر : أن عمود مقياس أسامة بن زيد مدور ، وفي ذلك تأكيد للرأي القائل : إن عمود مقياس أسامة غير عمود مقياس المتوكل ٢ ، كما أن القلقشندي ، وابن أبيك ، والمقرئزي ، وغيرهم من المؤلفين يذكرون أن الذراع في مقياس المتوكل مقسم إلى ٢٨ إصباعاً حتى الذراع الثاني عشر ، وما يلي ذلك مقسم إلى ٢٤ إصباعاً ، في حين أن الحجازي يذكر : أنه من الذراع السادس عشر وإن كان مقسماً إلى ٢٤ إصباعاً ، إلا أنه في الحقيقة ٢٢ إصباعاً فقط .

وقد أشار ابن الحجازي أنه فيما أورده عن المقاييس ينقل عن «كتاب أخبار مصر وعجائبها » . وإن لم يذكر اسم مؤلفه ٣ .

ثم يتقل بعد ذلك إلى ذكر أعلى مستوى للنيل ، وأقل مستوى في كل سنة منذ السنة الأولى للهجرة حتى وفاته معتمداً على مرجع آخره سنة ٦٢٢ هـ وإن ذيل البعض عليه حتى وصل إلى الحجازي فذكر ما شاهده هو ٤ .

---

(١) انظر ص ٤ ب وما بعدها .

(٢) انظر الفصل الخاص بالمقاييس .

(٣) يذكر Popper أن مؤلف هذا الكتاب هو ابن وصيف شاه

Popper ; op. cit. p. 92 et Seq.

(٤) يقول في ص ٢٠ ب ، ٢١ أ «وقال كاتبه وجامعه أحمد بن الحجازي والتاريخ الذي نقلت هذا منه آخره سنة ٦٢٢ وما عدا ذلك مزيل عليه فإنه أحال في هذه المقدمة على هذا التاريخ فأردت أن أبين للمطالع فيه ذلك لئلا يلتبس عليه تاريخه بتاريخنا فإن غيره ذيل على تاريخه ، ثم ذيل على النيل إلى أن وصل إلينا فذيلنا » .

وقد أورد أولاً مجملًا لارتفاع النيل في السنين المختلفة حتى سنة ٦٢٢ هـ ، فيذكر السنين التي لم يوف فيها النيل ثلاثة عشر ذراعاً ، والسنين التي لم يوف فيها ١٤ ذراعاً ، والتي لم يوف فيها ١٥ ذراعاً ، والتي وفي فيها ١٥ ذراعاً ، والتي لم يوف فيها ١٦ ذراعاً ، والتي وفي فيها هذا المقدار ، ثم ذكر أن السنين التي بلغ فيها النيل أكثر من ١٦ ذراعاً كثيرة وأنه سيذكرها فيما بعد ، ثم يذكر السنين التي وفي فيها النيل ١٧ ذراعاً والتي زاد فيها عن ١٧ ذراعاً والسنين التي وصل فيها ١٨ ذراعاً والتي زاد فيها عن ١٨ ذراعاً والتي وفي فيها ١٩ ذراعاً ثم السنين التي بلغ فيها الارتفاع أصابع من الذراع العشرين ثم السنين التي أتم فيها العشرين ذراعاً وأصابع .

ثم يفصل بعد ذلك ما أجمله ، موضحاً في كل سنة الماء القديم ، وتاريخ الوفاء ، ومقدار الزيادة ، مع ذكر بعض الحوادث الهامة ، وقد وصل في ذلك حتى سنة ٨٧٤ هـ وإن لم يذكر فيها إلا الماء القديم فقط ، وأنه أخذ في يوم الأربعاء عشرين من ذي الحجة فكان ٦ أذرع وعشرين إصبعاً ولم يرد ذكر لتاريخ الوفاء ، مما يرجح وفاة المؤلف قبل هذا التاريخ ، أما سنة ٨٧٥ وإن كانت مذكورة إلا أنه لم يوضح فيها أية معلومات .

#### ٤ - الجوجرى

محمد بن عبد المنعم بن محمد بن محمد بن عبد المنعم أبى الطاهر إسماعيل الشمس بن نبيه الدين الجوجرى ، ثم القاهرى الشافعى ويعرف بين أهل بلده بابن نبيه الدين وفي غيرها بالجوجرى .

ولد سنة ٨٢١ أو سنة ٨٢٢ بجوجر ، وتحول منها إلى القاهرة حيث حفظ القرآن ودرس ، الحديث وألفية ابن مالك ، والنحو وتصدى للإفتاء ، وكان المجلى يرسل له الفضلاء للقراءة عليه في تصانيفه وغيرها ودرس بالجامع الأزهر . وكان له كثيراً من النظم والنثر ومات سنة ٨٨٧ هـ ١ .

والجوجرى لم يؤلف كتاباً في النيل ، ولكنه نظم شعراً ما كتبه أستاذه المجلى عن النيل في كتابه « مقدمة النيل السعيد » وتتألف هذه المنظومة من ١٢٥ بيتاً يتناول فيها ذكر مبدأ النيل ، وأنه من الجنة وظهوره من جبل القمر جنوب خط الاستواء ، ومسيرة سبعة أشهر منها أربعة في الخراب واثنان في النوبة ، وواحد في مصر ، ويصف دخول النيل مصر ماراً بالجنادل جنوب أسوان ومجراه في الصعيد حتى ينتهى عند دمياط ورشيد .

(١) السخاوى « الضوء اللامع » ج ٨ ص ١٢٣

على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٧٢

ثم يذكر زيادة النيل ، وأوانها ومدتها وما يطرأ على مائه من تغير قبل الزيادة ، وأنه إذا بلغ تسعة أذرع دخل المنهى والقيوم وسردوس ، وإذا بلغ ١٦ ذراعاً يروى مصر كلها ١ ، ثم يتكلم عن المقاييس ومحاسن مصر .

وتوجد نسخة من هذه المنظومة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٥٧٠ جغرافيا ، وقد كتبت في حياة صاحبها كما يظهر مما هو مدون في أولها وآخرها ، إذ ذكر في أول القصيدة ما يلي : « قال الشيخ الإمام ..... الجوجرى فسح الله في أجله » ثم جاء في آخر المنظومة « برسم شيخنا أطل الله بقاءه ونفعنا بعلومه ، كتبها داعياً لملكها بكل خير عبد الأصفر محمد محمد محمود الخطيب الشافعي في آخر جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ » .

#### ٥ - المتوفى المتوفى سنة ٩٣١ هـ

أحمد بن محمد بن محمد بن عبد السلام بن موسى الشهاب أبو الخير بن العز المتوفى الأصل القاهري الشافعي قاضي منوف ، ويعرف بابن عبد السلام . ولد سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٤ م) ونشأ في كنف أبيه ، حفظ القرآن والعدة ، والمنهاج وألفية ابن مالك ، وعرض على البوتيجي والمحلي ، وناب عن الزين زكريا في بلده منوف ، ثم عنه بالقاهرة مضافاً إلى منوف ، وعمل كتاباً في النيل وحج وجاور ، وجضر دروس البرهان بن ظهيره ، وجمع نبذة من فتاويه ، وولع بالنظم فأتى منه بقصائد وغيرها مع نثر جيد وخط حسن واستحضر لكثير من فروع الفقه ، ومن شرح مسلم وغيرها ، ومشاركة في كثير من الفضائل ، وسلامة فطرة ومحاسن ٢ .

والكتاب الذي ألفه ابن عبد السلام عن النيل ، وأشار إليه السخاوي هو كتاب « الفيض المديد في أخبار النيل السعيد » ، وقد فرغ منه في ١٩ من رمضان سنة ٨٨٠ هـ ٣ ، وفي الحقيقة لا يعتبر ابن عبد السلام المؤلف الأصلي لهذا الكتاب إذ إنه عمده إلى مؤلف آخر هو الجزء الثالث من كتاب « الروض النضر والزهر العطر للشيخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد الرشيدى » فاختصره وحذف منه ما رأى حذفه ، وأعاد ترتيبه وتبويبه مع بعض إضافات من عنده نتيجة إطلاعاته الخاصة بعد أن ميزها بذكر كلمة « قلت » في أولها وجملة « والله أعلم » في آخرها ٤ .

---

(١) يلاحظ أن هذا كلام المسعودي وإن الارتفاع المطلوب لرى الأرض يختلف في عصر المحلي والجوجرى عنه في زمن المسعودي .

(٢) السخاوي - الضوء اللامع ج ٢ ص ١٨١

(٣) انظر نسخة الاسكندرية ص ٧٢ ، ص ١٢٨

(٤) « » « » ص ٣

وقبل أن نتعرض لكتاب المنوفى نورد ترجمته ١ للرشيدي فيقول : « هو الشيخ الإمام العلامة زين الدين أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم بن لاجين الرشيدي الشافعي ولد سنة ٧٤١ ، وسمع بالقاهرة على جماعة منهم الميديمي ومحمد بن إسماعيل الأيوبي ، وبدمشق على ابن أميله وغيره ، وأجاز له جماعة منهم القلانسي ، وكان فرضياً حاسباً وحدث باليسير ، سمع منه الفضلاء ومن سمع عليه قاضى القضاة حافظ عصره شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر رحمه الله تعالى ، وترجم له في معجمه وتاريخه ، وقال : إنه لم يكن ماهراً ، توفي في مستهل جمادى الأولى سنة ٨٠٣ .

ولا زال كتاب الفيض المديد مخطوطاً لم ينشر ٢ بعد ، وتوجد منه ثلاث نسخ هي :

١ - نسخة بمكتبة البلدية بالإسكندرية تحت رقم ٢٥٩١ د. والمرجح أنها المخطوط

الأصلي ، إذ ذكر في نهايتها ٣ ما يأتي : « علقه جامعه ومؤلفه فقير رحمة ربه الراجي عفوه ومغفرته ، أحمد بن محمد بن عبد السلام المنوفى الشافعي ، عفا الله تعالى عنهم والمسلمين ، وفرغ منه يوم الثلاثاء المبارك تاسع عشر شهر رمضان .

ب - نسخة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٦٦ جغرافياً ، تمت كتابتها سنة ١١٥٤ هـ .

ج - نسخة ثالثة بدار الكتب أيضاً تحت رقم ٤٢٩ ، جغرافياً نقلها عبد الله بن يوسف الرشيدي سنة ١٢٥٢ هـ .

وستنخذ نسخة الإسكندرية أساساً للدراسة ، حيث إنها الأقدم إن لم تكن الأصل ، وهي تقع في ١٢٨ صفحة مكتوبة بخط نسخ جميل مقروء بالحبر الأسود ، عدا العناوين والفواصل بين الجمل وعلامات الشكل وبدايات الفصول وكلمة « قلت » فهي بالحبر الأحمر .

وقد رتب المنوفى كتابه على أربعة أبواب وخاتمة ، أهمها الباب الأول الخاص بالنيل ، فهو الأصل في تأليف الكتاب ، وما عداه أبواب مكملية ؛ أما الباب الثاني فعن الأنهار الأخرى التي يقال : إنها تخرج من الجنة ، والبابان الثالث والرابع عن الآثار القديمة كالأهرام والبرابي ، ويحتم الكتاب بذكر بعض النوادر ..

والباب الأول يشتمل على عشر فصول تناولت دراسة النيل من جميع نواحيه ، والفصل الأول خاص بالمنبع والمجرى والمصب ، ولو أن اهتمامه انصب على المنبع حيث

---

(١) نسخة الإسكندرية ص ٤

(٢) نشر الفصل الثاني من الباب الأول وترجمته الفرنسية « وهو الفصل الخاص بالفيضان »

بمعرفة الأب برجيس L'abbé Bargès

(٣) ص ١٢٨



ردد الأقوال التي حفلت بها المراجع العربية عن خروج النيل من جبل القمر ووصف هذه المنابع ، كما ذكر ما روى عن خروجه من الجنة ، والمنوفى لا يرى في الرأيين أى تعارض إذ كما يقول : « إن أصل النيل يخرج من الجنة من أصل سدرة المنتهى ، وأما الخلاف فإنما هو في تعيين المكان الذى ينبع منه من الأرض بعد خروجه من الجنة » .

ثم يذكر بعض ما قيل عن محاولات لاكتشاف منابع النيل ، وهى قصص خرافية حفلت بها المراجع العربية المختلفة ، وينقل رأى الشيخ عماد الدين بن كثير<sup>١</sup> في بعض هذه القصص وأنها من « خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين » . كما أن المنوفى يكذب قصة حائد ويرى أنه « لا يتردد في بطلان هذه الحكاية إلا جاهل لا يعلم ، أو متعصب من خطأ الحمية لا يسلم ، ومن له أدنى فهم يقطع ببطلانها ويمنع صحة إيرادها »<sup>٢</sup> .

أما وصف المجرى فعلى إيجازه له أهمية ، حيث إن صاحب الأصل (الرشيدى) نقل وصف ابن سليم الأسوانى لمجرى النيل في النوبة وعلوة ، وهذا الوصف هو الذى أورده المقرئى في خطه عن ابن سليم ، ولما كان المقرئى قد بدأ في تأليف الخط بعد وفاة الرشيدى لذلك يرجع الفضل للرشيدى في أنه أول من ذكر وصف ابن سليم هذا الذى يعتبر أول وصف عربى بنى على المشاهدة لمجرى النيل جنوب مصر ، ولعل المقرئى قد استعان هو الآخر بكتاب « الروض النضر والزهر العطر » .

ثم يتكلم الكتاب عن طول مجرى النيل ، وعرض هذا المجرى في النوبة ومصر . ويذكر افراق النيل في الدلتا عند شطونف إلى فرعى رشيد ودمياط ، وأن هذا الأخير يتفرع مرة أخرى عند جوجر إلى فرقتين ، فرقة تتجه إلى دمياط ، والأخرى تتجه شرقاً إلى أشمون طنح ، حيث يصب في بحيرة تينس وبحيرة دمياط .

أما الفصل الثانى فيتناول فيه فيضان النيل ، والأسباب المختلفة التى قيلت عن سببه ومدته ، وما قيل فيه من أشعار ، ويعارض المنوفى رأى صاحب الأصل من إمكان معرفة مقدار الزيادة من النظر في الكواكب ، ويرى : أن هذا من قبيل الخوض في المغيبات التى لا يعلمها إلا الله والتى لا يؤيدها الشرع .

والفصل الثالث في ذكر أسماء النيل المختلفة من يم وبحر وفيض ، وما يختص به على سائر الأنهار من خصائص وفضائل .

والفصل الرابع في وفاء النيل وما قالته الشعراء والأدباء فيه .

---

(١) هو المحافظ بن كثير ٧٠١-٧٧٤هـ (١٣٠١-١٣٧٣م)

(٢) ص ٢٢

والفصل الخامس تكلم فيه عن مقاييس النيل قبل وبعد الإسلام ، ولما كان طول العمود تسعة عشر ذراعاً ، فإن ابن الرداد — كما يقول المنوفى نقلاً عنه — كان يعرف ارتفاع الفيضان إذا زاد عن التسعة عشر ذراعاً بالنظر في الخط الكوفى الذى بدائر الفسقية .

ثم يعود فى الفصل السادس إلى مجرى النيل عند علوة ، وذكر النيل الأبيض والنيل الأخضر نقلاً عن ابن سليم .

وفى الفصل السابع يتكلم عن قانون الري ، ومقدار ارتفاع الفيضان اللازم لرى الأراضى فى زمن المسعودى ، وفى زمنه هو ، أى سنة ٨٨٠ هـ ، وأنه نظراً لارتفاع الأرض فى عصره لم تعد تروى إلا من أكثر من عشرين ذراعاً .

أما الفصل الثامن فقد خصصه لأقاليم مصر التى تروى منه ، وينقل فى ذلك عن ابن ممتى ، والفصل التاسع خاص بخراج مصر .

ثم ينتهى هذا الباب بالفصل العاشر فى ذكر مزروعات مصر ، وزهورها ، وورودها ، وطيورها ووصف عمرو بن العاص لها ، والأشعار التى قيلت فى محاسنها .

والكتاب — بصفة عامة — لم يأت بجديد ، إلا ما أورده صاحب الأصل — كما سبق القول — عن ابن سليم الأسوانى . أما غير ذلك فمجرد نقل عما سبق من مؤلفات ، وإن كان المنوفى يقف من بعضها ناقداً ، ومن البعض الآخر شارحاً .

ومن المؤلفين الذين استعان الرشيدى والمنوفى بمؤلفاتهم ، بطليموس والجاحظ ، وقدامة بن جعفر ، والمسعودى ، وابن زولاق ، وابن ممتى ، وابن وصيف شاه ، والأقفهسى .

#### ٦ — السيوطى عبد الرحمن بن الكمال

وللسيوطى أكثر من مؤلف فى النيل لازال مخطوطاً — منها :

أولاً — كتاب « كوكب الروضة » . وقد ألفه السيوطى سنة ( ٨٩٥ هـ — ١٤٨٩ م ) فى تاريخ جزيرة الروضة .

وتوجد منه أكثر من نسخة منها .

١ — نسخة فى دار الكتب بالقاهرة برقم ٢٦٣ جغرافيا ، نسخها محمد بن نعيم ابن محمد شرف الدين البلسى الحنفى سنة ١٠٠٦ هـ من نسخة لتلميذ السيوطى محمد بن على بن أحمد الداورى المالكى ، وهذا نقلها بدوره سنة ٩٢٠ هـ من النسخة الأصلية للمؤلف .

ب- نسخة أخرى في دار الكتب أيضاً رقمها ٢٦٤ جغرافيا ، كتبت في شوال سنة ١٢٧٢ هـ .

ح- نسخة في مكتبة الأزهر برقم ٣١٤ أباطة ٦٦١٤ ، كتبت سنة ١٠٠١ هـ .

د- نسخة ثانية في مكتبة الأزهر برقم ٣٣٦ أباطة ٦٦٣٦ كتبت سنة ١٣٠٥ هـ .

هـ - وتوجد نسخة من كوكب الروضة مترجمة إلى التركية مع مخطوط «شفاء العليل فيما ورد من أخبار النيل» لزين العابدين البكري الصديقي ، الموجود نسخة في مكتبة بلدية سوهاج والذي ستكلم عنه فيما بعد .

وقد اعتمدنا في دراستنا على النسخة الأولى ، وهي في ١٣٦ ورقة من القطع الكبير ، وتدل طريقة الكتابة على أن الكتاب تولاه أكثر من ناسخ ، قد يكون آخرهم محمد بن نعيم البلسي السابق ذكره .

ولما كان هذا الكتاب يتكلم عن جزيرة الروضة المشهورة برياضها وخضرتها ، فإن السيوطي يبدوّه بالتحدث عن الحضرة وحسنها ، وما ذكره الرسول في امتداحها ، ثم ينتقل إلى الكلام عن لفظ الروضة بمعناها العام ودلالاتها المختلفة ، وأشعار العرب والأمثال والأحاديث المتعلقة بالروضة عموماً .

ويتطرق بعد ذلك إلى التخصيص والتكلم عن روضة مصر ، وأنها الجزيرة التي بين مصر والجزيرة ، وأنها عرفت بالروضة من زمن الأفضل بن أمير الجيوش ، ويعرف معنى كلمة جزيرة ، وأن كل جزائر النيل في مصر حادثة في الإسلام ما عدا جزيرة الروضة ، ثم يبدأ بالأشعار التي قيلت فيها ، وذكر أخبار تاريخية مثل تحصن المقوقس بها عند الفتح الإسلامي ، ودل على شرف هذه البقعة بكون طائفة من أصحاب رسول الله حلوا بها ، ومشوا فيها بأقدامهم المباركة .

وذكر بناء دار الصناعة بها ، والحصن الذي بناه أحمد بن طولون ، وقلعة الملك الصالح ، وغير ذلك من البنايات والبساتين والجوامع ، التي أنشئت في العصور المختلفة . وكان لابد وهو يتكلم عن الروضة أن يتطرق إلى الكلام عن النيل ، ويبدأ بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الخاصة بالنيل ، ويذكر أسماءه المختلفة .

ثم يروي - كما يقول - « كلام الناس عن منبع النيل ومخرجه وزيادته » وينقل عن ابن عبد الحكم ، والمسعودي ، وابن زولاق ، والمقريزي ، وابن الجوزي ١ ،

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الملقب بالقرشي ٥١٠-٥٩٧ هـ ١١١٦-١٢٠٠ م ألف أكثر من كتاب من أهمها كتابه في التاريخ « المتظم وملتقط المتزم »

وعز الدين بن جماعة ، ما ذكروا عن منابع النيل ، ومجراه ، ومزاياه ، وعجائبه ،  
والمقاييس ، والوفاء ، ومن حضر كسر السد من ملوك الدولة المملوكية ، ويتضح :  
أن ملوك هذه الدولة لم يهتموا كثيراً بحضور هذا الاحتفال ، وخارج مصر ، ثم يتكلم  
عن خليج أمير المؤمنين ، وما قيل فيه من أشعار وقصة عروس النيل ، وجاء ببعض  
كتب البشارة بالوفاء من إنشاء ابن الصيرفي ، والقاضي الفاضل ، وابن نباته ، وابن  
عبد الظاهر وغيرهم . ثم ذكر قصص دفن يوسف في النيل وإلقاء موسى فيه .

كما ذكر حال النيل في السنين المختلفة ابتداء من سنة ٢٧٨ هـ ، وما تعرضت له  
مصر من مجاعات ، خاصة غلاء سنة ٤٦٦ هـ ، وغلاء سنة ٥٩٧ هـ في عهد العادل .

وينقل عن الشهاب الحجازي منظومة في المفاخرة بين النيل والبحر المالح ، ومفاخرة  
بين السماء والأرض . وجاء بعد ذلك بشعر كثير قيل في النيل ، وذكر ليلة النوروز  
والغطاس . ثم مناظرة بين الروضة ومصر من إنشاء الشريف صلاح الدين محمد بن أبي  
بكر السيوطي ١ .

وأورد السيوطي مقامة أنشأها هو في وصف الروضة وسماها «بلبل الروضة» .  
ومقامة أخرى في ذكر مصر ونيلها وروضها ، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الله  
بن عبد الظاهر (٦٢٠-٦٩٢ هـ) .

وأفرد فصلاً في ذكر الأزهار والفواكه والخضروات الموجودة في الروضة ، وفصل  
آخر عن السفن والسباحة ، وختم كتابه بفصل عن ذباب الروضة وأنواعه .

ثانياً - رسالة بعنوان «الكلام على النيل من كلام حافظ العصر ، ومحدثه ، وآخر  
المطلعين الشيخ جلال الدين السيوطي ، وهو جمع لانظير له لمن له خبرة بالاطلاع على  
التاريخ وعلم الهيئة» .

ويتكلم فيها عما ورد في النيل من آيات وأحاديث ، وعن منابعه وزيادته ، وهو  
لا يخرج عما جاء في حسن المحاضرة وكوب الروضة ، وختم رسالته بذكر قصة حائد .  
وتاريخ نسخ هذه الرسالة سنة ١٠٧٧ هـ ، ورقمها بدار الكتب : بلدان تيمور ١٢٩ ،  
في مجموعة واحدة مع مبدأ النيل على التحرير للمحلي .

ثالثاً - «بلبل الروضة» وهي مقامة أنشأها في وصف جزيرة الروضة ، أولها بعد  
بعد البسملة «وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين نطق الكتاب والسنة بأن أرض مصر

---

(١) هو محمد بن أبي بكر بن علي بن حسن بن مطهر بن عيسى بن جلال الدولة بن أبي  
الحسن الصلاح الحسن السيوطي ثم القاهري الشافعي ، ولد سنة ٧٨٢ هـ بأسيوط ومات سنة ٨٥٦ هـ .



أحسن البقاع ..... وشهد الحسن بأن الروضة منها كمر كز الدائرة ، فهي لها كالقطب  
والأساس .

وبلبل الروضة مقالة أدبية أكثر منها عملاً جغرافياً أو تاريخياً ، ويتكلم فيها عن  
محاسن الروضة شعراً ونثراً ، ثم يتحدث عن النيل وفضائله ، وذكره في القرآن والسنة ،  
وأنة المسخر له مياه الأرض جميعها تمده في زيادته ، وأنه في الجنة نهر العسل ، ثم  
يتكلم عن يوم الوفاء وأسماء يوم الزينة .

وتوجد من « بلبل الروضة » أكثر من نسخة منها :

(أ) نسخة ضمن مجموعة كتبت سنة ١١٥٨ هـ بدار الكتب بالقاهرة رقم ٢٠ م تاريخ .

(ب) نسخة ضمن مجموعة كتبت سنة ١١٧٦ هـ بمكتبة بلدية الإسكندرية رقمها ٣٢٣٠ ج

(ج) كما أن هذه المقامة ذكرت ضمن مخطوط « كوكب الروضة » كما ذكرنا من قبل .

ويتضح أن هذه المقامة قد ألفها السيوطي قبل تأليفه كوكب الروضة ، إذ يذكر  
في مؤلفه الأخير « ذكر المقامة التي أنشأتها أنا في وصف الروضة ، وسميتها بلبل  
الروضة » .

٧ - محمد الغزالي أو محمد المغربي : من أوائل القرن الحادي عشر الهجري  
ولهذا الكاتب - الغير معروف حقيقة اسمه - كتاب في النيل أسماه « تحفة الخليل في أخبار  
مصر والنيل » . توجد منه نسختان بمصر :

أ - الأولى ضمن مجموعة خطية بمكتبة الإسكندرية رقمها ٧٥٦ د . بعنوان « تحفة  
الخليل في أخبار مصر والنيل ، وقوانين الوزير وسياسة الملوك ، تأليف الشيخ محمد  
المغربي برسم الوزير الأعظم الوزير خضر باشا » .

ب - والثانية بمكتبة جامع الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية ٢ . وقد صورت على  
فيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالجامعة العربية رقم ٦١١ تاريخ . وعنوان  
هذه النسخة ورد كالاتي : « تحفة الخليل في أخبار مصر والنيل ، تأليف فقير  
رحمة ربه المتعالى محمد الغزالي ، برسم الوزير الأعظم والدستور الأفخم صاحب  
سعادة مصر خضر باشا » .

(١) ص ١٦٩

(٢) لم أتمكن من العثور على هذه النسخة بمكتبة الجامع نظراً للإهمال الشديد التي تعرضت  
له بما أدى إلى ضياع كثير من المؤلفات ، لذلك اعتمدت على الفيلم المصور بالجامعة العربية .

ولما كانت النسختان غير معروف تاريخ كتابتهما ، فلا يمكننا معرفة الأقدم منهما ، كما لا يمكننا معرفة الاسم الصحيح للمؤلف ، وإن كان الأستاذ بروكلمان يذكر محمداً الغزالي فقط ، ويعرفه بأنه كان كاتباً لخضر باشا ، حاكم مصر في عهد السلطان محمد الثالث .

ومخطوط بلدية الإسكندرية به نقص من الوسط ، والمخطوط الآخر به نقص في أوله ووسطه وآخره . ولكن بمطابقة المخطوطين ، ومحاولة معالجة النقص في أحدهما بالرجوع للآخر نخرج بالمعلومات الآتية : -

أولاً - عن تاريخ تأليف الكتاب ، نرجح : أنه في المدة بين ذى الحجة سنة ١٠٠٦ هـ ، والمحرم سنة ١٠١٠ هـ ، وهي مدة تولية خضر باشا حكم مصر .

ثانياً - يذكر المؤلف في مقدمة نسخة البلدية ١ ، أنه ألف كتابه في عهد السلطان أحمد الأول ٢ ، ولكن لما كان خضر باشا قد تولى حكم مصر في عهد السلطان محمد فقط ، كما أن المؤلف في الفصل الخاص بحكام مصر يذكر - في النسختين - أن سلطان عصره هو السلطان محمد ، فإنه يحتمل أن المؤلف ألف كتابه أولاً في عهد السلطان محمد وولاية خضر باشا ثم أعاد كتابته - أو على الأقل - أضاف اسم السلطان أحمد فيما بعد عقب ولايته السلطنة . أو تكون نسخة البلدية هذه قد نسخت في عهد السلطان أحمد ، وقد أضاف الناسخ اسم هذا السلطان في المقدمة ، وغفل عن إضافته في الفصل الخاص بالحكام .

أما عن موضوع الكتاب فإن المؤلف قد رتب على مقدمة وثلاثة أبواب .

أما المقدمة : فقد أفرد لها ملحق ملوك بني عثمان ، ووزير الديار المصرية ٣ .

والباب الأول : فيما جاء في فضل مصر وأقاليمها من الآيات والأحاديث والأخبار وغير ذلك .

والباب الثاني : في أعجب أعاجيبها وهو نهرها السعيد المبارك ، وما جاء فيه من الآيات والأحاديث والأخبار .

---

(١) هذه المقدمة ناقصة في أولها في النسخة الأخرى .

(٢) هو السلطان الرابع عشر من سلاطين آل عثمان ، ابن السلطان محمد الثالث . ولد سنة ٩٩٨ هـ - ١٥٨٩ م وتوفي سنة ١٠٢٦ هـ - ١٦١٧ م . وتولى الملك بعد وفاة أبيه سنة ١٠١٢ هـ .

(٣) الجزء الأخير من المقدمة ناقص في نسخة البلدية ، كما أن اسم الوزير في النسخة الأخرى غير مذكور ، بل ترك مكانه يابض .

الباب الثالث : في بقية عجائبها ، ومن تقلدها من الخلفاء والسلاطين إلى أيامه .

وقد ذكر في الباب الأول فضل مصر على كثير من البلاد ، ولذلك دخلها الأنبياء ، والمرسلون ، والصحابه ، والصديقون ، والعارفون بالله ، والمجتهدون ، والحكماء الأولون والعلماء العاملون ، وأن فيها مشاهد الأولياء الصالحين ، وأن الباني لمصر مصر بن بصر بن حام بن نوح .

وأورد الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية التي فيها ذكر مصر ، وأقوال الرواة مثل : عبد الله بن عمرو ، والاشعار التي قيلت في مدحها وفضلها .

وخصص الباب الثاني لنهر النيل ، وما قيل فيه من آيات وأحاديث ، وإن إدريس هو الذي نظم منابع النيل وأجراه إلى مصر ، وذكر قصة حائد المعروفة .

ثم يتكلم عن منابع النيل من جبل القمر ، وبحراه ، ومصبه ، في تنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية .

ويذكر أسباب الفيضان ، ووقته ومدته ، وأسباب تغير لون الماء إلى الاخضرار ثم احمراره ، .

وتكلم عن المقاييس قبل وبعد الإسلام ، إلا أنه نسب مقياس المتوكل بالروضة إلى أسامة بن زيد ، وذكر أن طول عموده الثمن ٢٢ ذراعاً ١ .

ثم ذكر سد خليج المؤمنين وقال : ولما أن فتح عمرو بن العاص مصر اختلف الناس في مكان السد يومئذ ، فمنهم من قال : عند قصر اللؤلؤة الذي كان على الخليج الحاكمي ، ومنهم من قال : كان عند بستان المحل الذي كان على الخليج أيضاً ، ومنهم من قال : كان عند قنطرة بني وائل التي تجاه المطرية .

والمعروف أن سد الخليج كان عند بدايته من النيل ، ولو أن المقدسي ذكر أن السد كان عند عين شمس أي عند المطرية .

أما عن أعياد الوفاء فقد نقل عن المقرئزي ، والسيوطي ، ما كان يعمل الخلفاء ، والملوك يوم فتح السد ، ولكنه لم يذكر لنا كيفية الاحتفال في عصره هو .

وذكر من خلجان النيل ثمانية هي : خليج الإسكندرية ودمياط ، ومنف ، والمنهي ، وأشمون طناح ومردوس ، وسخا و « خليج حفره عمرو بن العاص يجرى إلى أن يقف في السباخ » يعني خليج أمير المؤمنين .

---

(١) من المعروف أن طول عمود مقياس المتوكل ١٩ ذراعاً فقط . .

ونلاحظ : أن المؤلف ذكر خلجاً قد دثرت في عصره ، ولم يعد لها وجود وأغفل خلجاً أخرى كانت موجودة مثل خليج «أبو المنجا» .

ويستقل بعد ذلك إلى ذكر خواص النيل ، ومزاياه ، وما رواه ابن سينا في ذلك .

ويذكر المؤلف من الكتاب الذين اعتمد عليهم : المسعودي ، والقزويني ، وعز الدين ابن جماعة إلا أنه اعتمد على غيرهم وإن لم يذكرهم مثل ابن عبد الحكم ، والمقرئزي ، والسيوطي .

أما الفصل الثالث والأخير ، فيذكر فيه الخلفاء والسلاطين حتى عصره ، مبتدئاً بعمر بن الخطاب ، ومنتهاً بالسلطان محمد الثالث العثماني . وقد اكتفى بسرد أسماء الخلفاء ، والملوك والسلاطين ، فقط دون ذكر أسماء ولاية مصر الذين تولوها من قبل هؤلاء الخلفاء .

ويختتم مؤلفه بفصل في «القوانين التي تستقيم بها أمور سعادة صاحب مصر» ، ويمدحه الخاص والعام ، ويرضى عنه سلطانه . ويبين الخصال والشروط الواجب توفرها فيمن يتولى إدارة مصر من الولاة ، وتتلخص في أن يكون أميناً مهاباً عادلاً نجباً للعلماء متواضعاً صالحاً .

#### ٨ - محمد بن زين العابدين البكري الصديقي

هو الأستاذ زين العابدين محمد بن محمد ، بن الشيخ أبي المكارم محمد ، أبيض الوجه البكري الصديقي ولد سنة ١١٦٠ هـ وتوفي سنة ١١٧٠ هـ .

ولزين العابدين مؤلف في الفيل أتمناه «شفاء الليل» فيما ورد في أخبار الليل .

وتوجد نسخة لهذا المخطوط بمكتبة البلدية بشوهاج تحت رقم ٣٠٠ جريد وقد صورت على فيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالجامعة العربية رقم (٢٠٧٠٤٣) ٢٠٠٠

وقد ألف الكتاب برسم «إبراهيم باشا» والى مصر ، ويذكر المؤلف في أن شنب تآليفه أنه حضر مجلس إبراهيم باشا في قرى ميدان ، وكان يجلسه جماعة من العلماء ، ونجا في الحديث السؤال عن «النيل الشريد» ومن أين ينبؤه ، ومطيره وانبهاؤه ، ومن أي شيء ينقص ويزيد ، فكل تكلم في ذلك على قدر فهمه ، وما فتح الله به غلظه من مزيلة علمه فأجيب أن أولف رسالة جامعة الأخبار مشتملة على الأجاديث الصريحة والحسنة ، وما يستعمل به في الفضائل .

(١) الجبرقي ج ١ ص ٦٦

(٢) اعتمدت في دراستي على الفيلم المصور



ولم يوضح لنا المؤلف من هو إبراهيم باشا الذى يعنيه ، أهو إبراهيم باشا الصوفى الذى كان واليا على مصر فى المدة من ١٠٧٧-١٠٧٩ هـ ، أو الكتخدا إبراهيم باشا ، وكانت ولايته من ١٠٨٠-١٠٨٤ هـ ، وإن كنا نرجح الأخير حيث يكون المؤلف قد بلغ مبلغ الرجال فى ذلك الوقت . والنسخة التى لدينا تاريخها سنة ١١٠٣ هـ ، وبذلك تكون منسوخة عن الأصل فى حياة المؤلف إذ ذكر فى نهايتها ما يلى «مولانا محمد أفندى بن المرحوم الشيخ زين العابدين البكرى الصديق سبط آل الحسن متع الله الوجود بطول حياته ، ومن الله علينا بشرف بقاءه وبقاء شرفه إلى يوم الدين » .

أما عن خطته فى التأليف فقد تتبع كما يقول « ما تتابعت به الآثار واتبعت فيها أقوال الأئمة الأعلام ، وعدلت عن أكثر مقالات أهل التاريخ ، مما أطالوا به من الكلام ، وعزوت كل قول إلى قائله ، وكل حديث إلى راويه وناقله » .

وقد رتب الكتاب على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة ؛ أما المقدمة ؛ فقد ذكر فيها آيات قرآنية عن الماء ، وأنه أساس الحياة ، وبدأها بقوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الأبواب » ١ . وقد توسع فى شرح كلمة ينبوع .

وخصص الباب الأول لذكر الأحاديث النبوية الخاصة بالنيل ، وخروجه من الجنة ؛ ولا تخرج عما ذكره غيره من الكتاب .

وتكلم فى الباب الثانى عن منابع النيل من جبل القمر ، وبحيراته الثلاث ومجراه وتفرعه فى الدلتا إلى فرعى رشيد ودمياط ، كما ذكر قصة حائد وغيرها من القصص التى ذكرت عن محاولات اكتشاف منابع النيل .

والباب الثالث ذكر فيه فيضان النيل ، والآراء التى قيلت فى سبب الفيضان مثل رواية كعب الأحبار ، وعبد الله بن عمرو ، ووقوف الريح فى وجه النيل كالسد ، وهبوب ريح الملتن التى تمطر خلف خط الاستواء .

ونلاحظ أن المؤلف لم يذكر السبب الحقيقى للفيضان ، وهو أمطار الحبشة مع أن هذا كان معروفا لدى الكتاب العرب ، وذكره الأقفهى الذى كان ضمن مراجع المؤلف . أما الخاتمة ففما اختصت به مصر من الفضائل وماورد فيها من الآيات والأحاديث ومن دخلها من الأنبياء . وقد اعتمد المؤلف بوجه خاص على مؤلفات الأقفهى والمحلى ، كما ينقل أيضاً عن ابن عبد الحكم والتيفاشى ، والمقرئزى ، والسيوطى .

#### ٩ - مؤلف مجهول

رسالة غير معروف مؤلفها ولا تاريخ تأليفها : وهذه الرسالة مثل رسالة ابن رضوان تحاول التنبؤ بحال الفيضان من زيادة أو نقص ، وعلاقة ذلك بيوم نزول النقطة .

فالمؤلف جعل لكل يوم من أيام الأسبوع كوكباً خاصاً ، فالأحد كوكب الشمس ، والاثنين القمر ، والثلاثاء كوكب المريخ ، والأربعاء عطارد ، والخميس المشتري ، والجمعة الزهرة ، والسبت زحل ، وربط بين ليلة نزول النقطة ، وبين ما سيكون عليه ارتفاع الفيضان ، وما ستعرض له البلاد من غلاء أو رخاء ،

ويتبين أن الارتفاع المناسب للرى - وقت تأليف هذه الرسالة - هو اثنان وعشرون ذراعاً حيث يذكر المؤلف أن السنة التي يبلغ فيها النيل هذا القدر تكون سنة رخاء .

وعلى ذلك نرجح : أن هذه الرسالة ألقت بعد القرن العاشر حيث صار الفيضان المناسب هو ما بلغ الاثنين وعشرين ذراعاً .



المراجع





## المراجع العربية

### أ - الكتب الدينية

— القرآن الكريم

— الكتاب المقدس — العهد القديم طبع بنفقة جمعية الكتاب المقدس القاهرة

— صحيح البخارى ٩ أجزاء طبع القاهرة المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٠ هـ

— صحيح مسلم ١٨ جزءاً طبع القاهرة المطبعة المصرية سنة ١٩٢٩ م

### ب - المخطوطات

١ — ابن أبيك (أبو بكر بن عبيد الله أبيك صاحب صرخد) (توفى بعد سنة ٨٧٣٥ هـ)

— « درالتيجان و غررتوارىخ الزمان » نسخة فى أربع مجلدات ، مأخوذة بالتصوير الشمسى عن النسخة الخطية ، بخط يوسف بن عثمان الحميرى ، المحفوظة بمكتبة السلطان أحمد خان بالآستانة .

دار الكتب بالقاهرة : ٢٦٠٥ تاريخ .

٢ — ابن رضوان : على بن رضوان بن على بن جعفر المصرى ت ٤٦٠ هـ — ١٠٦٨ م

— « فوائد شتى فى زيادة النيل ونقصه على الدوام » ، نسخة كتبت سنة ١٣٤٥ هـ .  
بمكتبة جامعة الإسكندرية : ٢٥ مخطوطات .

٣ — الأقفهسى (أبو العباس أحمد بن عماد الدين) ت سنة ٨٠٨ هـ

— « نيل مصر وأهرامها » ، نسخة فرغ منها فى رمضان سنة ٧٨٠ هـ .

بمكتبة بلدية الإسكندرية ضمن مجموعة تحت رقم : ١٦٢٧ ب .

— « رسالة فى نيل مصر » نسخة فى مجموعة ذكر عنها « هذا الكتاب

يلذكر فيه خبر النيل من أين يخرج من الأرض ، وفى أى مكان يذهب ، وسبب

تكرره وخضرته في أيام زيادته وفي أى مكان تذهب زيادته إذا نقص « . فرغ  
من نسخها سنة ١٠٣٨ هـ مكتبة بلدية الإسكندرية ٧٥٦ د

— كتاب في ذكر بحر النيل وما يتعلق به ، نسخة كتبت سنة ١١٠٩ هـ  
مكتبة الأزهر ٢٠٧ الإمبابي ٤٨٨١٥ .

— القول المفيد في النيل السعيد ، نسخة في سنة ١٢٦٦ هـ . مكتبة بلدية  
الإسكندرية : ٤٩٣٩ د .

٤ — البكرى الصديق ( شمس الدين محمد بن الشيخ أبى السرور ) ت : ١٠٦٠ هـ —  
١٦٥٠ م .

— « الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة » مخطوط مصور من  
مكتبة عمر طوسون ، وقد فرغ من نسخه في آخر يوم من ذى الحجة سنة ١٠٥٥ هـ  
بقلم عبد الجواد بن علي الإيباري في حياة المؤلف .  
نسختان في مكتبة بلدية الإسكندرية : ٤٣٩٤ ب ، ٤٣٩٦ ب .

— « قطف الأزهار من الخطط والآثار » نسخة في مجلد مخطوطة بقلم  
معتاد مكتوبة بخط إبراهيم الإبيهي ، فرغ من كتابتها في غاية شهر ربيع الآخر  
سنة ١١٣٤ هـ . دار الكتب بالقاهرة : ٤٥٧ جغرافياً .

٥ — البكرى الصديق ( محمد بن زين العابدين ) ١٠٦٠—١١٠٧ هـ .

— « شفاء الليل فيما ورد من أخبار النيل » فرغ منها سنة ١١٠٣ هـ ،  
صور على فيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية . بالجامعة العربية عن نسخة مكتبة  
بلدية سوهاج : فيلم ٥٠٧ ( ٥٤٣ ) .

٦ — الجوجرى ( شمس الدين محمد ) المتوفى سنة ٨٨٧ هـ .

— « منظومة الجوجرى » فرغ منها سنة ٨٨٥ هـ ، دار الكتب : ٥٧٠  
جغرافياً .

٧ — الحجازي ( شهاب الدين أحمد ) ت ٨٧٥ هـ .

— « نيل الرائد في النيل الزائد » نسخة مصورة منقولة عن نسخة تاريخها  
سنة ١١١٢ هـ ، دار الكتب : بلدان لتي مور ١٨٨ .

وتوجد نسخة أخرى بدار الكتب أيضاً : بلدان لتي مور ١٣٦ .

٨ — السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن الكمال) ت : ٩١١ هـ

— « كوكب الروضة » أربعة نسخ :

نسخة كتبت سنة ١٠٠٦ هـ دار الكتب ٢٦٣ جغرافياً .

نسخة كتبت سنة ١٢٧٢ هـ دار الكتب ٢٦٤ جغرافياً .

نسخة كتبت سنة ١٠٠١ هـ مكتبة الأزهر ٣١٤ أباطة ٦٦١٤

نسخة كتبت سنة ١٣٠٥ هـ مكتبة الأزهر ٣٣٦ أباطة ٦٦٣٦

— « الكلام على النيل » ، رسالة نسخ سنة ١٠٧٧ هـ دار الكتب بلدان

تيمور ١٢٩

— « بلبل الروضة » مقامة في وصف جزيرة الروضة ، نسختان ؛

الأولى نسخ سنة ١١٥٨ هـ ، دار الكتب ٢٠ م تاريخ

— الثانية نسخ سنة ١١٧٦ هـ ، ضمن مجموعة بمكتبة بلدية الإسكندرية ٣٢٣٠ ج .

٩ — الشيال ( جمال الدين . دكتور ) « معجم السفن العربية .

١٠ — الغزالي أو المغربي ( محمد ) من علماء أوائل القرن الحادي عشر الهجري

— « تحفة الخليل في أخبار مصر والنيل » نسختان بدون تاريخ .

الأولى ذكر أن مؤلفها « محمد الغزالي » ، مصورة على فيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالجامعة العربية رقم ٦١١ تاريخ — عن نسخة بمكتبة جامع الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية .

والنسخة الثانية ذكر أن مؤلفها ( محمد المغربي ) ضمن مجموعة بمكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٧٥٦ د .

١١ — قاضي المتزلة ( معروف بن أحمد ) القرن العاشر الهجري .

— عجائب الأخبار عن مصر الأمصار ، نسخة بدون تاريخ بمكتبة

الأزهر ٣٢٠ — ٦٦٢٠ تاريخ .

١٢ — قدامة بن جعفر ت : ٣٣٧ هـ

— « الجراج وصناعة الكتابة » نسخة مصورة تصوير المطبعة السلفية بمصر .

مكتبة بلدية الإسكندرية ٩٤٢٦ ج .



- ١٣ - المنوفى (أبو العباس أحمد بن محمد) ت ٩٣١ هـ .  
 - الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد ، ثلاث نسخ .  
 الأولى بدون تاريخ بمكتبة البلدية بالإسكندرية ٢٥٩١ د  
 والثانية نسخت سنة ١١٥٤ هـ دار الكتب ٦٦ جغرافيا  
 والثالثة نسخت ١٢٥٢ هـ دار الكتب ٤٢٩ جغرافيا
- ١٤ - مؤلف مجهول .  
 - « رسالة تتضمن التنبؤ عن مقدار زيادة النيل » نسخة كتبت حوالى  
 سنة ١٠٧٤ أو بعدها ضمن مجموعة بمكتبة بلدية الإسكندرية رقم ١٧٥٧ ب .
- ١٥ - مؤلف مجهول  
 - « منبع النيل » رسالة صغيرة ناقصة لم يذكر مؤلفها ، وقيل عن مؤلفها  
 لعله الأقفهىسى - مكتبة البلدية بالإسكندرية ضمن المجموعة ١٦٢٧ ب .  
 ح - المطبوعات
- ١ - ابن إياس (محمد بن أحمد)  
 - « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » . ج ١ المطبعة الأميرية سنة ١٣١١ هـ .  
 - صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور من سنة ٨٥٧ إلى  
 سنة ٨٧٢ هـ ، نشر الدكتور محمد مصطفى طبع مصر سنة ١٩٥١ .
- ٢ - ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد)  
 - « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » جزءان ، مطبعة  
 التقدم بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .
- ٣ - ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو الحاسن يوسف)  
 - « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ج ١ طبع دار الكتب  
 سنة ١٩٢٩ . ج ٢ سنة ١٩٣٠ ، ج ٤ سنة ١٩٣٣
- ٤ - ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد)  
 - « رحلة ابن جبير » بغداد سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .
- ٥ - ابن الجيعان (شرف الدين يحيى بن المقر)  
 - « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » بولاق سنة ١٨٩٨ مع مقدمة  
 بالفرنسية بقلم الدكتور موريس مدير دار الكتب .

٦ - ابن حوقل ( أبو القاسم محمد )

- « كتاب صورة الأرض » ليدن الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٨ القسم الأول

٧ - ابن خرداذبة ( أبو القاسم عبيد الله بن أحمد )

- « المسالك والممالك » المجلد السادس من المكتبة الجغرافية ، طبع  
ليدن سنة ١٣٠٦ هـ سنة ١٨٨٩ م .

٨ - ابن خلدون ( عبد الرحمن ) .

- « تاريخ ابن خلدون » ( المقدمة ) أى ج ١ بيروت الطبعة الثانية  
سنة ١٨٨٦ :

٩ - ابن دقماق ( إبراهيم بن محمد بن أيمن العلأى )

- « كتاب الانتصار بواسطة عقد الأمصار » الجزء الرابع والخامس ،  
بولاى سنة ١٣٠٩ هـ .

١٠ - ابن رسته ( شهاب الدين أحمد بن عمر )

- « الأعلاق النفسية » المجلد السابع من المكتبة الجغرافية ، طبع ليدن  
سنة ١٨٩١ م .

١١ - ابن سيرايون ( يحيى ) ويعرف بسهراب .

- « عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمور » طبع فيناسينة ١٩٢٩ .  
مع مقدمة وملاحظات بالإلمانية للمستشرق هانس فون ماثريك .

١٢ - ابن شاهين الظاهرى ( غرس الدين خليل ) .

- « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » طبع بباريس سنة ١٨٩٤ .  
عنى بتصحيحه بولس راويس .

١٣ - ابن عبد الحكيم ( أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله )

- فتوح مصر وأخبارها ، طبع ليدن سنة ١٩٢٢ نشر تورى Torrey

١٤ - ابن الفرات ( ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم )

- تاريخ ابن الفرات ، مطبوعات الجامعة الأمريكية بيروت - المطبعة  
الأمريكانية بيروت سنة ١٩٣٨ . المجلد التاسع الجزء الأول نشر الدكتور

قسطنطين رزيق ، الجزء الثاني نشر الدكتور قسطنطين رزيق ، والدكتورة نجلا عز الدين .

١٥ - ابن فضل الله العمرى ( شهاب الدين أبو العباس أحمد )

- « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » الجزء الأول نشر أحمد زكى

مطبعة دار الكتب القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٤ م .

١٦ - ابن الفقيه ( أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني )

- « مختصر كتاب البلدان » المجلد الخامس من المكتبة الجغرافية ، طبع

ليدن سنة ١٣٠٢ هـ سنة ١٨٨٥ م .

١٧ - ابن مماتي ( أبو المكارم أسعد )

- « كتاب قوانين الدواوين » نشر الأستاذ عزيز سوريال عطية ، مطبعة

مصر سنة ١٩٤٣ .

١٨ - ابن الوردي ( سراج الدين أبو حفص عمر )

- « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٣٥٨ هـ

سنة ١٩٣٩ م . صحح بمعرفة أحمد سعد علي .

١٩ - أبو صالح الأرمني ( أبو المكارم جرجس بن مسعود )

- « تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني » اكسفورد سنة ١٨٩٥ .

٢٠ - أبو الصلت ( أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت )

- « الرسالة المصرية » ضمن المجموعة الأولى من نواذر المخطوطات تحقيق

عبد السلام هارون طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ .

٢١ - أبو الفدا ( السلطان عماد الدين إسماعيل صاحب حماه )

- « تقويم البلدان » طبع باريس سنة ١٨٤٠ . تصحيح رينور البارون

مالك كوكين ديسلان .

٢٢ - الإدريسي ( أبو عبد الله محمد )

- « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » مختصر من نزهة

المشتاق نشر دوزي ودوي غوي طبع ليدين سنة ١٨٦٦ .

٢٣ - الإسحاق المتوفى ( محمد بن عبد المعطى )

- « كتاب أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول » طبع

مصر سنة ١٣٠٣ هـ .

- ٢٤ - الإصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد القارمى) .  
 - « مسالك الممالك » المجلد الأول من المكتبة الجغرافية ، طبع ليدن سنة ١٩٢٧ .
- ٢٥ - البغدادى (عبد اللطيف بن يوسف)  
 - « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » مطبعة وادى النيل بالقاهرة ، طبعة أولى سنة ١٢٨٦ هـ .
- ٢٦ - البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز)  
 - « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » وهو جزء من كتابة « المسالك والممالك » نشر دى سنان طبع سنة ١٩١١ .
- ٢٧ - البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود)  
 - « فتوح البلدان » نشر الأستاذ رضوان محمد رضوان سنة ١٩٣٢ .
- ٢٨ - الجبرقى (عبد الرحمن)  
 - « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ٤ أجزاء القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ .
- ٢٩ - رحتى (فيليب) وآخرون .  
 - « تاريخ العرب مطول » ، ٣ أجزاء ، دار الكشاف بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢ .
- ٣٠ - حسن (زكى محمد - دكتور)  
 - « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » ، القاهرة سنة ١٩٤٥ .
- ٣١ - الحموى (محمد ياسين)  
 - « تاريخ الأسطول العربى » ، دمشق سنة ١٩٤٥ .
- ٣٢ - الحموى (ياقوت)  
 - « معجم البلدان » ٤ أجزاء طبعة ليدن من سنة ١٨٦٦-١٨٦٩ .
- ٣٣ - الخوارزمى (أبو جعفر محمد بن موسى)  
 - « خزانة الأعين من المدن والبلدان والبحار والجزائر والأنهار » طبع فينا سنة ١٩٢٦ م سنة ١٣٤٥ هـ .
- ٣٤ - الدمشقى شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبد الله محمد أبى طالب الأنصارى)  
 - « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » طبع ليبك (ألمانيا) سنة ١٩٢٣ .



- ٣٥ - زيادة (محمد مصطفى - دكتور )  
- « المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى » ( القرن التاسع الهجرى ) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٩ .
- ٣٦ - سامى ( أمين باشا )  
- « تقويم النيل » المقدمة ( المطبعة الأميرية ١٣٣٤ ١٩١٦ م )
- ٣٧ - السخاوى ( محمد بن عبد الرحمن )  
التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٨٩٦ .
- ٣٨ - السيوطى ( عبد الرحمن )  
- « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » جزءان ، مطبعة الموسوعات ،  
بالقاهرة سنة ١٣٢٧ هـ .
- ٣٩ - طوسون ( عمر )  
- « مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » ، طبع سنة ١٩٣١ م  
- خليج الإسكندرية القديم وترعة الحمودية ، طبع سنة ١٩٤٢ م .
- ٤٠ - طوقان ( قدرى حافظ )  
- « تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك » ، مطبعة المقتطف  
بالقاهرة سنة ١٩٤١ م .
- ٤١ - الطهطاوى ( رفاعة رافع )  
- « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل » ، الجزء  
الأول بولاق سنة ١٢٨٥ هـ .
- ٤٢ - العقاد ( عباس محمود )  
- « أثر العرب فى الحضارة الأوربية » دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٤٦ .
- ٤٣ - عنان ( محمد عبد الله )  
- « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » الطبعة الأولى القاهرة  
سنة ١٩٣١ .
- ٤٤ - الغزولى ( علاء الدين على بن عبد الله البهائى )  
- « مطالع البدور فى منازل السرور » جزءان ، طبع مصر سنة ١٢٩٩ هـ

- ٤٤ - الفلكي (محمود باشا)  
 - «رسالة في المقاييس والمكايل العملية بالديار المصرية» مطبعة الجوائب  
 بالآستانة سنة ١٢٩٠ هـ .
- ٤٦ - فوزى (حسين - دكتور)  
 - حديث السندباد القديم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة  
 سنة ١٩٤٣ م .
- ٤٧ - قدامة بن جعفر .  
 - «نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، مع كتاب المسالك والممالك  
 لابن خرداذبة ليدن سنة ١٣٠٦ هـ سنة ١٨٨٩ م .
- ٤٨ - القرمانى الدمشقي (أبو العباس أحمد جلي)  
 - «أخبار الدول وآثار الأول ، وهو مختصر تاريخ الجنابي المتوفى  
 سنة ٩٩٩ هـ . طبع حجر بمدينة بغداد سنة ١٢٨٢ هـ .
- ٤٩ - القزويني (زكريا بن محمد بن محمود)  
 - «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» نسخة بدون تاريخ .
- ٥٠ - القلقشندي (أحمد بن علي)  
 - «صبح الأعشى» طبع المطبعة الأميرية ، ج ٣ ، ج ٤ سنة ١٩١٤ ،  
 ج ٨ سنة ١٩١٥ .
- ٥١ - الكندي المصري (أبو عمر محمد بن يوسف)  
 - «كتاب الولاية وكتاب القضاة» مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت  
 سنة ١٩٠٨ م .
- ٥٢ - الماوردي (علي محمد بن حبيب المصري البغدادى)  
 - «الاحكام السلطانية» مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٠٩ م .
- ٥٣ - مبارك (علي باشا)  
 - «نخبة الفكر في تدبير نيل مصر» الطبعة الأولى سنة ١٢٩٧ هـ .  
 - «الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءاً بولاق سنة ١٣٠٦ هـ .

- ٥٤ - المحلى (جلال الدين محمد بن أحمد)
- « مقدمة النيل السعيد وشرح أحواله وذكر عجائبه وغرائبه ومن أين يجيء وإلى أين ينتهى » المطبعة الوهية بالقاهرة سنة ١٢٨١ هـ .
- ٥٥ - محمد عوض محمد - دكتور .
- « السودان الشمالى سكانه وقبائله » مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٩٥١ م .
- ٥٦ - مختار (محمد باشا)
- رسالة فى تحديد أطوال المقاييس والموازين والمكاييل المستعملة فى مصر بولاق سنة ١٨٩١ م .
- ٥٧ - المسعودى (على بن الحسن بن على)
- « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، باريس المطبعة الإمبراطورية .
- ٥٨ - المقدسى المعروف بالبشارى (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد)
- « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ليدن الطبعة الثانية سنة ١٩٠٩ م .
- ٥٩ - المقرئى (تقى الدين أحمد بن على)
- « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » جزءان طبع بولاق سنة ١٢٧٠ هـ .
- « إغاثة الأمة بكشف الغمة » القاهرة سنة ١٩٤٠ .
- « السلوك لمعرفة دول الملوك » القاهرة سنة ١٩٤١ .
- ٦٠ - مؤلف مراكشى مجهول من كتاب القرن السادس الهجرى .
- « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، المطبوع - ١٠ كلية الآداب جامعة الإسكندرية سنة ١٩٥٨ .
- ٦١ - النابلسى الصفدى الشافعى (أبو عثمان)
- « تاريخ القيوم وولادته » ، بولاق من سنة ١٨٩٨-١٨٩٩ م .
- ٦٢ - النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)
- « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، ١٥ ج ١٥ طبع دار الكتب سنة ١٩٢٣ ، ج ١٥ طبع دار الكتب سنة ١٩٤٩

٦٣ - اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) .

- كتاب البلدان ، طبع ليدن سنة ١٨٩٠ م .

- تاريخ اليعقوبى ، جزءان طبع سنة ١٨٨٣ ليدن .

د - دواوين الشعر

١ - ابن الساعاتى (بهاء الدين أبو الحسن على بن رستم)

- « ديوان ابن الساعاتى » ، تحقيق أنيس المقدس ، الجامعة الأمريكية

بيروت سنة ١٩٣٨ .

٢ - ابن قلاقس (أبو الفتح نصر الله) .

- « ديوان ابن قلاقس » ، نشر خليل مطران سنة ١٩٠٥ . و

٣ - « ابن نباته المصرى » (جمال الدين)

- « ديوان ابن نباته » ، مصر الطبعة الأولى سنة ١٩٠٥ .

٤ - ابن هانى الأندلسى (أبو القاسم محمد)

- ديوان أبو القاسم محمد بن هانى « الأزدي الأندلسى » ، بيروت

سنة ١٨٨٦ .

٥ - أبو نواس

- « ديوان أبو نواس » ، ضبط وشرح أحمد عبد المجيد الغزالى القاهرة

سنة ١٩٥٣ .

٦ - الأعشى .

- « ديوان الأعشى الكبير » شرح دكتور محمد حسين القاهرة مكتبة

الآداب سنة ١٩٥٠ .

٧ - أيدمر المحيوى .

- مختار من ديوان علم الدين أيدمر المحيوى نشر دار الكتب سنة ١٩٣١ م .

٨ - البارودى (محمود باشا سامى) .

- « ديوان البارودى » جزءان ، ضبطه وصححه الأستاذ على الجارم

وآخر مطبعة دار الكتب سنة ١٩٤٢ .



٩ - البهاء زهير

- « ديوان البهاء زهير » بلون تاريخ.

١٠ - حافظ إبراهيم .

- « ديوان حافظ إبراهيم جزءان » صححه أحمد أمين وآخرون ،  
مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٣٩ .

١١ - شوقي (أحمد)

- الشوقيات أربعة أجزاء ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٥٨ .

هـ - الدوريات

١ - بدر (جمال مرسي - دكتور)

- « نهر النيل في تاريخ الفكر الجغرافي » مقالة في المجلة عدد أكتوبر  
سنة ١٩٥٧ :

٢ - حزين (سليمان أحمد - دكتور)

- « البيئة والموقع الجغرافي وأثرهما في تاريخ مصر العام » بحث مستخرج  
من مجلة الجمعية الجغرافية الملكية المصرية المجلد العشرين سنة ١٩٤٢ .

٣ - حسن (زكي محمد - دكتور) وآخرون .

- « في مصر الإسلامية » مطبعة المقتطف والمقطم القاهرة سنة ١٩٣٧ .

٤ - رزقانه (إبراهيم أحمد - دكتور)

- « قمة دلتا النيل وتغير موضعها منذ أقدم العصور البشرية حتى الوقت  
الحاضر » بحث بمجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية المجلد الرابع سنة ١٩٤٨ :

٥ - الشيال (جمال الدين - دكتور)

- « الاحتفال بوفاء النيل في مصر الإسلامية » الثقافة العدد ١٤٠ ،  
سبتمبر سنة ١٩٤١ .

- « طريقة مسح الأراضي وتقرير الخراج في مصر الإسلامية » الثقافة العدد  
٩٧ نوفمبر سنة ١٩٤٠ :

- « الروك الناصري » الثقافة العدد ٩٩ سنة ١٩٤٠

٦ - محمد عوض محمد - دكتور .

- « نهر النيل في الأدب » مقالة بالمجلة عدد أغسطس سنة ١٩٥٧ .

## و — المؤلفات العربية

- ١ — آدم متر :  
— « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى » ، الجزء الثانى ،  
تعريب الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريده . القاهرة سنة ١٩٤٠
- ٢ — أرتين ( يعقوب باشا )  
— « الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية » ترجمة سعيد عمون ،  
بولاى سنة ١٣٠٦ هـ .
- ٣ — بتلر ( الفردج )  
— « فتح العرب لمصر » تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، مطبعة  
دار الكتب سنة ١٩٣٣ .
- ٤ — جيان ، ريان سفينة  
— « وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية » ترجمها من الفرنسية إلى العربية  
ملخصاً يوسف كمال ، القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٩٢٧ :
- ٥ — حتى ( فيليب خورى )  
— « تاريخ العرب » ٣ أجزاء ، نقله إلى العربية الأستاذ محمد مبروك نافع  
الطبعة الثانية سنة ١٩٤٩ :
- ٦ — كامل ( وهيب — دكتور ) نقل إلى العربية :  
— « هيرودوت فى مصر » ، طبع القاهرة سنة ١٩٤٦ .  
— « ديودور الصقلى فى مصر » طبع القاهرة سنة ١٩٤٧  
— « استرابون فى مصر » طبع القاهرة سنة ١٩٥٣
- ٧ — كلوت بك ( الدكتور )  
— « لمحة عامة إلى مصر » جزءان ، تعريب محمد مسعود طبع القاهرة  
بدون تاريخ .

٨ - مسعود (محمد) ترجم إلى العربية .

- « الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض » الصادر بها أمر  
ساكن الجنان محمد على والى مصر بقيادة ربان الفرقاطة البكباشى سليم قبودان  
ملخص من المجموعة الرسمية للجمعية الجغرافية سنة ١٨٤٢ .

٩ - ناصر خسرو علوى

- « سفر نامه » ترجمها من الفارسية الدكتور يحيى الحشاش ، القاهرة  
طبعة أولى سنة ١٩٤٥ .

## المراجع الأجنبية

- 1 — Ball, John, Dr. O.B.E.  
Egypt in the Classical Geographers ; Cairo Gov.  
Press, 1942.
- 2 — Beazley,  
The Dawn of Modern Geography ; vol. 3 Oxford  
1906.
- 3 — Crawford, O.G.S.  
Some Medieval Theories about the Nile ; the Geogr.  
Journal, vol : 114 (1949).
- 4 — Ghalib, Kamel Osman,  
Le Mikyas ou Nilometre de l'Ile de Roda ; Memoire  
de l'Institut d'Egypte Tome LIV, Le Caire 1951.
- 5 — Herrmann, Paul ;  
Conquest by Man ; New York 1954.
- 6 — Humphreys, Noel, Dr. ;  
Ruwenzori ; Flights and Further Explorations, The  
Geogr. Journal, vol. 82 (1933).
- 7 — Johnston, Harry Sir ;  
A History of the Colonization of Africa by Alien  
races. The Nile Quest. London 1903.
- 8 — Kamal, Youssouf ;  
Monumenta Cartographica Africae et Aegypti. Tome  
3 — 1932.
- 9 — Kirwan, L.P.,  
Notes on the Topography of the Christian Nubian  
Kingdoms ; The Journal of Egyptian Archaeo-  
logy, vol. 21 Part I. Sep. 1935.



- 10 — Kramers, J.H. ;  
Art. « AL NIL », E.I.
- 11 — Lane Poole, Stanley ;  
The Story of Cairo ; London 1906.
- 12 — Macmichael, H.A. ;  
A History of the Arabs in the Sudan, vol : 1 Cambridge 1922.
- 13 — Minorsky M.V. ;  
Geographes et Voyageurs Musulmans.  
Extrait du Bulletin de la Societe Royale de Geographie d'Egypte, T. XXIV octobre 1951.
- 14 — Popper, William ;  
The Cairo Nilometer, Studies in Ibn Taghri Birdis, Chronicles of Egypt.
- 15 — Tousson, Omar ;  
Memoire sur l'histoire du Nil. 3 Tomes, L'Institut d'Egypte Le Caire 1925.
- 16 — Trimingham, J. Spencer ;  
Islam in the Sudan. Oxford Univ. Press 1949.

## المحتوى

الصفحة	
٤ - ١	تقديم
١٤ - ٥	تمهيد : مكانة النيل عند المصريين والقدماء حتى الفتح العربى
٦٢ - ١٥	الباب الأول
	النيل فى الكتب العربية
١٧	الفصل الأول : النيل فى الكتب الدينية
٢٤	الفصل الثانى : النيل فى الكتب العلمية
٢٧	أولاً : الجغرافيون
٢٧	١ - الخوارزمى
٢٧	٢ - اليعقوبى
٢٨	٣ - ابن الفقيه
٢٨	٤ - ابن رسته
٢٩	٥ - ابن سيرايون
٢٩	٦ - ابن حوقل
٣٠	٧ - البكرى
٣٠	٨ - الإدريسى
٣٢	٩ - الدمشقى
٣٢	١٠ - ابن فضل الله العمرى

٣٢	ثانياً : المؤرخون
٣٣	١ - ابن عبد الحكم
٣٣	٢ - المسعودي
٣٤	٣ - ابن زولاق
٣٥	٤ - القضاعي
٣٥	٥ - القزويني
٣٦	٦ - ابن دقاق
٣٦	٧ - المقرئزي
٣٧	٨ - ابن تغري بردي
٣٧	٩ - السخاوي
٣٨	١٠ - السيوطي
٣٩	١١ - قاضي المتزلة
٤٠	١٢ - ابن أبي السرور البكري الصديق
٤١	ثالثاً : الرحالة
٤١	١ - ابن سليم الأسواني
٤٤	٢ - ابن جبير
٤٤	٣ - البغدادى
٤٥	٤ - ابن بطوطة
٤٦	رابعاً : كتاب الحراج ونظم الحكم
٤٦	١ - قدامة بن جعفر
٤٦	٢ - القاضي الفاضل
٤٧	٣ - ابن ماني
٤٧	٤ - أبو عثمان التنايلسي
٤٨	٥ - ابن الجيعان
٤٨	٦ - الغزولي
٤٨	٧ - القلقشنبي
٤٩	الفصل الثالث : النيل في كتب الأدب

٧٣	... .. الفصل الأول : المنبع
٩١	... .. الفصل الثاني : المجرى
١٠٦	... .. الفصل الثالث : المصب
١٠٦	... .. قمة الدلتا
١٠٦	... .. فروع النيل في الدلتا
١١٢	... .. فرع منف
١١٢	... .. فرع سخا
١١٢	... .. فرع سر دوس
١١٣	... .. فرع الفرما
١١٤	... .. فرع بو صير
١١٤	... .. فرع رشيد وفروعه
١١٦	... .. فرع دمياط
١١٩	... .. الفصل الرابع : الخللجان والترع والجسور
١١٩	... .. أولا : الخللجان والترع
١٢٠	... .. ١ - خليج المنى والفيوم
١٢٣	... .. ٢ - خليج الإسكندرية
١٢٧	... .. ٣ - خليج أمير المؤمنين
١٣١	... .. ٤ - خليج أبي المنجا
١٣٢	... .. ٥ - خليج الذكر
١٣٣	... .. ٦ - الخليج الناصري
١٣٣	... .. ٧ - ترعة بلقينة
١٣٣	... .. ٨ - ترعة ذات الساحل
١٣٤	... .. ٩ - خليج المحلة
١٣٤	... .. ١٠ - خليج شانسا
١٣٤	... .. ١١ - خليج دمياط



١٣٤	ثانياً : الجسور ... ..
١٣٦	الجسور العامة ( السلطانية ) ... ..
١٣٦	الجسور البلدية ... ..
١٣٨	الجسر بين بولاق ومنية السرج ... ..
١٣٨	الجسر بوسط النيل ... ..
١٣٨	الجسر بين الجيزة والروضة ... ..

### ١٣٩ الباب الثالث

#### الفيضان والنظم الاقتصادية.

١٤١	الفصل الأول : الفيضان ... ..
١٤٢	أسباب الفيضان ... ..
١٤٤	التنبؤ بحالة الفيضان ... ..
١٤٧	المقاييس ... ..
١٥٣	طريقة القياس ووقته ... ..
١٥٤	أعياد النيل ... ..
١٥٤	حفل عروس النيل ... ..
١٥٦	ليلة النطاس ... ..
١٥٧	عيد الشهيد ... ..
	أعياد الوفاء ... ..
١٦٦	الفصل الثاني : النظم الاقتصادية ... ..
١٧٣	١ - النظم الزراعية ... ..
١٧٥	٢ - الضرائب ... ..
١٨٣	٣ - الروك ... ..
١٨٩	٤ - المجاعات ... ..
١٩٢	٥ - الملاحة ... ..

### الباب الرابع

#### الخراجات

## الباب الخامس

### المخطوطات

٢١٣

٢١٥	١ - ابن رضوان
٢١٦	٢ - الأتفهى
٢١٩	٣ - الشهاب الحجازى
٢٢٣	٤ - الجوجرى
٢٢٤	٥ - المنوقى
٢٢٧	٦ - السيوطى
٢٣٠	٧ - الغزالى (أو المغربى)
٢٣٣	٨ - محمد بن زين العابدين البكرى الصديق
٢٣٥	٩ - مؤلف مجهول

### المراجع

٢٣٩	أ - المؤلفات الدينية
٢٣٩	ب - المخطوطات
٢٤٢	ج - المطبوعات
٢٤٩	د - دواوين الشعر
٢٥٠	هـ - الدوريات
٢٥١	و - المؤلفات العربية
٢٥٢	ز - المراجع الأجنبية



## بيان الخرائط

صفحة

الشكل (١)	خريطة الخوارزمي	٢٠٦
» (٢)	» ابن سيرايبون	٢٠٧
» (٣)	» الأدرمي	٢٠٩
» (٤)	» ناسخ كتاب صورة الأرض لابن حوقل	٢١١
» (٥)	» عز الدين بن جماعة	٢١٢
» (٦)	» السيوطي	٢١٤
» (٧)	» الإصطخري	٢١٥
» (٨)	» المقدسي	٢١٦
» (٩)	» ابن حوقل	٢١٨



الجمهورية العربية المتحدة  
الثقافة والإرشاد القومي

## المكتبة العربية

— ٤٤ —

( ٢٩ )

التأليف

[ ٢ ]

التاريخ

القاهرة

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م









# المكتبة العربية

تصدرها

الثقافة والإرشاد القومي

بشرعيتها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية  
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر  
الدار القومية للطباعة والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة

